كتاب

التعليم والإرشاد

تأليف

السيد محمد بدر الدين الحلبي

القسم الأول منه فى التعليم وفيه الكلام على العلوم والمؤلفات وبيان الجيد منها من غيره وشرح أسباب انحطاط العلوم الشرعية وذكر الطرق النافعة فى التعليم

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

(الطبعة الأولى)

(سنة ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م)

(طبع بمطبعة السعادة بجوار ديوان محافظة مصر)

« لصاحبها محمد اسماعيل »

كتاب

التعليم والإرشاد

تأليف

السيد محمد بدر الدين الحلبي

القسم الأول منه فى التعليم وفيه الكلام على العلوم والمؤلفات وبيان الجيد منها من غيره وشرح أسباب انحطاط العلوم الشرعية وذكر الطرق النافعة فى التعليم

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

(الطبعة الأولى)

﴿ سنة ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م ﴾

(طبع بمطبعة السعادة بجوار ديوان محافظة مصر)

« لصاحبها محمد اسماعيل »



اهداء الكتاب

لو كنت أعلم أن أحداً من خاصة المسلمين أولى بهذا الكتاب من سائر إخوانه أو هو أجدر به منهم وأحق به دونهم لآثرته به وجعلته مقصوراً على اسمه .. ولكنى نظرت فرأيت أن موضوع الكتاب البحث عن حال التعليم والإرشاد والدعوة فى الاسلام وما طرأ على هذه الوظائف الثلاث من الضعف والاضمحلال والنظر فى الامراض التى طرأت على جسمها فاصارتها الى مثل ما نراها عليه والنظر في الادوية التي يمكن بواسطتها استنقاذها من مخالب هذه الادواء التى أصابتها

ورأيت أن هذا مشترك بين المسلمين كلهم لا يمتاز فيه قوم عن قوم ولا فرد عن فرد فان الدين دينهم وهم فيه شركاء ونسبة كل واحد منهم اليه كنسبة الآخر وصلاحه صلاحهم جميعا وسوء حاله سوء

حالهم جميعا لا يمتاز فيه واحد عن واحد

الا انه لما كان المخاطب بهذا الكتاب ليس أهل بلد من البلاد ولا قطر من الأقطار بل المخاطب به المسلمون كلهم في مشارق الارض ومغاربها والبحث فيه عن أحوال التعليم والارشاد والدعوة فى كافة الممالك الاسلامية ولم يكن في إمكان هذا العاجز أن يبلغ بصوته مسامع اخوانه المسلمين على تباعد أقطارهم وتباين ديارهم جعلنا كتابنا هذا هدية لاصحاب الجرائد الاسلامية فى كافة الممالك والأقطار سيما المجلات العلمية لينوهوا بذكره بين الناس ويشاركونا فى البحث فى موضوع الكتاب ويقرؤنا على ما كان فيه من صواب وينتقدون علينا ما كان فيه مما لا يطابق الواقع ولا يصادف الحقيقة ويضموا أصواتهم الى صوتنا في مطالبة علماء الاسلام الذين بيدهم مقاليد التعليم واليهم أمر الارشاد والدعوة وهم المسؤولون عن الوظائف الثلاث والمطالبون بالقيام بها أن يذكروا لنا آراءهم فى هذا الموضوع الذى طال فيه البحث وكثر القيل والقال مع أطراح العادات والمألوفات ومراعاة جانب المصلحة والدين والذمة والشرف فان لأصحاب الجرائد من المكانة فى قلوب الناس والثقة بهم ماليس لغيرهم من الناس وهم قد وقفوا أقلامهم وحبسوا ساعات عمرهم على خدمة الامم والنظر فى مصالحهم سيما ما كان فيها متعلقا بالدين وله ارتباط بصلاحه وتحسين أحواله

وان لنا لأملا وطيداً إن صادفنا من أهل الفضل من يضم صوته الى صوتنا أن نتمكن من تحوير النظام العلمى الحاضر وتخفيف وطأة وباله على العلوم والاعمال والعقائد ان لم يكن فى الامكان قلبه مرة واحدة وسحقه بجملته أو على الاقل ان لم يكن هذا ولا هذا تكثير عدد الذين شعروا بسوء الحالة الحاضرة وأدركوا وبال المستقبل ان لم يبادر الناس الى صد هذا التيار الذى جرف العلوم الدينية والأخلاق الاسلامية وأفسد العقائد والاعمال

فاذا كثر عدد المطالبين بتغيير نظام التعليم الحاضر وكثر أتباع الحق اتسع نطاق الأمل في انتصار جيوش الحق واندحار جيوش الباطل ولقد كنا من عشر سنوات وما ان يستطيع أحد من أى طبقة من طبقات الناس أن يهمس بشئ مما نرفع به أصواتنا اليوم ومن شعر منه بشئ من ذلك رأت عيناه مالا يري

ونحن لانشك فى انه لم يزل فى كل مصر من أمصار المسلمين منذ جرى الناس على هذه الطرق فى التعليم والارشاد من أهل الفضل والعقل من يسوؤهم ذلك ويودون من صميم قلوبهم أن لو تغيرت هذه الطرق واستبدلت بطرق أخرى تكون خيراً منها لكن كان هنالك عوائق جمة تمنعهم من المجاهرة بآرائهم ودعوة الناس الى النظر فيها وتمييز حقها من باطلها

فلما نبغ فيهم من لم يكن يرجو بمداهنته مصلحة ولا يخشى بمجاهرته بأسا ورفع صوته باستنكار الحالة الحاضرة ووجوب استبدالها بغيرها من الطرق الحسنة النافعة تحرك بحركته قوم ما كان يمنعهم من الحركة غير الخوف فصاروا حزبا تمكنوا في خلال هذه المدة اليسيرة من اقناع قوم آخرين لم يكونوا من المقتنعين بسوء الحالة العلمية ووجوب السعي وراء اصلاحها والا فهو الوبال على العلوم الاسلامية

وإنا لنأمل أن لا يزال أنصار هذا المذهب يزيدون ويكثرون على تكرر الايام حتي لا تخلو مصلحة من مصالح العلوم الدينية ووظيفة من وظائفها عن قوم منهم يشايعون الحق ويأخذون بيده حتى تكون كلمته هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى ويعود العلم والارشاد الى مثل ما كانا عليه في أول الاسلام رونقا ونضارة والله على كل شيء قدير

وقد بنينا القسم الاول من كتابنا هذا وهو قسم التعليم على ثلاثة اغراض

الاول .. البحث في العلوم التي يشتغل طلاب العلوم الشرعية اليوم بها وبيان ما تمس حاجة المسلمين الى الاشتغال به وما لا تمس وفي الاسلام غنية عنه لأنه دوّن لا لخدمة الدين من أول ما دون أو دوّن لمصلحة دينية وقد حصلت تلك المصلحة وانقطع وقتها ولم يبق من حاجة الي النظر فيه فاذا رأينا من العلوم مالا خير في الاشتغال به ولا مصلحة

الاسلام تحصل من تعلمه وتعليمـه أشرنا بتركه حرصاً على الوقت أن يمضى فى غير فائدة واستبداله بعلم آخر من العلوم التى تمس الحاجة اليها وفى تركها فوات مصلحة من المصالح الدينية والناس معرضون عنه غير ملتفتين اليه أو صرف وقته فى بعض العـلوم التى قلت عناية الطـلاب طلاب العلوم الشرعيـة بها ولم تمنح من ساعات العمر الا اليسـير

الثانى .. بيان حقيقة المؤلفات التى يشتغل بها طلاب العلوم الشرعية وذكر النافع منها من غـيره والاشارة الى مايجب الاشتغال به من الكتب الجيدة النافعة فان الكتاب أحد الاستاذين وهو المعلم عند غيبة المعلم فهما حسن حسن عنه الاخذ وكثرت منه الاستفادة وكما ان الطالب أول ما يسأل عن استاذه الذى أخذ عنه كذلك يسأل عن الكتاب الذى تلقن منه فان كان من الكتب العالية علت مرتبة الآخـذ منـه وتحط مرتبته بقدر انحطاط مرتبة الكتاب في نوعه .. وهذا قد غفل عنـه طلاب العلوم كافة غـير نفر يسير هم أقل من القليـل وفطن له محبو العلم ممن قلت ملامستهم له .. فربما وجدت فى هذا القسم قوما هم على قلة نظرهم فى كتب العلم وندرة اشتغالهم به أتم ادراكا وأكمل فهما وأحسن إحاطة بما علموا من مسائل العلوم من أولئك الذين أفنوا ساعات عمرهم في الاشتغال بالعلوم وكان هذا التفاوت المتباين الاطراف نتيجة حسن الاختيار فيما يؤخذ عنه العلم من الكتب

الثالث . . النظر في طرق التعليم وكيفيته فى المدارس الاسلامية عامة فى مصر والغرب والشام والهند وغيرها وبيان جيدها من رديئها وذكر طرق التعليم النافعة التى كان يجرى عليها التعليم في القرون الأُولى ليعمل به فى أيامنا هذه

ثم ليعلم اننا لم نقصد فى شيء مما ذكرناه فى كتابنا هذا تصريحا واشارة قوما مخصوصين ولا أشخاصا معينين وانما كان القصد لذكر حالة العلوم الشرعية والنظر في اصلاحها عند أهل كل قطر ومصر من الامصار الاسلامية فليكفنا الناس النظر الشزر والقول الهُجْر فما إياهم أردنا ولا نحوهم قصدنا وليشاركونا فى هذا البحث وينظروا معنا فيه نظرة من يتعرف الداء ليلتمس الدواء فعسى أن يتيسر الشفاء

وليعلموا ان الناس بعد هذا اليوم ما كانوا ليتركوهم وشأنهم بعد ما رأوا من سوء حالهم ولا بد من تفريق هذه الجماعات الكثيفة أو المشي على سَنَنٍ يحمد الناس غب أمره ويجتنون ثمرة فوائده فهم فى خير النظر بين الأمرين وفيما غبر وماهو حاضر من حوادث الزمن دلائل قوية على سوء عواقب الجمود والاصرار على التمسك بالباطل

ومن يعص أطراف الزجاج فانه يطيع العوالى رُكِّبَت كل لهذم

كما اننا لم نقصد بشيء مما كتبناه فى انتقاد المؤلفين المتقدمين ومؤلفاتهم وذكر بعض معائبها انتقاص أحد أو الحط من مقام مؤلف

وانما الغرض اقامة الحجة على ان تلك المؤلفات ليست مما يجب الاعتناء به بل مما يجب طرحه وهجره لكونها قاطعة عن العلم على ان الانتقادات البسيطة الأدبية ليست في محل الاستنكار ولا يحاشى عن انتقاد يلحقه أو اعتراض يتوجه عليه إلا من ثبتت له العصمة وحق له الحفظ أما من عدا ذلك من الانسان فهو في معرض السهو والخطأ والنسيان فلا يذهب الناس فيما كتبنا كل مذهب ولا يكبر عليهم ذلك فالحق أحق أن يتبع وليس على خطأ متابعة نسأل الله ان يأخذ بيدنا الى ما فيه صلاحنا هو حسبنا ونعم الوكيل

﴿ توطئة وتمهيد ﴾

ليس يشك أحد فى ان لكل دين من الأديان وشريعة من الشرائع حملة يعلمون الناس أصول ذلك الدين وفروعه على وجه يتمكن به المستفيد من افادته لغيره وتعليمه إياه على مثل الطريقة التى استفاده بها وأولئك الحملة المعلمون هم الذين نسميهم اليوم العلماء وأولئك الآخذون عنهم المتلقون منهم على الوجه المذكور آنفاً هم الذين نسميهم طلبة العلوم

ومرشدين يعلمون العامة من أهل ذلك الدين ما يحتاجون اليه من أمر دينهم على وجه يصححون به أعمال أنفسهم ويتعهدونهم بالموعظة ويعيدون على أسماعهم ذكر الدار الآخرة وما أعد الله جل شأنه فيها لمن أطاعه باتيان أوامره واجتناب نواهيه من الثواب وما ادخر لعاصيه من العقاب لئلا يُسهّل عليهم نزقُ الجهل الاستهانة بالاحكام الشرعية الدينية ثم رفضها وهؤلاء هم الذين نسميهم اليوم الوعاظ

ودعاة وهم الذين يدعون أهل غير دينهم الى الدخول فى دينهم مع اقامة البراهين على حقّية ما يدعون اليه ويحملون غيرهم عليه ودفع ما يورده مخالفوهم عليهم من الشكوك والشبه وهؤلاء هم الذين

يسميهم بعض الطوائف (مبشرين) ولا أعرف لهم اسما عرفيا يخصهم عندنا نحن المسلمين اذ ليس لهم وجود حتى يضع العرف لهم أسماً

لا أقول ان رجال كل فريق من الثلاثة غير رجال الفريق الاول وان لكل وظيفة من هذه الوظائف الثلاثة رجالا غير رجال الوظيفة الأخرى وانما أقول ان هذه الوظائف الثلاث موجودة عند أهل كل دين من الأديان سواء كان القائمون بها متحدين أو مفترقين فقد يوجد في بعض الاشخاص أهلية تؤهله للقيام بهذه الوظائف جميعا وفي نفسه همة تبعثه على القيام بها جملة واحدة فتارة تراه في المدارس الدينية يقرر لتلامذته أصول الدين وفروعه وأخرى تراه في المعابد يعلم العامة ما يلزمهم من أمر دينهم وما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وطورا تراه في المحافل والمنتديات ينشر على الناس محاسن دينه ويدعو الناس الى الدخول فيه والاهتداء بهديه وقد يوجد في شخص آخر ما يؤهله لوظيفة واحدة من هذه الوظائف الثلاث دون غيرها حتى لو حاول من نفسه القيام بوظيفة أخرى لم يستطعها ولم يأت فيها بشيء

وكلما كانت طرق التعليم والارشاد والدعوة عادلة وكانت تؤدى على أحسن وجوهها التي يمكن أن تؤدى بها كانت حالة ذلك الدين أحسن وحالة المنتمين اليه أجمل وأكمل والضد بالضد شبراً بشبر وفتراً بفتر

والناظر الى الدين الاسلامي اليوم يرى إن كان من أهل البصر

ان الوظائف الثلاث فيه أصبحت معتلة مختلة بحيث أصبحت تستحق نظر رحمة وحنان من الذين يودون ارتفاع شأن الاسلام بين الاديان

فوظيفة التعليم أصبحت عقيمة بما اعترى جسمها من الادواء فما تكاد تنتج شيئاً ولو أردنا أن نحصى عدد الناجحين من أولئك المستعدين لتعلم العلوم الدينية نجاحا نسبيا لم يكونوا أكثر من واحد فى كل مائة ولو طلبنا الناجحين حقيقة الذين يمكنهم القيام بوظيفة التعليم لم يكونوا أكثر من واحد فى الالف ان كثر عددهم

وهذا الاحصاء وان كان مبنيا على التخمين وغلبة الظن الا أن له من الشواهد ما يؤكد صحته ومطابقته للواقع أو قربه منه

ولا يضرنا أن يخالفنا قوم يرون أن البقاء على الحالة الراهنة فريضة لازمة وضربة لازب فيقولوا ان أكثر المتعلمين ناجحون فان الحالة المشاهدة حكم عدل بيننا وبينهم

وأما وظيفة الارشاد فبعد ان كانت من أهم الوظائف الدينية ومصلحة من أجل مصالحه صارت من أكبر المفاسد حتى صار من أوجب الواجبات على رؤساء المسلمين وأهل الكلمة النافذة فيهم والأمر المطاع بينهم اعدام هذه الوظيفة مؤقتا ريثما يتمكن الناظرون فى اصلاح شأن الاسلام من تحسين حالها وردها كما كانت وغصن الاسلام على نضارته فلقد يموت كل يوم بسبب هذه الوظيفة سنة وتحيا

بدعة وينتشر عنها من الخرافات المفسدة للعقل والدين مالا يحصيه الا الله

ونحن الآن في هذا المقام بصدد بيان الباعث على جمع هذا الكتاب ونشره وبيان أهمية مباحثه التي تضمنها وتنبيه الخاصة على ما يجب عليهم من مشاركتنا فى هذا البحث حتى يتبين الحق فيه من الباطل ويمتاز النافع عن الضار فيعمل بالأول ويطرح الثانى فاذا انتهينا الى المقصود ذكرنا كل وظيفة من الوظائف الثلاث فى باب على حدة وبينا ما طرأ عليها من المفاسد وما اعترى محاسنها من التشويه ببراهين مشاهدة محسوسة ترفع النزاع

وأما وظيفة الدعوة فقد ارتفع من بيننا نحن المسلمين اسمها ومسماها ولا أدرى متى فارقت هذه الوظيفة الحياة وان كنت أجزم انها آخر الوظائف الثلاث اعتلالا وموتا ووظيفة الارشاد أولهن اعتلالا وموتا

فان أمير المؤمنين عليا رضى الله تعالى عنه حين دخل مسجد الكوفة الجامعَ أمر باخراج من به من الوعاظ ومنعهم من وعظ العامة غير الحسن البصري فانه لما وقف عليه وسمع كلامه أعجب به فاستبقاه ولم يمنعه

وغير شك أن عليا رضى الله عنه لم يأمر باخراجهم من المسجد ومنعهم من الوعظ الا وقد سمع من كلامهم مالا ينطبق على الدين

فرأى أن المصلحة فى اخراجهم وفى تركهم مفسدة دينية يجب اتقاؤها

وعلى هـذا فان فساد وظيفة الارشاد ودخول الخلل عليها كان فى وسط القرن الاول ثم اتسع الخرق بعد ذلك وعظم الخطب فصار الارشاد صـداً عن سبيل الله وأكثرَ هؤلاء القصاص من وضـع الاحاديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وسـلم حتى رأى رجال الدين وجوب تلا فى هذا الخطر فاشتغلوا بجمع متون الحديث وتأليف كتبٍ في حال رواته وهو المسمي بالجرح والتعديل

وان كنتَ قد قرأتَ في بعض كتب التاريخ ان الزنادقة الذين كان دخولهم في الاسلام لاتقاء سطوته أو النكاية فيه انتقاما من أهله أكثروا من وضع الاحاديث المغايرة لحقيقة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم فاعلم ان هؤلاء الزنادقة لم يكونوا يكتبون أحاديثهم الموضوعة ويطرحونها على قوارع الطرق فيلتقطها الناس بل ولم يكونوا يحدثون بها الخاصـة وانمـا كانوا يحدثون بها العامـة فى حلق دروس الوعظ والارشاد فما ذكر فى كتب التاريخ وهنا واحد

ولولا خشية الاطالة والخروج عما نحن بصدده لبينا مبدأ اعتلال كل وظيفة من هذه الوظائف وتاريخ وفاتها مفصلين ذلك تفصيلا حسناً مبرهنين على كل ماذكره بحوادث تاريخيـة تؤكد صحتـه وموافقته للحقيقة . ولكن انما كان قصدنا فى هذا الكتاب الى ذكر

فساد حال الوظائف الثلاث فى أيامناهذه على كثرة أهميتهاوشدة حاجة المسلمين اليها في المحافظة على دينهم ورفع شأنه بين الامم التى تخالفه والتماس الدواء النافع لهـذه الامراض القاتلة وبيان كيف يمكن البرء منها مع قطع النظر عما اذا كانت هذه الادواء قديمة أوشيئاً حدث من جيل أوجيلين أوأكثر أو أقل

وسنقدم بين يدي كلامنافيماقصدنا اليه مقدمة نافعة فاذا انتهينا منها انتقلنا الى المقصود فقدمنا الكلام على التعليم نرتب الكلام فيه على فصول نذكر في كل فصل منها علما من العلوم المتداولة ونبين مقدار أهميته وكمية الحاجة اليه ثم نبين الكيفية التى يُعلّم ويُتعلم بها فى أيامنا هذه فى المدارس الاسلامية فان كانت الطريقة التى ائتلف العلماء التعليم عليهاغير حسنة ولا كافية فى الوصول الى المطلوب ذكرناذلك مبرهنين عليه وأشفعناه ببيان الطريقة التى تتكفل بالوصول الى الغرض المطلوب منه في الزمن اليسير على قدر ما يتصل به فهمنا

فاذا انتهينا منها علماً علماً انتقلنا الى الكلام على وظيفة الارشاد فنذكر كيف كانت فى عصر الخلفاء الراشدين وكيف مسخت صورتها بعد ذلك وما حدث فى الاسلام من الاحداث المضرة المفرّقة بسبب الوعاظ وكيف صارت حالها اليوم بين أيدينا والى أي درجة من الفساد انتهت اليه وما ينبغي ان يتخذ لها من العلاج حتى يعاودها البرء

ويصلح مزاجها وتصير بحيث يمكنها ان تؤدى الغرض المقصود منها وتفيد النتيجة التى رتبت من أجلها

فاذا أتينا على ذلك كله واستوفيناه إيضاحا وبيانا شرعنا فى الكلام على الدعوة فبينا حقيقتها التى ينبغى ان تكون عليها وكيف كانت فى صدر الاسلام وما ينبغى ان يفعل حتى تعود الى مثل ما كانت عليه حين أول نشأتها وفى شرخ أشبابها

وقد أفدنا ما قصدنا اليه من المعانى بعبارات سهلة بسيطة قريبة التناول سهلة المأخذ حتى لا يستعصى على أحدمن الناس فهمها وادراك ما فيها فانا لم نقصد بهذا الكتاب خاصة الامة وفضلاءها فانهم يعلمون من حال هذه الوظائف أكثر مما نعلم ولكن القصد الى افهام من هو دونهم ممن حجبه حجاب التقليد عن مشاهدة الصواب فيها والله المسؤل ان يوفقنا لسلوك أقوم الطرق انه خير موفق ومعين وهو حسبنا ونعم الوكيل

﴿ مقدمة كتاب التعليم ﴾

ابتداء تدوين العلوم ـ بيان الغرض الباعث على تدوين كل واحد منها ووجه الحكمة فى ذلك ـ حاجة الاسلام اليها ـ أحسن مؤلفات كل فن منها

العلوم التى نتدارسها اليوم ونشتغل بها تعلما وتعليما فى المدارس المخصصة لتعليم علوم الدين سواء كانت دينية أو وسيلة لعلوم الدين لم تكن فى صدر الاسلام وانما حدثت بعد الصدر الاول فى أزمان متقاربة للحاجة اليها أو للتوسع فى العلوم والمعارف ولم يكن حدوثها على الوجه المشاهد بيننا الآن دفعياً وانما كان تدريجياً شيئاً فشيئاً على حسب ما يبدو من الحاجة اليها حتى بلغت أعلى مراتب كمالها ثم عادت الى الذبول والتلاشى والضعف والاضمحلال حتى صارت كما نشاهدها اليوم

فعلم العربية كان ملكة من الملكات يأخذها الأول عن الآخر كما يتلقى الصبيان اللغات من أهلهم فلما جاء الاسلام واشتغل الناس بالفتوح وتوغلوا فى بلاد الاعاجم وكثرت مخالطتهم لهم تغيرت الملكات بما تكرر عليها سماعه من كلام المتعربين وفسدت بما ألقي فيها مما يغايرها فخشى أهل العلم ان تفسد تلك الملكة رأساً ويغلق عليهم فهم القرآن والسنة لفساد الملكة التى تؤهل لفهمهما فوضعوا هذه القواعد لحفظ اللسان العربى من الاضمحلال والتلاشى حتى يرجع اليها فيما

اختلاف فيه من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إذ هما أصل الدين وعليهما مدار السعادتين الدنيوية والاخروية ولو ضاعت اللغة التى أنزلا بها لضاعا أيضاً ولو ضاعا لضاع الدين أيضاً فانّ الدين يجرى منهما مجرى الفرع من الاصل وهما يجريان من اللغة العربية مجرى الجسم من الروح والفرع بدون أصله محال وجوده والجسم بغير روح شئ لا ينتفع به بوجه ما

وأول من ألف في هذا الفن أبو الاسود الدؤلى قالوا انه وضعه باشارة أمير المؤمنين علىّ رضي الله عنه . . رأى الملكة تغيرت فخاف عليها الضياع فأشار عليه بحفظها فعمل الى ضبطها بالقوانين التى استنبطها من كلام فصحاء العرب وبلغائهم وهم الذين لم يخالطوا غيرهم كهذيل وكنانة وبعض تميم وقيس عيلان ومن يضاهيهم من عرب الحجاز وأوساط نجد فأما الذين صاقبوا العجم فى الاطراف فلم تعتبر لغاتهم وأصولها في أصول العربية ولا بقية العلوم الادبية كحمير وهمدان وخولان والازد لمقاربتهم الحبشة والزنج وطيّ وغسّان لمخالطتهم الروم بالشام وعبد القيس لمجاورتهم الجزيرة وفارس

ثم توسع الناس فيه على قدر ما كان يبدوا من الحاجة بقصور الملكة وازدياد اللحن بين المتكلمين بهذه اللغة حتى انتهى الى الخليل ابن أحمد الفراهيدى أيام الرشيد العباسى والناس أحوج ما يكون الى

هذا الفن لضياع الملكة فهذب الفن وكمل أبوابه وجاء سيبويه تلميذه فأخذ عنه ما دوّنه وأكمل التفاريع واستكثر من الادلة والشواهد على قواعده وأحكامه ووضع فيه كتابه الجامع الذي هو القدوة لكل من تكلم فى هذا الفن بعده

ثم خلف هؤلاء قوم كأبى على الفارسي وأبى اسحاق الزجاج فرأوا ان الكتب المؤلفة فى هذا الفن وان كانت كافية فى المطلوب منها موفية بالغرض الذي وضعت من أجله الا أن المبتدئين بتعلم هذا الفن ليس في استطاعة قواهم العقلية أخذ قواعد هذا العلم منها فألفوا فيه كتباً مختصرة الا أنهم لم يخالفوا طريقة سيبويه في كتابه

ثم طال الكلام فى هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها البصريين والكوفيين وكثرت الادلة والحجاج بينهم وتباينت الطرق في التعليم ووقع الاختلاف فى اعراب كثير من آي القرآن بسبب اختلافهم وطال الامر على المتعلمين حتى ما يكادون يدركون له آخراً وجاء المتأخرون بعدهم فاختصروا تلك المطولات إما مع الاستيعاب لجميع ما نقل كما فعل ابن مالك فى التسهيل أو مع الاقتصار على المبادى للمبتدئين كما فعله الزمخشرى فى المفصل . وكانت هذه الصناعة كلما مرت عليها أيدى المصنفين تلاشت وضعفت حتى جاء قوم ليسوا في العير ولا فى النفير حداهم حب الشهرة وبعد الذكر وبقاء الاسم

على التأليف فألفوا فيها كتباً صادفت من الناس قبولا والتفاتا لامور لا نعقل أسبابها فقضت على البقية الباقية من هذه الصناعة وصار المحسن لها من يتجافى عن اللحن في القول البسيط والكلام الظاهر فاذا وقع الى عبارة رصينة أو بيت شعر إشتبه عليه الامر واختلط عليه الحال فلم يعد ولم يبد

قال في خزانة العلوم ومن مختصراته المفيدة كافية ابن الحاجب وعليها شروح كثيرة ذكرها ولب الالباب للقاضي البيضاوى ولب الاعراب للاسفرائيني تاج الدين والمصباح للمطرزى والعمدة لابن مالك ومن المبسوطات شروح المفصل كالايضاح لابن الحاجب والاقليد للجعبري وشرح أبي البقاء بن يعيش وكتاب مغنى اللبيب عن كتب الاعاريب لابن هشام

وأما التفسير فهو من العلوم التى قارنت ظهور الاسلام ونزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم اذ كان ما من آية تنزل على النبي صلى الله عليه وسلم الا ويفسرها لاصحابه الا أنه تأخر تدوينه الى عصر تابعي التابعين إستغناء بالحفظ عن الكتابة ولندرة الكتاب فيهم مع اشتغالهم كافة بالحروب لنشر الدعوة الاسلامية ثم دوّن على ما ستراه بعد هذا

فالمفسرون من الصحابة الخلفاء الاربعة وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبو موسي الاشعري

وعبد الله بن الزبير وابن عمر وأنس بن مالك وأبو هريرة وجابر وعبد الله بن عمرو بن العاص

وأكثر من رُويَ عنه في التفسير من الخلفاء الاربعة علي رضي الله عنه لتأخر وفاته وابن مسعود روي عنه أكثر مما روي عن عليّ لاشتغال علي بأمر الخلافة ومحاربة الخوارج وغير ذلك وأما ابن عباس حبر الامة وعالمها وترجمان القرآن فقد روي عنه في تفسير كتاب الله مالا يحصى كثرة وأحسن الطرق عنه طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي المتوفي سنة ثلاث وأربعين ومائة وعليها اعتمد البخاري في صحيحه وطريق قيس بن مسلم الكوفي المتوفى سنة عشرين ومائة عن عطاء بن السائب وطريق ابن اسحاق صاحب السيرة وأوهى طرقه طريقة الكلبي عن أبي صالح والكلبي هو أبو النصر محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ست وأربعين ومائة فان انضم اليه رواية محمد بن مروان السدى الصغير فذلك سلسلة الكذب ٠ ومن الطرق الواهية عنه طريق مقاتل بن سليمان الازدي المتوفى سنة خمسين ومائة الا ان الكلبي يفضله لما في مقاتل من المذاهب الرديئة وطريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس منقطعة فان الضحاك لم يلقه فان انضم الى ذلك رواية بشر بن عمارة فضعيفة لضعف بشر وان أخرج له ابن جرير وابن أبي حاتم وان كان من رواية جرير عن الضحاك فأشد ضعفا لان

جريراً شديد الضعف متروك الحديث ولذلك لم يخرج له ابن جرير في تفسيره

هذه طرق تفسير ابن عباس جيدها ورديئها نقلناها برمتها وميزنا غثها من ثمينها لئلا يغتر كل أحد بنسبتها الى ابن عباس فان لابن عباس منزلة في تفسير القرآن لا تضارع وليس كل من روى عنه شيئاً محقاً في روايته بل فيهم الضعيف والكذاب فينبغي لمن نقل له شئ عن ابن عباس في التفسير ان يتبين الطريق التي روى له منها فان كانت من الطرق الجيدة اعتمدها والا ردها

وأما أبي بن كعب المتوفي سنة عشرين فعنه في التفسير نسخة كبيرة يرويها أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عنه وهذا الاسناد صحيح ولا أعلم لها وجوداً في يومنا هذا

وأما مفسرو التابعين فمنهم مجاهد بن جبر المكي المتوفي سنة ثلاث ومائة قال عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة وعلى تفسيره اعتمد الشافعي والبخارى ومنهم سعيد بن جبير المتوفى سنة أربع وتسعين وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى بمكة سنة خمس ومائة وعطاء بن أبي رباح المتوفى سنة أربع عشرة ومائة وطاوس بن كيسان المتوفى سنة خمس ومائة وهؤلاء كلهم أصحاب ابن عباس والآخذون عنه

ومنهم علقمة بن قيس المتوفي سنة اثنتين ومائة والاسود بن

يزيد المتوفى سنة خمس وسبعين وابراهيم النخعي المتوفى سنة خمس وتسعين والشعبي المتوفى سنة خمس ومائة وهؤلاء أصحاب ابن مسعود ومنهم عبد الرحمن بن زيد ومالك بن أنس والحسن البصرى وعطاء الخراساني ومحمد بن كعب القرظى المتوفى سنة سبعة عشر ومائة وأبو العالية رفيع بن مهران المتوفى سنة تسعين والضحاك بن مزاحم وعطية بن سعيد المتوفى سنة احدى عشرة ومائة وقتادة والسدى الكبير والربيع بن أنس

ثم جاء بعد هؤلاء طبقة دونوا التفاسير وجمعوا فيها بين أقوال الصحابة والتابعين كسفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ويزيد بن هرون وعبدالرزاق وآدم بن أبي اياس واسحاق بن راهويه وروح بن عبادة وعبد الله بن مجيد وأبو بكر بن أبي شيبة

ثم جاء بعد هذه الطبقة طبقة أخرى حذت حذو التي قبلها الا أنها اتسعت في الرواية والطرق التي جاءت الرواية منها كابن جرير وعلى ابن أبي طلحة وابن أبي حاتم وابن ماجه والحاكم وابن مردويه وابن المنذر وغيرهم

ثم انتصب من بعد هذه الطبقة طبقة أخرى فألفوا تفاسير مشحونة بالفوائد وأقاويل الصحابة والتابعين الا أنها محذوفة الاسانيد كأبي اسحاق الزجاج وأبي علي الفارسي وعلى بن أبي طلحة وأبي

العباس المهدوي وحذا حذوهم أبو جعفر النحاس وأبو بكر النقاش الا أنهما اقتصرا فاستدرك الناس عليهما

ثم ألف فى التفسير طائفة من المتأخرين عن هؤلاء فاختصروا الاسانيد ونقلوا الاقوال بتراً فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح بالعليل ثم صار كل من سنح له قول يورده ومن خطر بباله شئ يعتمده ثم تناقل المؤلفون ذلك خلفا عن سلف واعتمدها الناس واندرست كتب الائمة لعدم الباحث عنها فاندرست كتب التفسير وعلم التفسير ولم يبق فى أيدى الناس شئ مما يصح الوثوق به والاعتماد عليه . قال السيوطى رأيت فى تفسير قوله تعالى غير المغضوب عليهم نحوَ عشرة أقوال مع ان الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ليس غير اليهود والنصارى حتى قال ابن أبى حاتم لا أعلم فى ذلك خلافا لاحد

ثم نبغ من بعد هؤلاء قوم نبغوا فى بعض العلوم فكل واحد منهم ملأ تفسيره بما غلب على طبعه من الفنون واقتصر على ما تمهّر فيه كأن القرآن أنزل لاجل هذا العلم فقط فالنحوي ليس له الا تكثير وجوه الاعراب وان كان بعضها بعيداً ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كالزجاج والواحدى فى البسيط وأبى حيان فى البحر والنهر والاخباري ليس له الا القصص والاخبار عمن سلف من الامم حقاً

كان ذلك أو باطلا كالخازن والثعلبي والفقيه يورد الاحكام الفقهية وربما استطرد الى ذكر أدلتها ورد كلام المخالفين فيها الى غير ذلك مما لا ارتباط له بعلم التفسير بوجه من الوجوه كما فعل القرطبي فى تفسيره وصاحب العلوم العقلية يشحن كتابه بأقوال العلماء والفلاسفة ومناظراتهم والرد عليهم كما فعل فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير

وصاحب البدعة من أهل كل مذهب يملأ كتابه ببدعه ويؤول كل ما يمكنه تأويله من آي القرآن للاستدلال به على بدعته فان عرض له من الآيات ما يخالف بدعته عمد لصرفها عن ظاهرها واختلق لها معنى لا يعارض بدعته ولا يبطلها وان لم يكن بيده حجة على تأويل القرآن وصرفه عن ظاهره الذى كلف الناس بالعمل به غير مخالفته لبدعته التى يرى انها الحق الصراح وان نصوص الشرع ان خالفتها يجب ان ترد بالتأويل اليها

وهذه طريقة عامة المفسرين من أهل الكلام كل واحد منهم يستدل بالآية على ضد ما يستدل بها مخالفه عليه ومن قرأ تفاسيرهم رأى كيف يغلب حب النفس على الانسان فيخرج به الى نقض أساس دينه وتشويه محاسنه ويرحم الله أبا العلاء حيث يقول

وكم من فقيه خابط فى ضلالة وحجته فيها الكتاب المنزل

والملحد يشحن كتابه بالكفر والخرافات وأنواع الالحاد ويجعل

القرآن حجة على كفره ويؤول النصوص القرآنية للوصول الى هذا الغرض كما فعل أهل التفسير من المتصوفة ومن قرأ تفاسيرهم لم يصدق أن القرآن أنزل بلسان عربي مبين . . وأكثر الناس يقرأون كل ما يبصرون ويعتقدون كل ما يقرأون لا يفرقون في الاقوال بين حق وباطل ولا في الرجال بين مسلم ومبتدع وملحد والامر لله العلي الكبير

وأما صناعة المنطق وهو علم ميزان الافكار فلا شك انها لم تعرف في الاسلام الا في أوائل المائة الثالثة وسيأتي ذكر تاريخ دخولها الى الاسلام وبيان الباعث عليها وهي من وضع قدماء اليونان الا انها كانت قبل ارسطو اليوناني جملا متفرقة غير مهذبة ولا مرتبة فلما جاء ارسطو هذبها ورتبها وجعلها مقدمة العلوم الحكمية البرهانية ولذلك نسب اليه بعض الناس وضعها وسمي المعلم الاول مع انه لم يضعها كما علمت وانما جمع متفرقها

ثم لما انتهى ارسطو من تهذيب الصناعة وترتيبها وضم كل مسألة من مسائلها الى ما يناسبها ويشاكلها وضع فيها كتابه المسمى بالنص وجعله في ثمانية كتب أربعة في صورة القياس وأربعة في مادته . . الكتاب الاول في الاجناس العالية التي ينتهي اليها تجريد المحسوسات وهي التي تسمى اليوم بالمقولات . . والثاني في القضايا التصديقية ويسمى كتاب العبارة وهو المسمى اليوم بالتصديق . . والثالث في القياس وصوره

المنتجة ويسمى كتاب القياس ؛ والرابع في البرهان المنتج لليقين وهو كتاب البرهان ..والخامس فى ذكر القواعد المطلوبة لقطع المجادل والخام الخصم وهو كتاب الجدل ..والسادس كتاب السفسطة وهو القياس الذى يفيد الباطل ويصوزه بصورة الحق وانما دُون ليعرف فيحذر منه المناظر ؛ والسابع كتاب الخطابة وهو القياس المراد منه ترغيب الجمهور وحملهم على ما يراد منهم بذكر ما يألفونه أو يركنون اليه من قول من يثقون بقوله؛ والثامن كتاب الشعر وهو الذى يفيد تشبيه شئ بشئ للاقبال عليه أو التنفير منه هذه أبواب المنطق التي وضعها قدماء اليونان ودوّنها وجمعها ارسطو

ثم ظهر بعد ارسطو قوم من متفلسفة اليونان رأوا ان الكتاب الرابع وهو كتاب البرهان الذي يحث فيه عن أجزاء القياس والتعاريف والحدود لا يزال ناقصاً لا يؤدى المطلوب منه لانهم لم يشرحوا فيه ماهية أجزاء التعاريف والحدود واقتصروا فى الكلام فيها على اشتراط كون المعرِّف مطابقاً للمعرَّف فوضعوا كتاب الكليات الخمس المفيدة للتصور وشرحوا به مهاياها وكيفية ترتيبها فكانت بذلك كتب المنطق تسعة كتب

فلما ولى المأمون العباسى أمر الخلافة وكان محباً للعلوم مشتغلاً بها مكرما لاهلها موقراً لهم مكثراً من ممارستهم ومناظرتهم وكانت الحضارة

قد مدّت رواقها فى الممالك الاسلامية وقامت للعلم فيها سوق رائجة واتسعت الحاجة الى العلوم باتساع الحضارة رغبت نفسه فى ترجمة العلوم اليونانية ونقلها الى اللغة العربية وكان قد بلغه ان بمدينة أثينة من ولاية موره خزانة عامرة بنفائس كتب فلاسفة اليونان فكتب الى ملك الروم حينئذ يطلب منه ان يوجه اليه بتلك الكتب فضنّ بها أولا فمنعها ثم أشار عليه بطارقته وأهل الرأي في مملكته ان لا يحبسها عنه وقالوا انها قل ان تنتشر بين أهل دين الا وأفسدت دينهم وزلزلت عقائدهم فأرسلها الى المأمون فلما حصلت عنده سر بها سروراً عظيما لشدة محبته للعلم وجمع لها مترجمي مملكته كحنين بن اسحاق وثابت بن قرة وغيرهما فترجموها الى العربية لكن كانت التراجم مختلفة لا يوافق شيء منها الآخر لقلة معرفتهم باللغة التى ترجموا عنها ولانهم لم يكونوا عرفوا شيئاً من اصطلاحات العلوم التى ترجموا كتبها فما كانوا يهتدون الى وجه التعبير عنها وترجمتها وبقيت التراجم غير محررة والناظرون فيها في اضطراب الى ان جاء منصور بن نوح الساماني فالتمس من أبي نصر الفارابى وكان اماماً فى علوم اليونانيين ان يحررها ويلخصها ففعل ولهذا كان يلقب بالمعلم الثانى لانه الذي أظهر كتب المعلم الاول ارسطو الى عالم الوجود وجعلها بحيث يمكن الانتفاع بها

وكانت كتبه في خزانة الكتب بأصبهان المسماة (بصوان الحكمة)

الى زمان السلطان مسعود الا انها كانت غير مبيضة لان أبا نصر لم تكن له همة قوية في التأليف ونشر التصانيف وكان يغلب على أخلاقه حب السياحة والتنقل فى البلدان فلما استوزر السلطان مسعود الشيخ الرئيس أبا علي بن سينا لمكانته فى الطب وحاجة الناس اليه فى ذلك الحين اذ لم يكن اذ ذاك من يجيد معرفته ويحسن العمل به وتغلب على فكر السلطان ونزل عنده المنزلة الرفيعة استولى على تلك الخزانة المذكورة آنفاً فأخذ منها كتب أبي نصر ولخص منها مؤلفاته كالشفاء والاشارات والنجاة والمبدأ والمعاد وغيرها من مصنفاته ثم اتفق ان تلك الخزانة احترقت فاتهم الناس أبا علي الرئيس بانه هو الذى أحرقها لئلا يطلع الناس على مافيها من الكتب فيعلموا انه أخذ مؤلفاته منها ولم يأت بشئ من عنده والله أعلم بحقيقة ذلك وكيف كان فان أبا علي أخذ علمه من كتب أبي نصر كما ذكر هو ذلك عن نفسه فى تاريخ تلقيه للعلوم

ثم جاء المتأخرون من المناطقة فغيروا اصطلاحات المنطقيين والحقوا بالنظر فى الكليات الخمس ثمرتها وهي الكلام فى الحدود والرسوم نقلوها من كتاب البرهان وحذفوا كتاب المقولات رأسا لان نظر المنطقى فيه بالعرض لا بالذات ثم جُعل علما على حدة والحقوا فى كتاب العبارة وهو باب القضايا وأقسامها الكلام فى العكس لأنه من توابع الكلام فى القضايا ببعض الوجوه ثم تكلموا فى القياس من

حيث انتاجه للمطالب على العموم لا بحسب المادة وصدقوا النظر فيه بحسب المادة وهى الكتب الخمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة ثم قل نظرهم اليها وضعفت عنايتهم فربما ألم بها بعضهم الماما وربما أغفلها آخرون كأنها لم تكن وهي المهم المعتمد فى الفن ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاما مستبحراً ونظروا فيه من حيث أنه فن برأسه لا من حيث انه آلة لعلم سواه وهو التوحيد على زعمهم فطال الكلام فيه واتسع وتباعدت أطرافه حتى مايمكن جمعها وأول من فعل ذلك فخر الدين الرازى ثم من بعده أفضل الدين الخونجي ثم جاء بعد هؤلاء قوم لخصوا كتبهم وطرحوا منها شيئاً كثيرا كالكاتبي وقطب الدين الرازى ثم انتهى الامر الى قوم لمسوا قواعد هذا الفن بأنامل خشنة فألفوا فيه مختصرات لا تغني في هذا الفن قليلا ولا كثيراً ثم وضعت عليها الشروح والحواشي والتقارير وأكب الناس عليها واقبلوا على الاشتغال بها وهجرت كتب المتقدمين والمتأخرين وكل من يحسن النظر في هذا العلم وهجرت كأن لم تكن شيئاً مذكوراً وصار من ينظر فى كتاب الشمسية لنجم الدين الكاتبي وهو من أقل كتب صغار الطلاب قبل أعوام قليلة بمنزلة أبى نصر الفارابى أو الشيخ الرئيس ابن سينا على الاقل وصار الناس فى الاشتغال بهذا الفن فى هذه الكتب الساقطة العديمة الجدوى الى مثل قول المثل (أحشفا وسوء كيله)

اشتغلوا فى أقل العلوم جدوى وطلبوه من أحقر كتبه

وما زال هذا العلم منذ نقل الى اللغة العربية وانتشرت كتبه بين العلماء يختلف الناس فى حكم الاشتغال به فمن قائل بحرمته ومن قائل بوجوبه وشتان مابين الحكمين الوجوب والحرمة وممن حرمه الامام الشافعي ونص عليه من أصحابه امام الحرمين والغزالى في آخر أمره بعد أن تاب عن الاشتغال بعلم البدعة علم الكلام وابن الصباغ صاحب الشامل وابن القشيرى ونصر الدين المقدسي والعماد بن يونس وحفيده والسلفي المحدث وابن بندار وابن عساكر وابن الاثير وابن الصلاح وابن دقيق العيد والبرهان الجعبرى وأبو حيان والشرف الدمياطى والذهبي والطيبي والاسنوى والاذرعى وممن افتى بتحريمه من المالكية ابن أبى زيد القيروانى وأبو بكر بن العربى والطرطوسى وأبو الوليد الباجي وأبو طالب المكي صاحب قوت القلوب وأبو الحسن بن الخطاب وأبو حبيب المالقى وابن المنير وابن رشد الكبير وابن أبى حمزة وعامة أهل المغرب ونص عليه من أئمة الحنفية أبو سعيد السيرافى والسراج القزويني وغيرهما ومن أئمة الحنابلة ابن الجوزى وسعد الدين الحارثى والتقي ابن تيمية وغيرهم؛ وقال بوجوبه قوم لا يمكن حصرهم لكثرتهم

وليعلم ان الذين حرموا النظر فى كتب المنطق لم يحرموا مثل كتاب الشمسية والمطالع وايساغوجي واضرابها فان هذه لا يقول أحد

بحرمة النظر فيها وانما حرموا من كتب المنطق ماهو مشحون بالعقائد الزائغة والافكار الفاسدة قال الشوكانى وعليك بمختصرات الفن كالتهذيب والشمسية واحذر من مطولاته المستخرجة على قواعد اليونان كشفاء ابن سيناوما يشابهه من كتبه وكتب الفارابى واضرابهما فان فى غضونهما داء عضالا وسما قتالا انتهى كلام الشوكانى فان كان فى كتب المتأخرين الخالية من العقائد والكلام في الالهيات شائبة فانما هو من جهة اضاعة الوقت وصرف نقد العمر فيما لايجدى دنيا ولا آخرة وسيمر بك في الكلام على هذا العلم بيان ذلك ان شاء الله تعالى

ومن جياد كتبه المؤلفة فيه الشفاء والاشارات لابن سينا وكتاب المطالع والمناهج وبيان الحق للارموى وكشف الاسرار لمحمد بن عبد الملك الخونجى والتلويحات والمطارحات ليحيي بن حبش السهروردى المقتول والمعتبر لابي البركات البغدادي اليهودى أولا فى أكثر عمره والمهتدي الى الاسلام فى آخر عمره ومعيار العلم ومختصره محك النظر للغزالى والبصائر النصيرية لزين الدين الساوى وكتبه كثيرة أكثر من ان تحصى وتحصر وخير ما طبع منها الى يومنا هذا المطالع والبصائر ومحك النظر

وأما علم أصول الفقه فهو من العلوم المستحدثة فى الاسلام ولم يكن فى العصرين الاول والثانى وكان السلف فى غنية عنه جملة واحدة

وذلك لان مدار الفن على ثلاثة أمور . . الاول استفادة المعانى من ألفاظ الكتاب والسنة الذين هما أصلين للاحكام الشرعية الفرعية . . الثاني معرفة القوانين التى يحتاج اليها فى استفادة الاحكام الشرعية من ألفاظهما . . الثالث معرفة طرق الاحاديث ورجالها ودرجاتهم فى العدالة ودرجات الاحاديث ليعطى كل واحد من الاهمية حسب ما يليق به فلا يزاد على حقه ولا ينقص عنه: فأما استفادة المعانى من ألفاظ الكتاب والسنة فهم لا يحتاجون فيه الى أزيد مما عندهم من الملكات اللسانية فكانوا لحين سماعهم لفظ القرآن أو السنة يفهمون المراد منه لان ذلك بلغتهم التى عليها مدار تحاورهم وتفاهمهم ولم يكونوا يحتاجون فى فهم المعانى من ألفاظها الى وسائط كما نحتاج اليه نحن اليوم لبعدنا عن اللغة ! وأما القوانين التى يحتاج اليها فى استفادة الاحكام فمعظمها انما أخذ عنهم وهم انما كانوا يعرفون ذلك بالسليقة لان تلك القوانين قوانين لغتهم فهم كانوا أعرف الناس بها وما كانت تغرب عنهم معرفتها في حين من الاحيان وانما اختلف الائمة بعدهم فى تلك القوانين واختلفت التفاريع تبعا لذلك لانهم لم يقفوا حقيقة الوقوف على قوانينهم في استفادة المعانى من الالفاظ أو قام لديهم من الشبه ما أوجب الشك في كون ذلك من قوانينهم فى استخراج المعانى من ألفاظها وهذا شئ يحتاج الى بسط ليس هذا محله انما الغرض الآن أن نبين أن قوانين

الاصوليين التي دوّنوها لاخذ الاحكام الشرعية كقولهم الامر لايوجب التكرار والامر للوجوب والامر بواحد مبهم من أشياء معينة تخيير بينها انما أخذت من اصطلاح أهل اللغة فالسلف في غنية عنها لانها في سليقتهم وطبيعتهم لا يحتاجون فيها الى تعلم وكسب وأما الاسانيد فلم يكونوا يحتاجون الى النظر فيها لقرب العهد وممارسة النقلة وخبرتهم بهم لان من لم يسمع منهم الحديث من النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة أخذه بواسطة أو واسطتين فقط فلم يكن المروي له يخلو عن معرفة حال الراوى لمخالطته له وشهرته بين الناس لقرب عهده

ثم لما انقرض السلف وذهب الصدر الاول وانقلبت العلوم كلها صناعات بعد ان كانت ملكات وكثرت الحوادث وتعددت الوقائع ولم يكن في فتاوى الصحابة والتابعين ما يكفي لكل حوادث الزمن ووقائعه لأن فتاويهم كانت قاصرة على ما وقع بينهم من حوادث الفتوي وسئلوا عنه ولم يكونوا يفرضون ما لم يقع من الحوادث واقعاً ويلتمسون لها الاحكام من المآخذ الشرعية احتاج الفقهاء والمجتهدون الى تحصيل هذه القوانين والقواعد من اللغة لاستفادة الاحكام من الكتاب والسنة والاجماع والقياس فجعلوها فناً قائماً برأسه سموه علم أصول الفقه لان الفقه انما يؤخذ بواسطته

وكان أول من كتب فيه محمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه

أملي فيه رسالته المشهورة تكلم فيها فى الاوامر والنواهى وأقسام البيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس

ثم تلاحق علماء الامصار فى الكتابة فيه وتحقيق قواعده وبسطها وتوضيحها بذكر فروعها حتى جاء أبو زيد الدبوسي فكتب فى القياس بأوسع مما كتب به جميعهم وتمم الابحاث والشروط التى يحتاج اليها فيه وكملت صناعة أصول الفقه بكماله وتهذيب مسائله وتمهدت قواعده

وكتب المتكلمون كتباً في هذا الفن أيضاً الا أن طريقتهم كانت تخالف طريقة الفقهاء فطريقة الفقهاء أمس بالفقه وأليق بالفروع لكثرة الامثلة منها والشواهد وبناء المسائل على النكت الفقهية وطريقة المتكلمين فى الاصول تجريد صور تلك المسائل عن الفقه والميل الى الاستدلال العقلى ما أمكن لانه غالب فنونهم ومقتضى طريقتهم فكما عدلوا فى تحقيق العقائد التوحيدية الى قضايا العقول المشوبة بالاوهام المحجوبة بالعادات وتركوا المآخذ الشرعية الصحيحة كذلك عدلوا فى تحقيق قواعد الاصول الى قضايا العقول وعدلوا عن مآخذها اللغوية فصارت طريقتهم في الموضعين واحداً وكثر اللجاج بينهم فى غير محل النزاع

ومع هذا فقد كانت طريقتهم أروج وأشهر عند أهل العلم

وكتبهم فى الاصول أكثر تداولا وانتشارا والناس بها أكثر عناية على كثرة ما فيها من التشويش والصوارف عن الوقوف على حقيقة قواعد الفن ومعرفة الصواب فيما اختلف فيه منها

ومن أحسن ما كتبه المتكلمون فى هذا الفن كتاب البرهان لامام الحرمين والمستصفى لابى حامد الغزالى وكتاب العهد لعبد الجبار وشرحه المسمى بالمعتمد لابى الحسين البصرى وكلاهما من أئمة المعتزلة فكانت هذه الكتب أركان هذا العلم وقواعده

ثم جاء فخر الدين الرازي وسيف الدين الآمدى فلخصا هذه الكتب الاربعة وجمعا بينها الا انهما اختلفا فى الفن بين التحقيق والحجاج فأما الرازى فانه مال في كتابه المحصول الى الاستكثار من الادلة العقلية والاحتجاج كما هى عادته فى كل فن كتب فيه . وأما سيف الدين الآمدى فى كتابه الاحكام فقد كان ميله الى تحقيق المذاهب وتفريع المسائل : ثم مال الناس الى اختصار هذين الكتابين فاختصر سراج الدين الارموى كتاب المحصول فى كتاب سماه التحصيل وتاج الدين الارموى فى كتاب سماه الحاصل ثم جاء القرافى من متأخرى المتأخرين فاقتطف من هذين المختصرين بعض قواعد ومقدمات في سفر صغير سماه التنقيحات وأختصر كتاب الاحكام للآمدى أبو عمرو بن الحاجب ثم اختصر مختصره فاشتهر بين الناس

وعُنوانه وهو المعروف اليوم بالمختصر الحاجبي . ومن أحسن كتب الحنفية فى هذا الفن كتاب أبى زيد ثم كتاب أصول الجصاص ثم أصول السرخسي ثم أصول البزدوى وهو متداول في هذه الايام وطلبة العلم الاتراك مولعون به وبشرح عبد العزيز البخارى عليه ولوعَ المصريين بشرح جمع الجوامع وحاشية البنانى عليه وشتان ما بينهما . وجاء ابن الساعاتى من متأخري الحنفية فجمع بين كتاب الاحكام وكتاب البزدوى فى الطريقتين وسما كتابه بالبدائع فجاء من أحسن الاوضاع وأبدعها وكان للناس فيما سبق عناية كبيرة به أما نحن فهذه الكتب فى نظرنا أقل الكتب قدراً وأقلها نفعاً والعمدة عندنا على قوم من المتأخرين ليسوا فى العير ولا فى النفير

وأما الفقه وهو قانون النشأتين ومبدأ السعادتين فقد كانت الاحكام الشرعية فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم تؤخذ عنه ومن غاب عنه من أصحابه يجتهد فيما يعرض له من الحوادث فاذا رجع اليه أخبره بما وقع له فأما أقره وإما رده وأمضى عمله الاول كما هو مبسوط فى فتاوى النبي صلى الله عليه وسلم واتباعه . فلما قبض النبي صلى الله عليه وسلم انتقل الامر فى بيان الشرائع الاسلامية الى الصحابة رضوان الله عليهم الا انهم لم يكونوا كلهم أهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ عنهم كلهم وانما كان ذلك مختصاً بقوم منهم هم حملة

القرآن والسنة العارفون بالناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم من علوم الشريعة وبقي الامر على ذلك في صدر الاسلام وحوادث الفتوى اندر ما تكون

فلما عظمت دولة الاسلام وكثرت أقطاره ودخل الناس فيه أفواجا وتعددت حوادث الفتوى ولم يكن فى فتاوى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما يكفي لكل تلك الحوادث وكانت الامية قد ذهبت عن الاسلام بانتشار الكتابة وكثر فيهم الناظرون فى الاحكام الشرعية عمد حملة الشريعة الى استنباط الاحكام من الادلة الشرعية على طرق مخصوصة وقواعد معروفة منها المتفق عليه بين أهل الاجتهاد ومنها المختلف فيه فكمل الفقه وتمت أبوابه وتحررت قواعده وافتتح عبد الملك بن جريج باب التصنيف فيه زمن عمر بن عبد العزيز

وكانت طرق الاستنباط مختلفة وفى الاعتدال متفاوتة فكان للشيعة طريقة فى أخذ الاحكام بنوها على قولهم بعصمة الأئمة ووجوب العمل بأقوالهم كما يجب العمل بالقرآن ولأهل الظاهر طريقة بنوها على التمسك بظواهر من القرآن والسنة ولاهل العراق طريقة وهى الرأي والقياس لقلة الحديث عندهم ولاهل الحجاز طريقة وهي الاخذ بالكتاب والسنة وعدم الاسترسال الي الرأي والقياس وطرائق أخر

يطول بذكرها الكتاب والتفاوت بينها وبين التي ذكرناها طفيف وانما هذه أمهات الطرق التي اختلف عليها علماء الاسلام فى تدوين الاحكام الشرعية وأخذهامن مآخذها

وكان أهل الاجتهاد فى القرون الثلاثة الاول لا يحصرون فى عدد بل كان أكثر أهل الفقه من أهل الاجتهاد ولكل واحد منهم طريقة في الاجتهاد والفتيا ثم تنوسيت أكثر تلك الطرق واندرست فلم يبق منها غير مذاهب الائمة الاربعة فى مصر والشام والحجاز والعراق والهند وتركستان ومذهب الخوارج فى بعض بلاد الجزيرة العربية وبعد بلاد الغرب ومذهب الشيعة في أكثر بلاد فارس واندرس مذهب الظاهرية ومذهب سائر الائمة فلم يبق لشيء منها أثر

الا أن الاحكام التي استنبطها الائمة المجتهدون من الادلة الشرعية لم تكن كافية أيضا فى كل حوادث الفتيا وكان كل يوم يتجدد من الحوادث ما يدعوا الى النظر فى المآخذ الشرعية لاخذ أحكام شرعية تناسب تلك الحوادث التى تحدث يوما فيوما بكثرة الوقائع وتعدد الحوادث وكان آخرما انتهى اليه جهدهم تدوين قواعد الاستنباط وتذليل عقباتها وترتيب أبواب العبادات والمعاملات وتحرير الاصول التي ينبني عليها كل باب من أبواب الفقه كما يعلم ذلك من اطلع على

مقالتهم في الفقه

وكان العـذر الواضح في ذلك أنهم هم المؤسسون والمبتدؤن بهذا العمل الجليل والمشروع الخطير فـلم يكن فى استطاعتهم أكثر من هذا الذى أتوا به بل كان ما أتوا به مما يدل على انهم ما كانوا يألون جهداً ولا يدخرون وسعاً فى ترتيب أبواب العبادات والمعاملات وتحرير أحكامها وانهم صرفوا فى ذلك كل أعمارهم وبذلوا فى هذا الصدد كل قواهم العقلية التى كانت تفوق قوى أكثر البشر

فقام لذلك من أخـذ عنهم وتلقى قواعـدهم فى أخـذ الاحكام الشرعية من مآخذها يستنبط لما يتجدد من الحوادث أحكاما من الادلة الشرعية على حسب قواعد امامه الذى أخذ عنه وأصوله فى الاستنباط وربما خالفه فى بعض قواعد الاستنباط فخالفه فى بعض أحكام الفروع التى تترتب على تلك القاعـدة كما خالف أبا حنيفة والشافعى ومالـكا وأحمد بن حنبل أصحابهم لذلك

ثم جاء بعد هذه الطبقة طبقة أخرى أقاموا كلام الائمة وأصحابهم مقام الادلة الشرعية وصاروا يستنبطون من منطوقاتها ومفهوماتها أحكاماً يطبقونها على الحوادث التى تحـدث بينهم وكان كل واحد من هؤلاء يأخذ من كلام امامه على قدر فهمه فانتشرت الاحكام وكثرت الفروع وطما بحر الاختلاف بـين العلماء في الفـروع الفقهية وأخـذ

كل قوم بقول وأنتصر كل جماعة لفريق وكل يدعى ان قوله هو مذهب الامام وليس للامام في الحقيقة نص فى تلك الحوادث فيرجع اليه وانما هم الذين استنبطوها من مجمل كلامه وصار لكل حادثة من حوادث الفتيا أحكام متعددة لا يعرف الموافق منها لمذهب الامام من المخالف وقد كان الاختلاف فى الاحكام الفرعية يوجد فى عصر المجتهدين بين أهل كل مذهب الا أن ذلك كان ضعيفاً جداً وكان في عصرهم تعرف أقوال الائمة من أقوال غيرهم كما كانت تعرف الاقوال الشاذة المرجوع عنها من الاقوال المعتمدة المرجوع اليها

فاضطر من جاء بعد هؤلاء للتمييز بين تلك الاقوال وتعريف غثها من ثمينها والترجيح بينها وبيان ما هو أقرب الى قواعد امام المذهب واليق بفروعه للعمل بها والجري على موجبها فزاد الاختلاف باختلافهم فى الترجيح أيضاً واعضل فهم الصحيح من السقيم ولم يبق ما يصح الوثوق به غير ماصح نقله عن الائمة وهو المدوّن فى كتب المتون وبعض مسائل الشروح والفتاوي واضطرب الامر فيما عدا ذلك اضطرابا هائلا لا يكاد يقف عند حد ولا ينتهى الى آخر

ثم تدلى الامر وتنزل درجة بعد درجة حتى انتهى الامر فى عصرنا هذا الى اعتماد الفقهاء على استظهارات ابن عابدين وابحاث الشرنبلالى وفتاوى ابن نجيم وأراء ابن كمال باشا ومفهومات عبارات

قوم من المتأخرين جعلوا قولهم دينا منزلا وشريعة متبعة وصاروا يبحثون في أقوالهم ويأخذون منها الأحكام كما كان ينظر المجتهد في نصوص القرآن والسنة ويأخذ منها الأحكام وضاعت كتب الائمة واندثرت ولم يبق في أيدى الناس منها شيء وصار الاعتماد على كتب قوم من المتأخرين لخصوا كتب مَن قبلهم بافهامهم وفسروها بآرائهم فأساؤا العمل فيها وبدلوها وشوّهوا وجه محاسنها فاذا استفيت اليوم عشرة من الفقهاء في حادثة شرعية ليست من مسائل المتون التى هى من فتاوى الائمة وتدوينهم أجابك كل واحد من العشرة بجواب غير جواب الآخر وربما ذكر لك كل واحد منهم نصا من الكتاب الذى اعتمد عليه وأفتاك بما رأى فيه

وانضم الى هذا فساد التطبيق فى بعض المحاكم الشرعية فكان حال القانون الشرعى كحال القانون الوضعي سواء بسواء لايختلف عنه بشيء غير ان القائمين بأحدهما منسوبون الى الشرع والقائمون بالآخر غيرمنسوبين اليه وما قد يوجد فى القانون الشرعي من الفروع التى توافق مذاهب الائمة فلعله لايخلو عنه القانون الوضعى وان لم يذكر على انه من القوانين السماوية وانما وضع لظن واضعه ان المصلحة فيه وأصبحت مصالح العباد مهجورة والحقوق مهددة والمستجير بأحدهما كالمستجير من الرمضاء بالنار.. وشرح الحالة الحاضرة بأزيد مما أشرنا اليه

مشكل جداً والبصير اذا التفت عن يمينه مرةً وعن شماله أخرى عرف مقدار الشر والفساد الواقعين على رؤس العباد

وليس من دواء لهذا الداء ان كان للمسلمين بقية حرص على شريعتهم غير هجر هذه الكتب المشوهة المشوشة والرجوع الى كتب الائمة والثقات ومن يوثق بأقوالهم وآرائهم في الدين فان كان فى هذه الكتب التى يتداولونها اليوم فساد فقد كُفُوه وان لم يكن فساد فقد عدلوا عنها الى ما هو خير منها بلا شك من أحد ولا خلاف منهم أيضاً

وسنذكر عند الكلام على علم الفقه ما فى هذه الكتب الفقهية التى يتداولها طلاب العلم الشرعى اليوم مما يدعو بعضه الى هجرها والاعراض عنها .. والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

أوليس من العجيب ان قوما يقولون ان باب الاجتهاد مقفل وانه لايجوز تقليد غير المجتهدين وان شموا من أحد رائحة دعوى الاجتهاد ولو فى مسألة واحدة من مسائل الدين حملوا عليه حملة منكرة وربما أكفروه وزندقوه ثم هم بعد ذلك يعتمدون قول كل مؤلف فى أحكام الدين وان لم تكن الاحكام التى يذكرها فى كتابه مما صح ثبوته عن الائمة ويقلدونه فى كل ابحاثه وانظاره وان لم يُعرف له مستند يستند اليه واذا اعترض عليهم فى ذلك معترض نسبوه الى الاستخفاف

بالدين وعدُّوه من الملحدين

أليس من العجيب أن يكون قول كل أحد تقدم عصره وظهرت له بيننا مؤلفات حجةً في الدين بل هي الدين المنزل والشريعة المتبعة بلا نظر في درجة مؤلفها وقوة مآخذه التى أخذ عنها واستند اليها واعتمد عليها وان ينكر على كل من خالفه واعترض عليه وان كان له فيما اعترض عليه به حجة واضحة وبرهان منير حتي كأنَّ قوله أحد حجج الدين المبين التى يجب المصير اليها ولا يصح العدول عنها

أليس من العجيب أن يكون قول كل قائل اذا خالف ما ذهب اليه صاحب المذهب صراحة روايةً في المذهب وكم في المذهب من رواية ومن الذي رأى كتب المذهب وأبصر فيها كل هذه الروايات التى سدَّت ما بين الخافقين ولعمر الله ان المذهب ليبرأ الى الله من كل هذه الروايات التى نضيفها له ونعزيها اليه ولكننا وثقنا بمن لا ثقة به وعولنا على من لا يُعول عليه فجعلنا كل أقواله وآرائه وابحاثه روايات في المذهب يجب تقليدها ويحرم انكارها وقلنا للناس موتوا عليها ان كنتم بحبل الدين من المتمسكين

نحن بين فريقين مفترقين وعدوّين الدّين .. فريق يدعونا الي أن نلقى بزمامنا الى كل أحد وننقاد الى كل من قادنا لا نستعصي على أحد ولا نمتنع عليه ويحتم علينا أن نقر بالعبودية لقوم لا يحصي عددهم ولا

ينقطع مددهم يتجددون ماتجدد الليل والنهار .. وفريق يوجبون علينا أن نخلع من رقابنا كل طاعة ولا نعتمد الا على عقولنا وأفكارنا لا يرون لنا صلاحا الا بذلك ويرون أن كل طاعة عبودية وان كل عبودية مما ينبغي أن ينزه عنها الانسان

وكلا الفريقين غير مصيب في رأيه ولا مسدد في حكمه فان الدين لا بد فيه من خضوع وانقياد واستسلام وأصل معني الدين في اللغة الخضوع والانقياد فمن رفض الانقياد فقد رفض الدين رأسا وتركه جملة . . ثم ان لهذا الانقياد نهاية ينتهى اليها وحداً يقف عنده ولا يتعداه فمن جاوز في انقياده الحد المرسوم والنهاية المعلومة فربما خرج عن الدين وهو يظن أنه يتغلغل فيه ويكون قد رفضه وهو يعتقد أنه متمسك به . والعدلُ الوسطُ وقل سالكوه

ومن خير كتب مذهب أبي حنيفة كتب ظاهر الرواية للامام محمد ابن الحسن الشيباني صاحب الامام الاعظم ومدوّن علمه وهي الجامعان الكبير والصغير والسيران الكبير والصغير والآثار والزوائد مع ما عليها من شروح للمتقدمين كشرح العتابى على الجامع الصغير وشرح الحصيرى على الجامع الكبير وشرح قاضيخان على الزوائد ونحوها . وقد جمع الصدر الشهيد بين كتب ظاهر الرواية الست في كتاب سماه الكافي وشرحه شمس الأئمة السرخسى شرحا سماه

المبسوط بسط فيه عبارة الكافى وأوضح دلائل المذهب وزاد فيه من الاحكام شيئاً كثيراً فكان من خير ما ينتفع به من كتب مذهب الامام الاعظم .. والمتأخرون يرون انه اذا اختلفت الروايات فى المذهب فالعمدة على ما فى المبسوط لانه نقل كلام أئمة المذهب وما صح عنهم وهجر مهجور الاقوال وشاذها ولكنه مع ذلك لا يعتنون به ولا يسألون عنه ومثله فى حسن الوضع وثقة النقل (بدائع الصنائع) للسمرقندى وغيرهما من كتب الثقاة كثير لو وجد من يفتش عليها ويسأل عنها ومن خير مختصرات فقه أبي جنيفة البداية والنافع ومختصر القدورى ومختار الفتوى ومن خير الكتب المتوسطة الهداية والمشتملة ومن المبسوطة المحيط الرضوى والمحيط السرخسي والتحرير ومن خير كتب الشافعية الام للامام الشافعى رواية الربيع عنه ومختصر المزنى والبسيط للغزالى وشرح الوجيز للرافعى الكبير والمهذب والروضة للنووى وغيرها من كتب الاعلام من مطولة ومختصرة ومتوسطة . ومن قرأ فهرس كتب الشافعية رأى فيها مؤلفات جليلة جدا وعجب من عدول الشافعية عن كتب متقدميهم على حسنها واتقان وضعها وكثرتها فى أيدى الناس الى هذه الكتب التى يتداولونها اليوم وهى من أحط الكتب قدراً وأقلها فائدة . انما البلاء كل البلاء من متأخري علماء مصر فقد ألفوا ونشروا بين المسلمين من رديء

الكتب ما أتى على البقية الباقيـة من العلوم الاسلامية وساعد الجهل في سائر الاقطار على انتشار مؤلفاتهم الفارغـة بـين أيدى الطلاب واقبالهم عليها واعتنائهم بها وهي لا تستحق الا النار

ومن خير كتب المالكية المختصرة التلقين ومختصر ابن الحاجب ومن المتوسـطة الذخـيرة والبيان والتحصيل ومن المطولة نظم الدر للشازمساحي والتهذيب والمـدونة الكبرى وغـير ذلك من الـكتب الجيدة النافعة

ومن كتب الحنابـلة المختصرة العمدة ومختصر الخراقى والنهاية الصغرى لابن رزين . ومن المتوسطة المقنع والكافى . ومن المبسوطة المغنى لابن قدامه . ولكل فريق من أهل الفقه كتب غير التى ذكرنا كثيرة وكلها نافعة جيـدة لكن أبى المسيطرون على العلوم الشرعية والقائمون عليها الا ما بأيديهم

ولو ان علماء المذاهب الاربعة اجتمعوا فجمعوا كتاباحافلا جامعاً محيطاً ذكروا فيه من الفروع الفقهية ما هو أسهل على الناس فى العبادات وأضبط لامورهم فى المعامـلات واختاروا من مـذهب كل امام من الائمة الاربعة ما هو أنسب وأليق بحالة الزمان وأسهل على المتـدينين وجمعوا الناس فى كافة الممالك الاسلامية على ما فى هذا الـكتاب لاحسنوا بهذا الصنيع فى خدمة الاسلام والمسلمين

وهذا أقرب شئ وأسهله لو توجهت رغبات أهل العلم اليه ونظروا اليه نظر عناية واهتمام . وليس فى الدين مايمنع منـه فان من قلد اماما في مسألة لم يمنع من تقليد غيره في مسألة أخري لسهولة مذهبه عليه وملاءمته له وموافقته لمصلحته بل يباح له أن يقلد في كل مسألة اماما من الأئمة . والحق مبهم وغلبة الظن كافية في الخروج من عهدة التكاليف الفرعية الشرعية

نحن ندعو الى هـذا ونرشد اليه ونحرض أهـل العلم على النظر فيه واستقراء مايترتب عليه من المصالح الدينيـة والدنيوية التى يطول بشرحها الكتاب لان الحمية الدينية تحتم علينا أن نجاهر بما نرى أن فيه مصلحة لنا فى ديننا ونطلب من رؤساء الدين النظر فيه والعمل بما فيه من صواب والا فنحن على مثـل الشمس فى رابعة النهار ان طلبنا هـذا لايصادف قبولا . ومهما كثر عدد مستحسنيه من أهل العلم فلن يسمح الوقت بابراز هذا المشروع الجليل الى الوجود فان في القطر المصرى عددا كبير من العلماء لايستغنى علماء الامصار عن مشاركتهم فى هذا الموضوع ولو لأجل أن يعتقد الناس ان هـذا بمثابة اجماع يجب العمل به واذا توقف الامر على هؤلاء فعلى المشروع السلام مائة عام

وكيف يوافق على مثل هذا المشروع قوم يري كل واحد منهم ان مذهبه هو الحق الصراح الذي يجب تمسك الناس به وان مذاهب

الناس سواه لغو وهذيان ويتعصب كل واحد منهم لمذهبه أكثر مما يتعصب المتدين لدينه لكنا نأمل ان دام الحال على ازدياد الاستبصار في الامصار أن يوفق علماء الاسلام لعقد هذا المجتمع وابراز هذا المشروع الخطير الى الوجود

ولقد كان أهل المذاهب فى مصر من نصف قرن مضى كالدول المتحاربة لا يتأخر صاحب مذهب عن أذية صاحب مذهب آخر متى لاحت له فرصة وأمكنته . ولقد سمعت الاستاذ المرحوم الشيخ عبد الرحمن البحراوى يقول كنا اذا خرجنا من الازهر للحضور على السيد أحمد الكتبي مفتي الحنفية بمكة آخر عمره في زاوية العيني التى بقرب الازهر خرجنا وكل واحد منا قد جعل عباءته على رأسه يوارى بها شخصه عن الناس وكان من يعلم بحالنا يسمعنا من مر القول ما كنا لا نجد بدا من تحمله والصبر عليه لقلتنا وضعفنا . فأصبح أهل المذاهب اليوم فى مصر كالدول المتحابة ذوات المصالح المختلفة والمنافع المتضاربة يضحك كل فريق منهم الى الآخر مالم تبد مصلحة فاذا ظهر فيهم شئ من هذا القبيل كانوا أسرع الناس الى السلاح ومن عاشرهم قليلا عرف هذا منهم

وانا لنأمل أن لا يمضي غير زمن يسير حتى يكونوا إخوانا وأحبابا لا يرى أحدهم لنفسه مصلحة الا ما فيه مصلحة أخيه ولا يرى

شيئا يضره الا مايضر أخاه ويصيروا كالبناء المرصوص يقوّى بعضه بعضاً وما ذلك على الله بعزيز

وأما علم التوحيد فهو الاصل الاصيل للدين الاسلامى وانما بعث النبي صلى الله عليه وسلم للدعوة اليه وتبيينه بل عموم الرسل انما أرسلوا لدعوة الناس الى توحيد الله جل شأنه وافراده بالربوبية وتنزيهه عما لا يليق بكماله والاعتراف له ووصفه بكل أنواع الجلال والقدس

وكان العمدة فى ذلك أول الامر على ظاهر القرآن والسنة ولم يكونوا يعتمدون فى شئ من مطالب هذا الفن على الادلة العقلية ولا يجعلون للعقل مدخلا فى إثبات الصانع واتصافه باوصافه الكمالية التي ورد القرآن بها ولا كانوا يبحثون فى مهايا تلك الصفات وكيفية اتصاف الذات بها ومن كان يتعمق منهم فى السؤال والبحث يزجر عن ذلك وينهى عنه حتى ان البدع والأحداث فى العقائد حين حدثت في صدر الاسلام لم يكن أربابها يحتجون لها بدلائل عقلية وانما كانت حججهم نصوصا من القرآن والسنة اشتبه عليهم المراد منها ولم يعلموا تفسيرها ولا طلبوه ممن عنده علم ذلك ولا نظروا الى مافى القرآن والسنة من تفسيرها ورد شبهتهم فيها كما ترى فى بدعة القدرية الذين أنكروا قدم علم البارى بالمكوّنات وقالوا انه جل شأنه لا يعلم الاشياء قبل حدوثها وانما يعلمها لحين حدوثها فان هؤلاء لم يكن لهم شبهة عقلية على عقيدتهم

الفاسدة ولا برهنوا عليها حين اعتقدوها ببراهين عقلية كالذى صنعه المتكلمون أهل علم التوحيد وكان كل تمسكهم بآى من القرآن يفيد ظاهرها ما ذهبوا اليه كقوله ليعلم وسيعلم الذين كثيرا ما وردا فى القرآن مرداً بهما البارى

وكذلك الخوارج في بدعهم وأحداثهم لم تكن شبههم عقلية ولا كان لهم فيما يذهبون اليه من الابتداع متمسّك عقلى وانما كانت شبههم فى آى من القرآن هي متمسكهم على ما ذهبوا اليه ومناظراتهم مع مخالفيهم شاهدة بذلك

ذلك لأن عقائد الدين لم تكن بحيث ينكرها العقل ويكبر الخضوع والانقياد لها بل كانت كلها ظاهرة واضحة موافقة للعقول والفطر بل هي من الظهور بحيث تهدى اليها الفطر الخالية عن الأوهام والخرافات لو لم ترشد اليها الشرائع لانها كلها عبارة عن اثبات وجود الصانع المقدّس عن مشابهة المصنوعات واثبات مالا بد لكل صانع من اتصافه به كالعلم والارادة والقدرة وغير ذلك مما وردت الشريعة المحمدية بل الشرائع كلها بارشاد الناس اليه وتنظيف فطر العالم وتطهيرها مما عرض لها من صدأ الشبه والأوهام في هذا الأمر

ولذلك لم يكن مخالفو الرسل ومكذبوهم يطعنون فى نفس الشرائع التى جاء بها الرسل ويدعون انها لا توافق العقول ولا تلائم

الفطر وعليها من الشبه والمعارضات ما يردها ويبطل انها من عند الله ولو ان فيها مثل هذه المغامز لماسكتوا عنها ولأوردوا شبههم عليها فى جملة ما عارضوا به الرسل واقتصارهم فى مخالفة الرسل على انكار ارسال الله إياهم ونسبة ما يظهر على أيديهم من الخوارق الى أسباب طبيعية عادية خفية دليل على أن ما كانوا يدعون اليه فى محل التسليم والقبول وان الفطر السليمة كافية فى الاعتراف به وان العقول لا تنكره ولا تأباه

فلما جاء عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وغيرهما من أهل الاعتزال وحكموا آراءهم فى صفات الله وأفعاله ووكلوا أمر ذلك الى عقولهم فما قبلته منها قبلوه وما رفضتها رفضوه ولم يكتفوا فى ذلك بظاهر القرآن والسنة وقعت لهم الشبهة فى كتاب الله تعالى كيف يكون محدثا وهو صفة من صفاته وكيف يكون قديما وهو أمر ونهى وخبر وتوراة وانجيل وقرآن فذهبوا الى ماذهبوا اليه من أنكار كون القرآن قديما وانكار كون الكلام صفة من صفاته تعالى . فكانت هذه الشبهة أول الشبه العقلية التى وقعت فى صفات الله تعالى بسبب تحكيم العقل فيما لا مدخل له فيه

ثم كان فى الخلفاء من تميل نفسه الى هذه المباحث والأنظار ويحب سماع الأقاويل فيها فتقرب اليه العلماء بهذه المذاهب وطلبوا الحظوة عنده والمنزلة لديه بمثل تلك الآراء فثارت الشبه وتعددت المذاهب وكثرت التفاريع وأصبح عدد المتكلمين نحو عدد باعة البقول

ولم يبق أحد يحسن ان يجمع بين كلمتين الا وأظهر مقالة فى الاسلام وان كان يتحاشى عن القول بمثلها المجانين والموسوسون والمحشوشون ليرتفع له ذكر بين الناس ويحضر مجالس الملوك والامراء للمناظرة على بدعته ومذهبه ويجرى له ذكر بين أهل المقالات فى الأديان

قال أبو حامد في جملة كلام له على العلوم وتدوينها من كتاب الاحياء مامعناه ان هذه العلوم التى نراها اليوم مدوّنة منشورة بين الناس لم يدون أكثرها لخدمة الدين والمسلمين وانما كان الغرض منها خدمة الملوك والسلاطين والتزلف اليهم وطلب الحظوة عندهم .. قال أبو حامد فلو كان فى عصرنا ملك من الملوك يحب لعب الكرة لألّف له العلماء في ذلك كتبا وعقدوا فيها مجالس للمناظرة

وهذا مالا ننكره على أبى حامد فلقد رأينا فى عصرنا من أهل العلم من اذا عرضت مسألة من مسائل الدين وكان لأمير غرض فى تصريفها على وجه من الوجوه وافقوه على ذلك وجعلوا ما يذهب اليه الامير هوى دينا وشريعة وتأوّلوا لذلك التآويل وحرفوا نصوص الدين تحاشيا عن خلافه . ولى صديق من أهل العلم له حال مشهورة بين الناس ورأى متبع كنت آنس اليه لحسن رأى فيه وكنت أسمع منه كل وقت مايدل على شدة تألمه من انحراف المسلمين عن الدين الحنيف وارتكابهم الى البدع والأحداث وكان يشنع على العلماء كثيرا لعدم قيامهم

باظهار حقيقة الدين التى أصبحت رمزا بين طلاسم الاهواء والبدع فاجتمعنا يوماً عند أحد الامراء فسأله الاميرعن رأيه فيمن ظهر ينكر على المسلمين وينسبهم الى الانحراف والميل عن حقيقة الدين فاندفع الشيخ يقرر عقيدة عامةِ العامة وينكر على المنكرين وينسبهم الى الغلو والافراط والتعصب على المسلمين وكان كلما آنس من الامير أنسا بما يقول وانبساطا اليه توسع فى الكلام حتى لم يبق مقالا لقائل فلما خرجنا من بيت الامير قال لى فى جملة كلام له ان الانسان لا ينبغي له ان يجاهر الناس بحقيقة ما يعتقد وعليه ان يجاملهم فيما يعتقدون . ونحن اذا انتهينا الى المصانعة فى الدين فعلى الدين والاسلام ألف سلام

والغرض الآن ليس الا ان نبرهن على ان اشتغال الناس بهذا العلم نيف وألف سنة وتأليف العلماء فيه الوفا من المجلدات لا يدل على ان العلم شريف فى ذاته ولا انه مما يجب الحرص عليه والاعتناء بشأنه فان العلماء قد يشتغلون بما لا خير فيه لغرض دنيوى أو لتوهمهم ان الذى يشتغلون به له ارتباط بالسعادة الاخروية فليس كل ما يقع من أفعالهم يكون حجة سيما وان الذين وقع الاتفاق بين المسلمين على توثيقهم واعتمادهم في أمر الدين كرهوا هذا الفن ونهوا عنه وحظروا على الناس الاشتغال به

ولما عربت كتب الفلسفة اليونانية ونقلت الي الاسلام وأكب

علماء الاسلام عليها واشتغلوا بها اتسع باب الشبهة حتى دخلت الشكوك فى وجود الصانع وانفرج باب الخلاف وكثرت الشكوك والأوهام ولم يبق في الامكان الاستقرار على عقيدة يمكن عقد القلب عليها ووقع الناس المشتغلون به فى بحر من الحيرة ليس له ساحل فلم ينج منه الا أقل من القليل وأندر من النادر

وما زال الناس فيه بين هزل وجد حتى ظهر قوم سموا هذا الكلام المبتدع علم أصول الدين وقالوا ان العقائد الدينية ان لم تؤخذ عنه لم تقبل ولم يعتد بها فى الآخرة وكان صاحبها من الهالكين فأقبلوا على الاشتغال به تأليفا ومطالعة وتعليما وادخلوا فيه مباحث الفلسفة كالقول فى الجواهر والاعراض وكمباحث الامور العامة وغير ذلك مما لا يعرف له أصل في الاسلام ولا يرتبط به بوجه من الوجوه حتى وصل الى أعلى درجات كماله ثم عاد الى الانحطاط حتى صارت العمدة فيه على الشرقاوى والصاوى ونحوهما من ضعفاء المصريين

وكل من ظن انه يصل الى حقيقة من حقائق الالوهية بالعقل فقد كابر نفسه وحملها على مالا تطيق وارسطو وهو امام الفن وعمدة المتقدمين والمتأخرين فى الالهيات يقول نحن اذا قلنا بشيء فى الالهيات فانا لا نقوله اعتماداً على الدلائل العقلية فان العقل محجوب عن الوصول الي ذلك المقام الأقدس وانما نقول بما نرى انه أليق وأكمل : هذا قول

ارسطو وهو ممن لم يتأدب بآداب الشرائع السماوية فأما المتأدبون بأداب الشرائع والمنتمون اليها فيقولون ان الالهيات لا يغنى فيها الا العقل ومن استهدى بغيره فيها ضلّ في الدنيا وخسر فى الآخرة ويجعلون حجج الله فى كتابه وعلى لسان رسله ظنية وقضايا أوهامهم التى توسوس اليهم بها شياطينهم حججاً قاطعة يجب رد الشرائع بالتأويل اليها ان خالفتها

وجملة الكلام في هذا المقام ان حقيقة الدين الاسلامى ضاعت بين قضايا عقول المتكلمين وكشف والهامات المتصوفين فالكلام أفسد عقائد أهل العلم والتصوف أفسد عقائد العامة وشذ عن هؤلاء وهؤلاء قوم تولاهم الله بعنايتهم فلم يكونوا مع هؤلاء ولا هؤلاء وانما لزموا الطريقة المحمدية السهلة السمحة التى لا ركة فيها ولا اشكال وأقاموا على بساطة الاسلام

أما كتب هذا الفن فكثيرة لا تكاد تحصى ولا تحصر وكلها على نحو ما سبق من الخلط ومزج الاسلام بالكفر ولم يؤلف في هذا العلم رجل يريد الله به خيراً الا وندم آخر عمره وتاب عنه فمن لم يكتف بما قلنا وأصرّ على طلب هذا الفن الممقوت فليأخذ من كتبه ما شاء فكلها شر وبال وماذا بعد الحق الا الضلال

وأما علم البيان فهو من العلوم الحادثة فى الاسلام وانما كان

حدوثه بعد علم العربية واللغة وذلك انهم بعد ان انتهوا من وضع القواعد والضوابط لمعرفة أحوال الكلمات العربية وما يعرض لها من الهيئآت بسبب انضمامها الى كلمات أخر حتى لا يعرض اللحن فيها للمتكلمين بها وتبقى الصبغة العربية محفوظة ومن تدوين قواميس اللغة التى تحفظ أصل اللغة ومادتها من الضياع والتلاشى رأوا أنه لا بدمن وضع قانون آخر لبيان كيفية تأدية المعانى التى يقصدها المتكلمون بكلامهم بتلك الالفاظ وبيان الهيآت الزائدة على دلالة الالفاظ مفردة ومركبة فوضعوا علم البلاغة لذلك وجعلوا الكلام فى ذلك على صنفين سموا كل صنف منهما باسم يخصه ووضعوا فيه كتباً على حدة

فجعلوا الكلام فى الهيئآت والاحوال التى بها يطابق اللفظ مقتضى الحال كالدلالة على أحوال المتخاطبين والفاعلين وما يقتضيه حال الفعل علما على حدة سموه علم البلاغة لان فيه بيان الطرق التى يمكن بواسطتها بلوغ المتكلم المعنى بلوغا تاما يستوفى به جميع أطرافه على الطريقة المعروفة بين أهل اللسان وجعلوا الكلام في الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهى الاستعارة والكناية علما على حدة سموه علم البيان

وألحقوا بهما صنفا آخر وهو النظر فى تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق أما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترجيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بايهام معنى أخفى منه

لاشتراك اللفظ بينهما ودلالته على أحدهما دلالة ظاهرة قريبة وعلى الآخر دلالة بعيدة خفية وأمثال ذلك من المحسنات الكلامية وسموا ذلك علم البديع

والمتكلمون أول ما تكلموا فيه البيان ولذلك سماه المتأخرون علم البيان ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد واحدة وكتب فيها جعفر ابن يحيي والجاحظ وقدامة وأمثالهم املاآت غير كافية ثم جاء عبد القاهر الجرجاني بعد هؤلاء فكتب في علم البلاغة دلائل الاعجاز وفي الثاني أسرار البلاغة فاستقصى وأجاد الا أنه لم يرتب وترك المسائل منثورة فلما جاء السكاكي محض زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه ترتيباً حسناً مفيداً وألف كتابه المسمى بالمفتاح فى النحو والتصريف والبيان فجعل هذا الفن من بعض أجزائه وأحسن كل الاحسان فى وضعه وذلل للناس طريق العمل بهذا الفن والانتفاع به

وجاء من بعده قوم فمالوا عليه بالاختصار والتلخيص حتى أفنوه وأعدموا الثمرة المقصودة منه وجاء من بعد هؤلاء قوم رأوا ان هذه المختصرات لا يمكن الانتفاع بها لأنها عبارة عن رموز واشارات فوضعوا عليها الشروح والحواشي وأقبل أهل العلم عليها وجعلوا طلبهم هذا الفن منها فلا استفادوا ولا أفادوا

وثمرة هذا الفن فى شيئين .. الاول ان يتمكن المحيط بقواعد هذا

العلم مع الاستعانة بحفظ شئ من منظوم العرب ومنثورهم من تأليف كلام منظوم أو منثور يساوق كلام العرب فى صياغاتهم ولا ينزل عنه الى حد العجمة .. والأمر الثانى فهم الاعجاز من القرآن لأن أعجازه على ما هو مقرر فى وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الاحوال منطوقه ومفهومه وهي مراتب الكلام مع التكميل فيما يختص بالالفاظ فى انتقائها وجودة رصفها وتركيبها وهذا هو الاعجاز الذى تقصر الافهام عن دركه وانما يدرك بعض الشئ من له ذوق بمخالطة اللسان العربى وحصول ملكته

أما الآن فقد جعل من العلوم المقصودة لذاتها والمشتغلون به السنين الطوال لو سئل أحدهم عن آية من كتاب الله أو بيت شعر وطلب منه ان يبين ما في ذلك من البلاغة لم يهتد الى ذلك سبيلا وسيأتي عند الكلام على هذا الفن زيادة توضيح ان شاء الله

هذه هي جمهور العلوم التى نتداولها اليوم ونفنى فى تحصيلها أعماراً طوالا قد ذكرنا الداعي لتدوين كل واحد منها ومقدار أهميته وخير ما ألف فيه من الكتب بعبارات وجيزة سهلة فاجعله على ذكر منك حتى تطابق بينه وبين ما سيأتى من اهتمامنا بأقل ما تدعو اليه الحاجة واشتغالنا بأقل الكتب وأحطها قدراً وتشييد أساس التعليم على شفا جرف هار

﴿ علم العربية ﴾

الغرض من هذا العلم معرفة قواعد مخصوصة يتمكن الانسان بمراعاتها من حفظ لسانه عن الخطأ فى الكلمات العربية والنطق بها على غير الطريقة التى جاء النطق بها عن العرب وهو من علوم الآلات التى جعلت وسيلة لغيرها فانه ليس مقصوداً لذاته وانما وقع القصد به الى فهم معانى كلام الله عز وجل والاحاطة بأسرار تنزيله وفهم الاحاديث النبوية ومن لم يكن له معرفة بقواعد هذا العلم توقف فى فهم أوضح الجمل وخلط فى معناها ان تكلف بيانه وهو ليس آلة لفهم هذين الصنفين من الكلام فقط ولا كان ضروريا من أجلهما وانما هو آلة لفهم كل كلام عربى وضروري لمن له أدني حاجة الى التكلم ببعض الكلمات العربية أو المراسلة بها أو قراءتها

ومن لم يكن عنده وقوف على قواعد هذا العلم وملكة تؤهله للعمل بها وتطبيقها على الفروع الجزئية تكلم بغير ما يريد ان يتكلم وأدى مقصوده في رسالته بعبارة لا تفيدها ولا تؤديها واستفاد من القرآن ما ليس من معانيه ولا يستفاد منه بوجه من وجوه الدلالات

اذاً فهذا العلم ضروري لكل الناس حاشا أفراداً قلائل هم بمعزل عن ميادين الحياة

لا أقول انه فرض عين أو فرض كفاية كما يقول المتأخرون في

أوائل كتبهم النحوية عند ذكر مبادى هذا العلم فان الفرض ما افترضه الله كما ان الحرام ما حرمه ولم نعلم ان أحداً ممن يوثق بعلمه ودينه قال هذه المقالة أونقلها عن أحد له حالة معلومة فى الدين والصلاح وما احتجوا به لذلك من أنه وسيلة لبعض الواجبات وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب فالجواب عنه ان كون النحو وسيلة لعلم التفسير والحديث والفقه وغيرها مما بعضه واجب ليس معناه ان استفادة هذه العلوم أو شيء منها بدونه ضرب من المحال فان الانسان يمكنه ان يأخذ ما يحتاج اليه من الاحكام الدينية التى يفترض عليه تعلمها تلقينا ممن تلقنها عن غيره بدون حاجة الى نظر فى كتاب حتى يتوقف استفادة ذلك على علم النحو

وانما معنى ضروريته وكونه وسيلة لغيره ان العادة جرت بان تؤخذ العلوم بواسطة الكتب المؤلفة فيها وان من لم يحط بقواعده علما كان كالاعمى إما ان لا ينقل قدما الا بقائد يقوده وهاد يهديه وإما ان يعرض نفسه لورود موارد الهلكة والعطب

ومثل هذه الضرورة وان كانت كبيرة فى نظر كل عاقل وهي بحيث تستحق كل عناية والتفات لكن حاشا لله ان نثبت بها الفرضية التى يستحق بفعلها الثواب وبتركها العقاب

وليست هذه مقالة المتأخرين فى النحو خاصة بل كل من ألف

منهم رسالة فى نوع من أنواع العلوم فضله على سائر الانواع وميزه عنها كلها وزعم ان حكم ذلك العلم الوجوب وبين ذلك بوجوه لاتغني ولا تسمن وستقف على مقالتهم فى كل علم عند الكلام عليه وحججهم عليها وتعرف فساد الذى ذهبوا اليه بما لا محيص عنه ولا مجال لانكاره ان شاء الله

هذا العلم كثير التداول بين طلبة العلوم الدينية في جميع البلاد الاسلامية وان كانت الكتب التى يتلقونه منها مختلفة

فأهل مصر يقرؤن من كتب النحو شرح الكفراوى على الآجرومية ثم شرح الشيخ خالد عليها بحاشية أبى النجا ثم بحاشية العطار ثم شرح القطر بحاشية السجاعى ثم شرح الشذور بحاشية الامير ثم شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك بحاشية السجاعى أو الخضرى ثم شرح الأشمونى عليها بحاشية الصبان

يمضى الطالب فى تلقيها من أيام عمره نحو عشر سنوات يدأب ليله ونهاره فى فهم معانيها والوقوف على أسرارها فاذا انتهى منها لم يكن قد حصل عنده من هذا العلم ما يفرق به بين النكرة والمعرفة ولا استفاد ملكة تؤهله لقراءة جملة واحدة من غير لحن وتخليط اللهم غير نفر قليل منهم جداً وذلك لاسباب

ترجع جملة هذه الاسباب الى فساد طرق التعليم وكثرة الخلط

والتشويش في هـذه الكتب التي يتـداولونها ولو جردت المسائـل النحوية من هـذه الكتب عن غـيرها لم تكن جزأ من ألف جزء والباقي كله مماحكات لفظية ومنازعات قليلة الجدوى لا هي من النحو ولا من غـيره وليس الغرض من وضعها سوى توسيع حجم المؤلف والزيادة في عدد كراريسه حتي يملأ العين ويستدعي العناية والالتفات من أهل الذوق والبصيرة

والشيخ المعلم حال إقرائه لا يكون همـه غير جمع كل ما على الـكتاب الذى يقرأه من شرح وحاشية وتقرير وذكر كل ما جاء فيها من اعتراض وجواب فربما مررت على الشيخ وهو يقرأ بعض هذه الكتب وبـين كل أصبعين من أصابع يديه كراسة من كتاب وهو ينظر فى كل واحدة منها مرة يفتش فيها على اعتراض أو جواب

هذا شئ ان لم يشاهده الانسان أنكره لغرابته وبعـده ولكنه فاش بـين أهل العلم بمصر لدرجة لا يمكن المكابرة فيه ولقد سمعت بأذنى وأنا اذ ذاك مشتغل بتحصيل العلوم فى الازهر شيخاً من جلة علماء الازهر وكان حينئذ يقرىء التلامـذة شرح ابن عقيل يقول ممتناعليهم بما يقاسى فى سـبيل تعليمهم من الاتعاب وما يتجشم من المشاق وما يفنيه من ساعات عمـره انه ينظر فى نيف وعشرين كتابا بين شرح وحاشية وتقرير على الالفية حتى لا يفوتهم شئ مما كتب الناس عليها

قليلا أو كثيراً

هذا وان الشيخ نفسه اذا قام من حلقة الدرس لم يبق فى حافظته شيء مما ألقاه على التلامذة بل ولا يتذكره اذا ذكر به والقوة الحافظة فى الانسان لو كانت من الصناديق التى تحفظ الاصوات لم يكن فى استعدادها حفظ كل هذا ولكان لها حد تنتهى اليه في انتقاش هذه الاصوات فيها

واذا كان هذا حال الشيخ وتلك درجته فماذا عسي أن يعلق بذهن التلامذة من هذا الكلام كله وهم دونه بمراتب ملكةً واستعداداً

واذا علمت ان حالة التعليم فى مصر على ما ذكرناه لك فلا تستنكر ان ترى من التلامذة أقواما قضوا عشر سنين فى تلقي علم النحو ثم لم يحظوا منه بطائل ولا حصلوا بعد هذا التعب كله ملكة تؤهلهم لقراءة جملة بلا لحن فيها واخراج لها عن أصولها فان الطبيعة البشرية لاتقوى على التعلم بهذه الكيفية مهما كان حالها صفاءً واستعداداً

ولقد كنت ممن ابتلى بهذا وأضاع فيه أوقات طويلة ولم يحظ فيها بطائل فلقد حضرت من بلدى للازهر لتلقي العلوم الدينية فيه وكنت قد حصلت فى بلدى طرفا يسيراً من علم النحو فلما حصلت فيه وانخرطت فى سلك تلامذته مكثت فيه نحو ثلاث سنوات أعانى فيها أعانى قراءة الكتب النحوية فما ازددت فيه بصيرة ولا فتح على

بشيء منه حتى كأنى بعد ثلاث سنين لم أعمل في تعلمه فكراً ولا أتعبت نظراً ولا أسهرت جفنى ليلا فكنت اتهم نفسي وأظن ان ذلك عن عدم استعداد فى النفس للتعلم فشكوت أمرى لرجل من عقلاء أهل العلم فقال ان فساد طريقة التعليم هو الذى أثر عليك هذا التأثير السيء فاذا كان لك فى نفسك حاجة فاترك قراءة هذا العلم على أحد من العلماء فان طريقتهم فى تعليمه واحدة واذا قرأت فى كتاب أى كتاب كان فلاحظ وأنت تقرأ الوجوه الاعرابية فيما تتلوا من الكلمات فاذا اشتبه عليك الامر في كلمة فاسأل عنها من ترى انه يحسن هذا العلم فانك لا تلبث ان تحيط بوجوه الاعاريب وتحصل لك ملكة الاصابة فى القول فأخذت نفسي بذلك زمنا فحصلت منه خيراً وما أظن انى لو بقيت على تلك الحال أنال شيئاً أبداً

وانكى من هذا أن من ابتدأ في اقراء كتاب كابن عقيل على الالفية والعادة المستمرة عندهم ان هذا الكتاب يقرأ في سنة فاذا ابتدأ الشيخ فى اقرائه يقطع السنة الا أياما في اقراء نصف الكتاب على الطريقة التى شرحناها آنفا فاذا أزف الوقت وكاد ظل السنة يتقلص أطلق لنفسه العنان حتى لا يبقى فى طاقة الطلبة المقابلة عليه فضلا عن فهم شيء منه وكان حظ الشيخ النظر وحظ التلامذة السماع ولا يظن ظان ان هذه هى طريقتهم في اقراء الكتب النحوية بل هى بعينها طريقتهم

فى اقراء كل الكتب العلمية من أى فن من الفنون كانت وأكثرهم يصرفون هممهم في أوائل الكتب الى الكلام على البسملة بما يناسب الفن المشروع فيه يرون ان ترك ذلك قصور أو تقصير

فاذا انتهوا من الكلام على البسملة بكل غث وثمين عمدوا الى خطبة الكتاب ففصلوا كلماتها حرفا حرفا وبحثوا فى كل واحدة منها بحثا مدققا كما يبحث الحكيم النطاسى فى اعضاء المريض وربما كانت خطبة الكتاب طويلة فاغتصبت من الكتاب حظه من الوقت واضطرته الى ان يمد يده الى سمر الشيخ وتلامذته فيقتطع منهما ما يكفيه

ولقد قرأت في أول سنة من دخولى للازهر واشتغالى بالتحصيل فيه حاشية الباجورى على السلم فى المنطق فمكثنا من أول السنة الى آخرها نقرأ فى خطبته ونسمع مافيها من الاستعارات والكنايات وغير ذلك

وكنت قبل شروعى فى حضور الكتاب أسمع التلامذة يذكرون ان علم المنطق يحسن العقل ويزيد الانسان بصيرة فكنت أتعجب طول السنة اذ لم أجد فيما سمعته فى حلقة الدرس شيئاً يرتبط بالعقل بوجه من الوجوه وانما هو بحث نظر في الالفاظ

وبانتهاء السنة الدراسية يسر البارى وقطعنا بحر الخطبة على سفينة الصبر والجهاد وألقينا المراسى على ثغر (فصل فى جواز الاشتغال

به) وهو الفصل الذى يبحث فيه عن حكم تعليم هذا الفن وتعلمه هل هو حلال أولا فقرعت سنى ندماً على ما ضاع من الزمن بلا جدوى وقلت فى نفسى ان من أقبح الجهل ان يشتغل الانسان سنة فى مقدمة كتاب قبل ان يعلم ان العلم المدوّن فيه ذلك الكتاب من العلوم التى يحل النظر فيها أولا

ولما كان أول السنة الثانية والتأم نظام الطلبة كما كان عدنا لا كمال الكتاب على الشيخ وقلنا قد ذهب القشر ولم يبق الا اللباب فلما أخذ الشيخ مكانه وتأهب للاقراء والتعليم صاح به الطلبة من اطراف الحلقة قد حضرنا اليوم من لم يكن معنا في العام المنصرم ولم يحظى بسماع خطبة الكتاب فأعدها علينا ولو على سبيل التبرك فقال الشيخ لا بأس واستقبل الكتاب فاستدبرتهم غير آسف الا على سنة تمضى فى غير مصلحة

وبعد أيام سمعت أن رجلا من كبار المشايخ شرع فى اقراء شرح شيخ الاسلام زكريا الانصارى على ايساغوجى فى المنطق وكانت نفسى تنازعنى الى هذا العلم ايما منازعة فسألت عن طريقة الشيخ فى التعليم فذكروا خيراً فقلت فى نفسى عسى ان يكون فى هذا عوض عما فات فلما قعدت فى حلقة الدرس سمعت الشيخ يقرأ خطبة حاشية الحفني على الكتاب المذكور فقلت لمن بجانبي قد سمعت ان الشيخ

يقرأ شرح شيخ الاسلام فقط بدون الحاشية فقال نعم ولكنه رأى ان يقرأ أيضاً خطبة الحاشية للتبرك فعزمت على الانصراف عن الدرس بادئ الأمر لكنى نظرت الى خطبة الحاشية فوجدتها أسطراً قليلة فقلت لا يترك الخير الكثير للشر القليل الذي يتقدمه أو يمازجه ويتخلله فلزمت مكانى وبقينا نحو شهر فى هذه الخطبة التى لا تجاوز عشرة أسطر فلما انتهينا من تشريحها كلمة كلمة وحرفا حرفا انتقلنا الى خطبة الشارح لنقرأها قراءة تعلم واستفادة لا قراءة تبرك كما كنا نقرأ خطبة الحاشية فكلما سمعناه أولا سمعناه ثانياً لا يختلف عنه بشيء مع بعض زيادات ولدتها الفكرة وأدى اليها البحث والتنقيب فلا والله ما انتهينا من خطبة الشرح الا وقد أتى على ابتدائنا الكتاب ثلاثة شهور فصرفت وجهى عن الكتاب ومقريه وقلت الرجوع من أول الطريق أولى ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين وقلت لنفسى ان لك لعذراً فى ترك التطلع الى هذا العلم مهما كانت منزلته بين العلوم عالية وثمرته شريفة وما لا يمكن فلا عذر للانسان فى طلبه

ثم يسر الله تعالى برجل من أهل العلم في الازهر ومن أساتذة مدارس الحكومة المصرية يستن في تعليمه سنن أهل الذكاء فى إفهام معانى الكلام من غير تعريج على الالفاظ ومباحثها فأخذنا عنه رحمه الله مبادى هذا الفن ثم عاجله لسوء الحظ ريب المنون

وانما قصصنا عليك هذا لتحيط علما بكيفية التعليم الديني في مصر فلا نحتاج عند الكلام على علم آخر لبيان طريقتهم في تعليمه فان هذا الذي ذكرناه هو حالهم في عامة ما يقرأونه من الكتب لا يختص ذلك بفن من الفنون ولا بكتاب من الكتب

وسنضع في كتابنا هذا فصلا مخصوصاً لبيان طريقة في التعليم نافعة على نحو ما كان عليه المتقدمون من أهل العلم تقرب على الطالب تناول ما يشتهيه من أنواع هذه العلوم

وأما طلبة الاتراك فيقرأون من كتب هذا الفن الاظهار بشروحه وحواش عليه وكافية ابن الحاجب بشروحها وحواش عليها ولهم عناية بالحواشي سيما اذا كان مؤلفوها من بني جلدتهم وميل الى الشغب والمنازعات في الالفاظ لكن درجتهم في ذلك دون درجة المصريين وان كان لا يوجد في حلق دروسهم ما يوجد في حلق دروس العلم بمصر ومن ذلك ترى ان نتائج التعليم عندهم أحسن منها عند المصريين فالطالب التركي يتعلم اللغة العربية وطرفا كبيراً من قواعدها في مدة أربع سنوات بحيث يمكنه ان يتكلم باللغة العربية الفصحى كلاما خالياً عن اللحن وان وجد فقليلا وان كتب فكذلك على حين ان الطالب المصري بعد عشر سنوات لا يمكنه ذلك اللهم الا على سبيل الندرة والشذوذ

وأما أهل الشام والعراق فيجمعون بين المذهبين ويخلطون بين الطريقتين فينالون من كتب المصريين وكتب الاتراك الا ان الاغلب استعمالهم الكتب المصريين وطريقتهم فى التعليم غالبا تضارع طريقة المصريين لا تختلف عنها الا قليلا ولهم عناية بالالفاظ كالتى للمصريين وشغفهم بالاعتراضات والاجوبة لا ينقص كثيراً عن شغف المصريين ونتائج التعليم عندهم أحسن وأوفر منها عند المصريين لأن لهم بعض عناية بتطبيق العلم على العمل

وطلبة العلوم الدينية في الهند ليس لهم كتب دراسية مخصوصة كما للمصريين والسوريين والاتراك ولكنهم يقرؤن من هذه الكتب ما تشتهيه أنفسهم وجل معتمدهم فى تعليم هذا الفن وتعلمه على شرح الكافية للجامى وحاشية العصام عليه وطرق التعليم عندهم بسيطة جداً وهى ان المعلم يقرأ لفظ الكتاب الذى يقرئهم اياه ثم يبين لهم معناه باللغة الهندية ولكن نتائج التعليم عندهم ضئيلة جداً وأظن ان سببه ذلك انهم يتلقون علومهم عن الكتب العربية وهم غرباء عن هذه اللغة بل هم على ما رأيت أبعدُ الاعاجم عن اللغة العربية فيشغلهم النظر في ألفاظ ما يقرؤن من الكتب عن النظر فى معانيها وما تحتها من الفوائد

ومنذ سنوات هبت نفحة شعور على جمعية العلوم الدينية فى البلاد الاسلامية أدرك منها أهل البصيرة سوء حالة التعليم فى المدارس

الدينيـة فشرعوا فى البحث عما ينهض بها ويأخـذ بضبعيها من هـذا الحضيض وكان فيما مرت عليه تلك النفحة البلاد الهندية فألف أهل العلم فيهم جمعيـة سـموها (ندوة العلماء) يذكرون ان الغرض منها حياء العـلم واصلاح طرق التعليم وهم يجتمعون كل سـنة فى عاصمة ن عواصم الهند للنظر فى هذا المشروع الجليل ولا أدرى ان كان فى وسع أعضاء الجمعية الوصول الى نتيجة يحمد الناس أمرها أم يجعـلون اشـتغالهم فى ايجاد طريقـة لاصلاح طرق التعليم على نحو اشـتغالهم بالتعليم نفسه لانهـم أنفسهم هم الممثلون لهيئة الجمعيتـين الاصلاحية والتعليمية

وذكر لى بعض من أثق بفضله وفهمه ان حالة الجمعية الاصلاحية سيئة كحالة الجمعيـة التعليمية سواء بسواء وأنا لا أدرى حقيقة الامر في ذلك غـير انى رأيت وأنا بالهند عام تسعة عشرة بعـد ألف وثلثمائة مجموعة من أعمال الجمعية فى سـنة أو سنتين قـد طبعت فى مجلدة فاذا تسعة أعشارها شعر ركيك لبعض أعضاء الجمعية فى مدح بعضهم بعضاً فان كان أكثر اجتماعهـم يدور على هـذا فابعـد شئ ان ترى حالة التعليم والعلم صالحة فى الهند كافية في الغرض منها

ونحن انما جعلنا كلامنا مقصوراً على المدارس الدينية الاسلامية التي الغرض منها إحياء العلوم الدينية فقط لأن غرضنا اصلاح طرق

التعليم في هذه المدارس محافظة على الدين والا فانا اذا نظرنا الى طرق التعليم فى الشرق الادنى من الهند الى فارس الى العراق الى الشام الى مصر الى البلاد التركية الى قازان وجاوة لوجدناها نسبة واحدة فى التأخر والانحطاط العلمي

قد قرأت طرفا يسيراً عن حالة التعلم والتعليم فى المدارس الدينية الاسلامية وبقي عليك ان تعرف حقيقة التعليم فى المدارس النظامية وهي مدارس الحكومات ومدارس الاهالى وأنت اذا نظرت اليها وجدت طرق التعليم فيها تخالف طرق التعليم فى المدارس الدينية والكتب التى تقرأ فيها مخالفة للكتب الدراسية في تلك وهى حسنة صالحة للاخذ منها الا أن النتيجة واحدة فى الجميع وعدد الناجحين حقيقة من كل فريق يكافئ الناجح من الفريق الآخر أو يقاربه

وتنحصر الاسباب في عدم نجاح تلامذة المدارس النظامية في البلاد المشرقية فى أمرين أحدهما من قبل المعلمين والآخر من قبل التلامذة أما الذى من قبل المعلمين فهو اكتفاؤهم من التلامذة بحفظ مسائل الكتب التى يقرؤنهم اياها بحيث اذا سئلوا عنها أجابوا بلفظ الكتاب من غير زيادة ولا نقصان بدون نظر منهم فيما اذا كان فى وسع هؤلاء التلامذة تطبيق ما حفظوه من القواعد على الفروع الجزئية والانتفاع به عندمسيس الحاجة اليه أولا: والامر الثانى اكتفاء

التلامذة من أنفسهم بهذا المقدار فان الطالب اذا دخل المدرسة لم يكن همه الا الحصول على الشهادة سواء حصل منها ما ينتفع به بعد خروجه منها أولا فهو يبذل قصارى جهده فى حفظ نصوص الكتب حتى اذا سئل عنها أجاب وان لم يفقه لها معني ولا أمكنه ان يستفيد منها الفائدة التى من أجلها دون الفن وألف الكتاب

فأنت اذا سألت بعض التلامذة عن حكم من الاحكام الكلية فى أى فن من الفنون التى يقرأها فى مدرسته لم تجد أسرع منه الى الجواب بعبارات لطيفة وألفاظ موجزة كما هي مذكورة فى الكتاب فاذا سألته عن حكم جزئى من جزئيات تلك القاعدة الكلية والحكم الكلي اضطرب ولم تجد عنده بها خبراً

وقد كنت أسمع هذا من بعض أهل الفضل عن تلامذة مدارس الحكومة المصرية وكنت أرى ان فى ذلك مبالغة حتى اختبرت ذلك بنفسي فوجدته كما قال لا يختلف عنه بشئ

وقبل تحرير هذا المقام بأيام دخل علىّ تلميذ من تلامذة مدارس الحكومة المصرية ممن تحصل على الشهادة الابتدائية بعد ست سنوات قضاها فى المدرسة واتفق دخوله علي وبيدى كتاب اعجاز القرآن لابى بكر الباقلانى أنظر فيه فلما جلس سألته عن تعريف المبتدأ والخبر وحكمها والمضاف اليه وحكمه فأجاب عن كل ذلك جوابا حسنا فقلت

كيف تعرب اعجاز القرآن ففكر طويلا ثم قال فعل وفاعل فقلت أعد النظر وتأمل فما زال يورد وجوه الاعاريب ويردد بينها حتى قلت إنه قد استقراها ولم يهتد للصواب في شيء مما قاله

والعادة المستمرة ان الحكم على الجزئي ليس حكما على الكلي لكنا يمكننا أن نستثنى هذا من هذه القاعدة فنقول ان حال هذا التلميذ كحال سائر التلامذة لأنه قد نال من معلميه شهادة بنجاحه فلولا ان كل من كان على مثل حاله يعد من الناجحين ويعطى هذه الشهادة لم يعطها هو

ثم اننا اذا رأينا فى تلامذة المدارس الدينية من هذا حاله لم نجر حكمه على الباقين كما وقع لنا مع رجل من علماء الدرجة الثانية فى الازهر سألناه عن أصيلا لا فى بيت النابغة

وقفت فيها أصيلا لا أسائلها عيت جوابا وما بالدار من أحد

فقال أصيل بفتح الهمزة وكسر الصاد ولا نافية للفعل بعدها فقلنا لا بل أصيلا لا كلها كلمة واحدة والفعل بعدها مثبت فضحك وقال يقول الله بكرة وأصيلا وتقولون أصيلا لا

وانما لم نجر حكم الفرد فى المدارس الدينية على الكل وأجريناه على الكل فى المدارس النظامية اذا كان ذلك الفرد قد نال شهادة بالنجاح لأن فى امتحان تلامذة المدارس الدينية من المحاباة ما ليس في امتحان

تلامذة غيرها وشتان ما بين امتحان واحد على حدته ومئين في نفس واحد

فرجال التعليم في المدارس الدينية ما زالوا يبالغون في تحقيق قواعد العلوم وضبطها وايضاحها وتقريبها الى فهم الطالب وتمكينها في فكره حتى انقلب الأمر الى ضده فصار الايضاح ابهاما والتقريب ابعادا ورجال التعليم في المدارس النظامية اكتفوا من العلم بحفظ قواعده وان لم يفهم معناها ولا تمكن حافظها من أخذ حكم جزئي من جزئياتها منها

فما أشبه حال رجال الفريقين بذلك الراجز العربي الذي وفد على نصر بن سيار في خراسان وهو اذ ذاك أميرعليها فمدحه بأرجوزة تشبيبها مائة بيت ومديحها عشرة أبيات فقال نصر والله ما تركت كلمة عذبة ولا معنى لطيفاً الا وقد شغلته عن مديحي بتشبيبك فان أردت مديحي فاقتصد فدخل عليه يوما آخر فأنشده

هل تعرفُ الدارَ لامِّ عمرو دع ذا وحبرمدحةً في نصرِ

فقال نصر لا هذا ولا ذاك ولكن بين الأمرين

فالصواب في الأمر الذى ينبغي المصير اليه التوسط بين الطرفين والخروج عن إفراط أهل المدارس الدينية وتفريط أهل المدارس النظامية الى حالة وسطى تتكفل بالغرض المطلوب من

تأسيس هذه المدارس وصرف الاوقات الطويلة في قراءة هذه الفنون وسنذكر هذا الوسط فى الفصل الذى خصصناه لذلك ان شاء الله تعالى

وانما قصدنا الآن لذكر أهمية هذا النوع من العلم وبيان ما يقرأه طلاب العلوم من كتبه وذكر طرق تعليمهم وتعلمهم وقد علمت مما قدمناه أنه من الاهمية بحيث لا يستغني عنه انسان وان كتبه التى يؤخذ منها في عامة البلاد هي من أحط الكتب قدراً وأكثرها حشوا وأقلها فائدة وان الاشتغال بها قاطع عن علم العربية لا مفض اليه

﴿ ما الذى ينبغى ان يقرأ من كتب هذا الفن ﴾

ينبغى للطالب لأول اشتغاله بتعلم هذا العلم ان يقرأ على أستاذ عالم بصير بطرق التعليم كتاب الكافية لابن الحاجب مجرداً عن كل شرح أو حاشية فان كان ولا بد فشرح ابن الحاجب نفسه فان حفظ مع ذلك المتن عن ظهر قلبه فقد استوثق لنفسه من هذا الفن فاذا انتهى منه انتقل الى كتاب المفصل للزمخشرى فاذا استوعبه قراءة وفهما فقد أخذ من هذا الفن ما يتوصل به الى ما ترمى اليه نفسه من مجانبة اللحن فى الكلام والخطأ فى القول ونال منه ما يكفيه لفهم كل كلام عربى من قرآن أو سنة أو شعر منظوم أو كلام مرسل وتمكن من إفهام الذي يقصد إفهامه بعبارات تدل عليه على وجه لا يشوش

الفهم على السامع ويبهم عليه المراد من كلامه . والعلم الذى يكون الغرض منه التوصل به الى علم آخر يكفي منه قدر ما يوصل الى ذلك العلم

ثم ان أراد الطالب التوسع في هذا الفن فضل توسع فليس بعد كتاب التسهيل لابن مالك غاية لآمل وهو على صغر حجمه قد أحاط بقواعد اللغة العربية أيما احاطة فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة من مسائل الفن الا ذكرها وبينها

ثم ان كتاب التسهيل معقد العبارة عسر المأخذ لكن حاشا لله ان يكون كحاشية الصبان على الأشمونى أو حاشية العصام على شرح الجامى على الكافية ثم ان المشتغل به يحصل منه على فوائد وعلوم نافعة فى العربية والمشتغل بتينك الحاشيتين لا يحصل الا على خرافات وأوهام

وقد قررنا فى أول البحث ان هذا الصنف من العلم ليس من جملة العلوم التي القصد منها أنفسها وانما هو وسيلة لغيره وأذ ذلك كذلك فينبغي الاقتصار منه على مقدار ما يوصل الى المقصود لذاته وعدم التوسع فيه بالاستكثار من التفريعات والانظار فان ذلك مخرج له عن المقصود وعائق عن التوسل به الى غيره

وطلاب العربية فى المدارس الدينية يتعاطون دراسة هذا الفن الذى هو من العلوم الآلية مدة تعلمهم مهما كانت طويلة فاذا انتقل الطالب من التعلم الي التعليم قضى ما بقي من عمره في إقرائه وتعليمه لا يفتر

عنه ولا ينى كأن ليس ثمة من العلوم غيره وان الله تعبده بتلاوة كتبه طول عمره

وان أردت تحقيق ما قلناه فاقرأ ما كتبه ابن خلدون فى مقدمة تاريخه . قال

﴿ فصل في ان العلوم الآلية لا توسع فيها الانظار ولا توسع المسائل ﴾

اعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وكالطبيعيات والالهيات من الفلسفة وعلوم هي آلية ووسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرها للشرعيات وكالمنطق للفلسفة وربما كان آلة لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين فاما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج فى توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكثار الادلة والانظار فان ذلك يزيد طالبها تمكناً في ملكته وإيضاحاً لمعانيها المقصودة وأما العلوم التي هى آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالهما فلا ينبغي أن ينظر فيها الا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل لأن ذلك مخرج لها عن المقصود اذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغوا مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنها أهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعاً للعمر وشغلا بما لا يعني وهذا كما فعل المتأخرون فى صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها من المقاصد وربما يقع فيها انظار لا حاجة بها في العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو وهي أيضاً مضرة بالمتعلمين على الاطلاق

لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها فاذا قطعوا العمر فى تحصيل الوسائل فمتى يظفروا بالمقاصد فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا فى شأنها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويقفوا به عنده فمن نزعت به همته بعد ذلك الى شيء من التوغل فليرق له ما شاء من المراقى صعباً أو سهلا وكل ميسر لما خلق له اهـ كلامه

ومما ذكره رحمه الله تعلم ان هذا الداء الذى نراه اليوم يقطع أوصال جسم العلوم العربية والدينية ليس هو من الامراض الجديدة وانما هى قديمة جداً فان ابن خلدون انتهى من تسويد مقدمة تاريخه التى نقلنا عنها الفصل السابق سنة تسعة وسبعين وسبعمائة أى من نحو ستة قرون وهو من ذلك العهد يصف ما حل بجسم العلوم من الادواء ويشكو من فساد طريقة المعلمين تأليفا وتعليما

ونحن وان لم نعلم ما هى تلك الكتب التى كانوا يتداولونها بينهم ذلك الحين ولا شهدنا رجال العلم فيهم فنعرف حقيقة تلك المؤلفات وكيفية ذلك التعليم ومقدار ما هو عليه من الفساد والاختلال لكنا نجزم مع هذا بان حالة العلوم اليوم أسوء منها قبل قرن واحد وهي قبل قرن أسوء منها قبل قرنين ونجزم أيضا بانه ليس فى مؤلفات ذلك الوقت كحاشية الصبان على الأشمونى التى يمضى فيها الطالب فى أيامنا هذه خمس سنوات لا يكون للطالب من حظ فيها سوى قراءة اعتراضاته على الحفني والسيد البليدي وان لم يفهم منها فائدة ولا انتهى

منها الى شيء يحمد ومهما بالغنا في شرح مساوي هذه الكتب لم نصل الى درجة المطالع عليها والبلاغ فى هذا ضرب من المحال

وعلم التصريف أحد شقي هذا العلم والمتأخرون منهم من أفرده عن علم النحو وجعله علما برأسه وأفرده بالتأليف وهو ان لم يكن أحد جزئي علم النحو فهو شقيقه والحاجة اليه أشد من الحاجة الى علم النحو لأن علم النحو يعتصم به من الخطأ فى الحرف الأخير من الكلمة العربية وهذا الصنف يحترز به عن الخطأ فى كل أحرف الكلمة ومن لم يكن له حظ فى هذا العلم لم يكد ينطق بكلمة على وجهها وان أصاب فى جهة اعرابها

وهذا النوع من العلم على أهميته قلت العناية به فى جميع الاقطار فاما أهل مصر فلا يرون من قواعده غير ما ذكره ابن مالك منه فى آخر منظومته المسماة بالخلاصة وهو على قلته فقد علمت ان من عادتهم ان لا يصلوا الى هذا الموضع من الكتاب حتى تكون السنة الدراسية على آخر رمق من الحياة وهم على غاية السآمة والملل فلا ينالون من قراءة هذا القسم من الكتب قليلا ولا كثيراً ولا يحصلون منه على طائل

ومطبوعات مصر على كثرتها ليس فيها من كتب الصرف غير العزى ومراح الارواح بشرحين عليه ومن هذا تعلم قدر اهتمام طلبة العلوم الدينية فى مصر بهذا القسم من العلوم العربية على مقدار

أهميته وشدة الحاجة اليه

وطلاب العلم الديني في البلاد التركية والسورية والهندية يقرأون كتاب الشافية لابن الحاجب ببعض شروحها وهو كتاب حسن سهل المأخذ الا أنه غير كاف في المقصود

وفى كتاب المفصل للزمخشرى من قواعد هذا الفن ما فيه غنية عن التطلع الى غيره لمن فيه مقنع ومن أراد زيادة التوسع ففيما أورده ابن مالك في التسهيل من قواعد هذا الفن مالا زيادة بعده لمستزيد

فاذا وفق الله لطالب هذين العلمين النحو والصرف من يقريه كتابي الكافية والشافية فى سنة ساعةً كل يوم ثم كتاب المفصل كذلك ثم كتاب التسهيل كذلك مع أخذه بتطبيق العلم على العمل فقد تمكن منهما غاية التمكن واستولى منهما على كل ما يريد

ولأحمد فارس الشدياق محرر جريدة الجوائب سابقا بدار الخلافة الاسلامية وصاحب التآليف المشهورة كتاب سماه منية الراغب فى النحو والصرف وحروف المعانى ذكر في مقدمته انه يضمن لمن قرأ كتابه فى ستين درساً ان تحصل له الاحاطة بقواعد الفنين وهو كتاب حسن بسط فيه كتابي الكافية والشافية لابن الحاجب وزاد عليهما طرفا من الكلام على حروف المعانى أخذه من كتاب مفصل الزمخشري

وانما غرضه بقوله هذا التشنيع على قوم جعلوا هذين العلمين

الذين هما من أضعف العلوم الآلية شغل العمر كله من المهد الى اللحد لا انه يمكن تعلمهما فعلا في ستين يوما

وليس كل علم ينفع وانما النافع من العلم ما أمكن التوصل به الى العمل فأما مالا يمكن التوصل به الى العمل فهو وعدمه سيان وقواعد هذين العلمين لو لخص الضروري منها الذى تكثر فروعه فى تضاعيف الكلام ويكثر دوران جزئياته على الالسن لأمكن لذى الذكاء حفظها فى ستين يوما الا أنه لا يمكنه ان يفهمها فى هذه المدة فهما حقيقياً بحيث يمكنه الانتفاع بها فى العمل الذى تعمد من أجله حفظ قواعد هذا الفن وفيما ذكرناه سابقاً عن تلامذة المدارس النظامية وانهم أضبط الناس حفظا لقواعد فنونهم التى يتلقونها فى مدارسهم وانهم أقل الناس انتفاعا بما يعلمون لأنهم قل ما يعتنون بفهم حقائق هذه القواعد وتطبيقها على فروعها الجزئية التى دوّن الفن ورتبت القواعد لأجل بيان أحكامها لا لشيء فى أنفس هذه القواعد دليل على هذا وايضاح له

وسنذكر ان شاء الله تعالى فى باب اصلاح طرق التعليم فصلا نذكر فيه ارتباط العلم بالعمل وان العلم بدونه كالجسم الذى لا روح فيه ونذكر طرفا من اخبار من تضلع فى قواعد بعض العلوم وقتلها شرحا وتقريراً ثم لما حاول أن يعمل بها لم يستطع ذلك وخانته قواه

﴿ علم تفسير كتاب الله ﴾

الغرض من هذا العلم ظاهر من اسمه وغايته معرفة مراد الله جل شأنه في كلامه المنزل على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم والفائدة في ذلك معرفة مواضع أمره فتؤتى ومواضع نهيه فتجتنب ومعرفة الدلائل على وحدانيته وأوصافه الكمالية وتواريخ الامم الغابرة وأخبارهم مع أنبيائهم الذين أرسلهم الله اليهم وما حل بالمخالفين منهم من السخط والعذاب ليكونوا عبرة لمن بعدهم من الامم الى غير ذلك من الفوائد الجليلة التي يشتمل عليها كتاب الله جل جلاله ولا يمكن الاطلاع عليها الا بالاطلاع على كتب التفاسير المنقولة نقلا صحيحاً عن النبي صلى الله عليه وسلم وعلماء أصحابه .. وقد يظن بعض الناس ممن تخيل له أوهامه ان في قدرة عقله ان يحيط بما بين العرش والفرش أن في استطاعة كل أحد الوقوف على معاني القرآن والاحاطة بأسراره باستصحاب أي قاموس من قواميس اللغة العربية ومن يرى من الناس ان نفسه تحدثه بذلك وتريه هذا الغرض الاقصى تحت يده فليختبرها بقصيدة من شعر أحد الجاهليين أو أحد المخضرمين أو أحد الاسلاميين ويصحبها ما شاء من قواميس اللغة فان استشعر من نفسه العجز عن معرفة مراد قائلها منها وقصرت به أفكاره التي يثق بها فهي عن فهم كلام الله أكثر قصورا وهي فيه أقصر باعا

وهذا على ما تراه من الاهمية وشدة الحاجة اليه فطلاب العلوم الشرعية أقل الناس عناية به وأزهدهم فيه فالطالب الذي يصرف عشر سنوات من عمره في تعلم النحو من حواشي المتأخرين أو بالحري يمضي عشر سنوات في قراءة قيل وقال واعترض وأجيب مما ليس بعلم من العلوم يضن على كتاب الله وقانون دينه ومبدأ سعادة البشر في النشأتين بسنة يصرفها في قراءة تفسير من تفاسيره اللطيفة الموثوق بها والمعلومة درجة مؤلفيها وطبقتهم بين العلماء

وليس هـذا الذي نقوله خاصاً بطلبة مصرٍ أو قطر بل طلاب العلوم الشرعية في جميع الامصار والاقطار قد أطرحوا هذا القسم من الفنون وجعـلوه دبر آذانهم ولم يعيروه أدنى نظر والتفات غير طلبة العلوم الشرعيـة بالاستانة العلية فانه من المتحتم على الطالب عندهم ان يقرأ من كتب التفسير تفسير القاضي البيضاوي فان لم يحضره على أحد الشيوخ في جملة كتب العلوم الشرعية لم ينل درجة العالمية

وأما في مصر فالتفسير عندهم من الفنون الدراسية والمتعرض لنوال شهادة العالمية يمتحن في علم التفسير كما يمتحن في سائر العلوم ولكن كل الحائزين على هذه الشهادة لم يقرؤا شيئاً من كتب هذا الفن ولا شموا له رائحة وأطولهم فيه باعا من حضر قطعة صغيرة من تفسير الجلالين

ومن غريب الاختلال في نظام المدارس الشرعية ان رؤساء هذه

المدارس الذين اليهم أمر الطلبة وترقيتهم الى مراتب العلماء يمتحنون الطلاب بما لم يتلقوا من العلوم ولا اطلعوا عليه ويجيزونهم فيها فان الطالب عندهم يقيم في مدرسته ماشاء الله ان يقيم بدون مراقب يلاحظ سيره واستقامته واشتغاله يحضر ما شاء ان يحضر من الكتب والفنون ان كان له نية في الاشتغال ان لم يكن غرضه تخليص نفسه من يد الجندية فاذا تمت المدة الدراسية ان كان لها نهاية كما هو في مصر اليوم وخيلت له أوهامه انه قد صار لديه من الاستعداد ما يؤهله لأن يقف في مصاف المعلمين وينتقل عن مرتبته الأولى طلب ممن اليهم النظر في هذه الامور امتحانه في العلوم التي جرت العادة بامتحان من يريد مثل ذلك بها فيقبل منه الطلب بدون نظر في شيء غير كونه قد أمضى المدة القانونية التي لا يجاب طلبه قبلها فاذا دخل قاعة الامتحان فهناك القمار

ولقد أعلم رجلا في مصر من طلبة العلوم الشرعية فيها تقدم لنوال شهادة العالمية فعينت له الجمعية العلمية المنوط بها امتحان الطلاب الدروس التي تريد اختباره بها لينظر فيها قبل الدخول في قاعة الامتحان فاجتمع اليه جماعة من الشيوخ يساعدونه على فهم هذه المباحث التي سيمتحن فيها وذلك متعارف بين طلبة العلوم الشرعية بمصر فسأله أحد هؤلاء وكان يقرأ في باب لا التي لنفي الجنس من شرح الاشموني على الالفية عن اعراب (لا اله الا الله) فقال لا مبتدأ فقال السائل التمس

وجها آخر فقال هـذا متعين ليس غيره ثم لم يمنعه كل هذا الجهل من نوال شهادة العالمية بعد كونه من ذوى الوجاهة وله وسائل أقوى من الملكة والاستعداد

واذا كان هذا حال العلم والتعليم بمصر وهذه درجته فى الاختلال وكان على علاته بمصر خيراً منه فى سائر البقاع الاسـلامية من الشام والغـرب والعـراق والهند وتركستان وبخارا وقازان والروم ايلى والاناطول فـكيف ترى حالة العلم في البلاد الاسلامية ‥ وهل شئ يساويها اعتلالا واختلالا

ومجمل القول فى علم التفسير انه مهجور بين الطلاب طلاب العلوم الشرعية فى الممالك الاسلامية كلها وان من نظر منهم في كتاب من كتبه فنظرةً من غـير قصد أو بقصـد لا يصحبه شئ من الاعتناء والاهتمام وعنايتهم بالدواوين الشعرية على انهم لا يتعاطون نظمه ولا يحسنونه لو تـكلفوه فوق اعتنائهم بعلم التفسير اضعافا مضاعفة

والذين يقرؤن شيئاً من كتب التفسير يشتغلون بكل شئ سوى التفسـير فيضيع المقصود من الفن فيما بـين تلك المباحث التي لها أول وليس لها آخر

والذى ينظر فيما طبع من نحو قرن فى مصر وهي محط رحال العلوم الدينية وكعبة العـلوم التي يفـد اليها الحجاج من جميـع الآفاق

والقدوة لكافة أهل الامصار يرى العجب العجاب

يرى ان الذى طبع منها الى الآن . تفسير الخازن . تفسير الجلالين بحاشية الصاوي وبحاشية الجمل . البيضاوى بحاشية الشهاب . الكشاف بقطعة من حاشية السيد . تفسير فخر الدين الرازي . تفسير أبى السعود . تفسير النسفي . تاج التفاسير . ابن جرير الطبريِ طبع من نحو سنتين فقط . الدر المنثور للسيوطى . تفسير ابن عباس وبعض تفاسير ضئيلة

هذه هي كتب التفاسير التى تتداولها أيدى الناس اليوم وهي التى يعتمد عليها طلاب العلوم الشرعية فِي تفسير كتاب الله جل شأنه والوقوف على مراده منه

فأما تفسير الخازن وهو أكثر كتب التفاسير تداولا وأعظمها انتشاراً بين عامة المسلمين وطلبة العلوم الشرعية فهو الكتاب الذى يقف القلم حائراً عند وصفه لا يدرى مايقول فيه وما الذى يحذر به المسلمين منه وخير مايقال فيه انه مجموعة الاكاذيب ولا أرى الا أن الانسان لو جرد ما فيه من الاكاذيب الموضوعة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم والأقاصيص الكاذبة التى وضعها اليهود كقصة بابل والغرانيق وارم ذات العماد وغيرها لكانت فوق نصف الكتاب وبعد ذلك فأشياء ان لم تضر لم تنفع

وهو على اشتماله على هذين الوصفين الذين هما من أقبح أوصاف

المؤلفات فهو العمدة لعامة المسلمين وأكثر طلبة العلوم الشرعية وأكثر انتشاراً بينهم • ولقد أري ان نسخه التي نشرت فى مصر لا تقل عن مائة ألف نسخة فسد بواسطتها عشرة أضعاف هذا العدد من المسلمين ودخل عليهم في دينهم ما ليس منه من حديث موضوع وتفسير مفترى ومن العجيب ان لا يوجد في علماء الاسلام من ينهى الناس عن نشر مثل هذه الكتب المفسدة للعلوم والشرائع المضرة بالاخلاق والعقائد وقد لا يخلو بلد من بلاد الاسلام عن قوم من أهل العلم ولو قليلين يعرفون ما فى هذه الكتب من المفاسد ولا يحظرون على الناس استعمال هذه الكتب لاتقاء شرها بل ربما سألوا عنها فأثنوا عليها خيراً مسايرة لاميال العامة ومصانعة لهم فيما هو من أهم مهمات الدين وهذا البحث موعدنا به ان شاء الله القسم الثانى من هذا الكتاب وهو قسم الارشاد وانما غرضنا فى هذا القسم النظر فى طرق التعليم وكتب العلم المستعملة وبيان جيدها من رديئها

واما تفسير الجلالين بحاشيتيه الجمل والصاوى فهما يساويان تفسير الخازن انتشاراً وكثرة تداول الا أن انتشار الخازن بيد العوام أكثر وانتشار هذين بيد الخاصة نعني طلاب العلوم الشرعية أكثر فأما الشرح فهو غاية فى الاختصار لا يمكن الاستقلال به فى فهم كتاب الله تعالى مع علل فيه أخر يعلمها من جمع بينه وبين بعض تفاسير

المتقدمين الموثوق بها وبمؤلفيها . وأما حاشيتاه الضخمتان فهما من مؤلفات متأخري أهل العلم بمصر وحسبك هذا في معرفة منزلتيهما بين المؤلفات

فصل ولقد كانت الحالة العلمية في البلاد الاسلامية وفى مصر بنوع أخص في درجة سيئة جداً ومن نظر في طبقات ذينك القرنين يرى أنكر النكر يرى أن مادة العلوم قد تلاشت حتى ما يحس لها أثر في الوجود وصورته قد مسخت الى أقبح صورة فما يكاد النظر يثبت فيها قبحاً واستنكاراً

ولقد سمعت شيخا من خيرة أهل العلم بمصر وأكثرهم بصيرة بحالة العلوم غابرها وحاضرها يقول ان قدر ان يكون حال العلوم الشرعية في هذا الجيل كحالها فى الجيلين السابقين فهو آخر أدوار العلوم الشرعية ثم يذهب الاسم كالمسمى فلا تبقى شيئاً مذكوراً

واما الكشاف ومختصره للقاضي البيضاوي فهما المشكلة التى لاتحل اجمالا واغلاقا وغموضا ولشدة عراقتهما فى ذلك أكثر المتأخرون من تعليق الحواشي والشروح عليهما لبيان عباراتهما وتوضيح مقاصدهما حتى لو جمعت الحواشى والشروح التي عليهما لا ربت على ألف مجلدة وما ذكره صاحب كشف الظنون مما كتب عليهما قليل من كثير ولولا انهما بحيث يخفيان الا على من ألف حل الرموز والطلاسم واستخراج

المخبآت لم يعتن من جاء بعدهما بالتوسع فى الكتابة عليهما والمبالغة فى توضيح غوامضهما

وفوق هذا كله اشتمالهما على مسائل كثيرة خارجة عن التفسير بالمرة لا ترتبط فيه بوجه من الوجوه كالمسائل الكلامية التى حشيا بها كتابيهما وهى ليست من فن التفسير ولا من متعلقاته وانما كان الغرض من ذكرها بيان معتقديهما والاستشهاد له بكتاب الله

ويلحق تفسير أبي السعود بهذين التفسيرين فانه صورة أخرى لهما مع بعض تغييرات قليلة جداً ويلحق تاج التفاسير بتفسير الجلالين ونسبته اليه كنسبة تفسير أبي السعود الى تفسيري الكشاف والبيضاوي وان اختلف عنه فيسيرا

وأما تفسير فخر الدين الرازى وهو كتاب العامة والخاصة وعمدة الناس فى هذا الموضوع فأبو حيان المفسر يقول فى تفسيره تفسير الامام فخر الدين فيه كل شئ لا التفسير. وما أحسن ما ترجم به أبو حيان هذا التفسير الكبير بل البحر العميق ولقد يفتح الانسان جزأ من أجزاء هذا التفسير للمراجعة والكشف فيه عن تفسير آية من آى كتاب الله فلا يشعر الا وقد توسط بحراً لجيا لا يخلص الانسان منه الى ساحل. ويظهر مما كتبه الامام فخر الدين فى مقدمة كتابه انه قد أودع كتابه كثيراً مما لا تعلق له بعلم تفسير كتاب الله ولا ارتباط له

فيه بوجه من الوجوه وانما كان غرضه مما جمعه في تفسيره من هـذه المسائل الغريبة مع ان الكتاب فى تفسير كتاب الله خاصة على ما يظهر من كلامه فى أول كتابه ان يبرهن على حقيّة ما قاله لبعض مناظريه من ان كتاب الله جل ثناؤه وعلا سلطانه لا يمكن استقصاء ما فيه من الاسرار ولا الاحاطة بما فيه من المعانى والحكم ولو كتب فى ذلك مآت من المجلدات وان فاتحة الكتاب يمكن ان يكتب فيها مجلد ضخم فى أحكامها وأسرارها ومعانيها ولذلك وضع فى تفسير الفاتحة مجلد لرد ما أنكره المنكرون عليه وان كان لم يصنع شيئاً بالرد عليهم بحشو كتابه بهذه المسائل التى ذكرها ولا ارتباط لها بتفسير كتاب الله بوجه من الوجوه: وكل كلام مؤلف كلام الله أو غيره يمكن للعالم ان يتوسع فى الكتابة عليه الى مثل ما توسع به الامام فخر الدين فى تفسير كتاب الله

والمؤلف اذا أغمض عينه وتسامح فى تأليفه وراعى المناسب والمجاور ومجاوره استطال فى يده حبل الكلام فلم يقف به عند حد

ولقد رأينا لمتأخر من متأخرى المصريين يدعى السحيمي حاشية على شرح عبد السلام على جوهرة التوحيد تقع فى أربع مجلدات ضخام على ان الامير وهو أطول باعا منه فى علم الكلام وأدق نظراً استوعب الكلام على شرح عبد السلام فى مجلد صغير وكان في

قدرة السحيمي ان يضيف الى مجلداته الاربع أربعة أخر ولكن رأى ان الاقتصار على هذا المقدار كاف في البلاغ الى ما قصده من البرهان على سعة اطلاعه

وجاء الآلوسي من متأخري أهل العراق فأخذ تفسيره من تفسير الامام فخر الدين الا أنه حذف منه كثيراً من الزوائد وأضاف اليه وأحسن غاية الاحسان شيئاً من أقوال سلف المفسرين ومتقدميهم وان لم يميز بين ما قوي سنده من هذه الأقاويل وماوهي فبقي في الأمر بعض لبس واشكال وأضاف اليه أيضاً جملة كبيرة من تفاسير المتصوفة فلم يكتف رحمه الله بجمع تأويلات المتكلمين التي تأولوا بها القرآن للاستدلال على عقائدهم وتطبيقها على ما أدّتهم اليه عقولهم منها عملا بقاعدتهم المشهورة عندهم من وجوب تأويل النقل اذا عارض العقل حتى يرجع الى العقل فأضاف الى ذلك تأويلات المتصوفة التي صرفوا بها القرآن عن ظاهره الى معان لا تدل الالفاظ العربية عليها بوجه من وجوه الدلالات المعروفة عند الناس فجاء كتابه جامعاً للطرق الثلاثة طريقة السلف وطريقة المتكلمين وطريقة المتصوفة الا ان طريقة السلف لم يتعرض فيها لبيان طرق نقلها وتمييز صحيحها من سقيمها ولذلك كان ككتب الحديث التي لا يبين فيها سند الحديث وحال رجاله لا تقع الثقة به سيما اذا تعارض مع غيره ولم يقع الترجيح

بينهما بوجه من وجوه الترجيح

وأما تفسير الدر المنثور للجلال السيوطى فقد زعم انه اختصر به على حسب عادته تفسير ابن جرير الذى جمع فيه صحاح الأحاديث المتعلقة بتفسير كتاب الله تعالى وبيان أسباب النزول وأضاف السيوطى فى مختصره أحاديث واهية الاسناد فى هذا الموضوع نفسه ومزجها بتلك الاحاديث أحاديث الاصل فاختلطت بها حتى لا يمكن التمييز بينها وقلت الثقة فى الجميع

وربما استبعد أحد ان يضع السيوطى في تفسيره الدر المنثور أحاديث واهية الاسناد أو موضوعة مع ماله من المؤلفات فى موضوعات الاحاديث : فنقول ان من علم طريقة السيوطى فى التآليف لم يستنكر هذا الذى قلناه وطريقته رحمه الله على ما علمنا من استقراء كتبه انه كلما وقع اليه كتاب من الكتب في أى فن من الفنون واستحسنه اختصره ونسبه الى نفسه بدون تمييز بين غث وثمين ولا وقوف على حقائق العلوم ولذلك تراه مضطربا فى كتبه لانه لا يحكم فكر نفسه وانما يحكم في كل كتاب فكر مؤلفه هو فيضيفه الى نفسه ببعض تصرف يحدثه فى الكتاب

وان كنت قد قرأت في كتابه الذى سماه الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير وكتابه الذي سماه اللآلي المصنوعة في الأحاديث

الموضوعة ورأيت في الجامع الصغير كثيراً من الاحاديث التى نص في كتابه اللآلى على انها موضوعة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تصح عنه بطريق من الطرق جزمت بصحة هذا الذى قلنا وعلمت انه لا يؤلف وانما يلخص كتب الناس وينسبها لنفسه

ولقد كان رحمه الله محافظاً على هذه الطريقة ملازما لها لا يصده عنها صاد ولا يمنعه منها مانع ولا يرحم فيها مؤلفا ولا يشفق على مؤلف ولشدما بالغ ياقوت في خطبة كتابه معجم البلدان [١] في الاعطف للسيوطى وأمثاله وأكثر من الاسترحام لهم أولا ثم تخويفهم ثانيا لئلا يمسخوا له كتابه فقال . . ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه ان لا يضيع نصبي ونصب نفسي له وتعبي بتبديد ماجمعت وتشتيت ما لفقت وتفريق ماتمم محاسنه ونفي كل عاق نفيس عن معادنه ومكامنه باقتضابه واختصاره وتعطيل جيده من حليه وأنواره وغصبه اعلان فضله وأسراره فرب راغب عن كلمة غيره متهالك عليها وزاهد فى نكتة غيره مشغوف بها ينضى الركاب اليها فان اجبتنى فقد بررتنى جعلك الله من الابرار وان خالفتنى فقد عققتنى والله حسيبك فى عقبى الدار ثم اعلم ان المختصر

(١) كتاب معجم البلدان هو الكتاب الوحيد في بابه وقد طبع في مصر الآن على نفقة السيد محمد أمين الخانجي الكتبي وشركائه فى عشر مجلدات وشكرا له على ذلك نذكره هنا

لكتاب كمن أقدم على خلق سويّ فقطع أطرافه فتركه أشل اليدين أبتر الرجلين أعمى العينين أصلم الأذنين أوكمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلا أو كالذى سلب الكمىّ سلاحه فتركه أعزل راجلا

فارق السيوطى لاستعطافه ولارثى لبكائه ولا خاف عاقبة ما حذره منه فاختصر كتاب معجم البلدان بكتاب سماه (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) اختصاراً فاحشاً تركه كفهرس لأسماء البلدان والمواضع وجرده من كل الفوائد التى ملأ بها صاحب المعجم كتابه كضبط أسماء البلدان وبيان معانيها وبيان اشتقاقها وذكر قسم من تاريخها وآثارها وخواصها وعجائبها ومن فتحها من المسلمين وكيف كان فتحها صلحا أو عنوة ومن نسب اليها من أهل العلم والصلاح وما قيل فيها من الاشعار فكان مختصر السيوطي خلواً من كل فائدة

وأشبه الناس بالسيوطى فى عصره ابن كمال باشا فقد كان رحمه الله جدّ ولوعاً بانتحال الكتب العلمية الا أن طريقته فيها غير طريقة السيوطى وطريقته اصلاح كتب العلماء بتغيير عباراتها مع المحافظة على المعنى والتجافى عن مواضع الاعتراض فيها والتنبيه على ما وقع من الخلل فيها بحسب رأيه وفكره فله اصلاح الايضاح واصلاح المفتاح واصلاح السراجية واصلاح الهداية وغيرها من كتب الاصلاح التى كان يغنيه عنها تعليقات قليلة على الكتب التي زعم انه أصلحها ولم يصنع شيئاً فيها

وصاحب الشقائق النعمانية يقول ومن المكثرين في التأليف فى عهد السلطان سليم السيوطى بمصر وابن كمال باشابديار الروم الا أن ابن كمال أدق نظراً من السيوطى وقد علمت شأنيهما

وأما تفسير محي الدين فهو مسخ للقرآن ونقض للدين من أساسه ويرى بعض الباحثين أنه ليس من مؤلفات محي الدين وانما هو من مؤلفات القاشانى أحد الملاحدة الباطنية نسبه لمحي الدين ليروجه بين عوام المسلمين ومن يستميتون الى ما يقوله محي الدين مهما كان حاله والظن بمحي الدين أنه لا يضع مثل هذا الكتاب ولا يذهب هذه المذاهب الفاسدة فى تفسير كتاب الله تعالى

وسواء كان من مؤلفات محي الدين أو غيره فان انتشاره بين المسلمين بحت ضرر سيما ولا موقف يوقف الناس على الصحيح والفاسد من هذه الكتب

وأما تفسير ابن عباس فهو من مؤلفات مجد الدين الفيروزآبادي صاحب القاموس جمع فيه رواية محمد بن السائب الكلبي عن ابن عباس وقد علمت مما ذكرناه فى المقدمة حال ابن السائب الكلبي وضعفه وقلة ثقة العلماء بروايته

هذه كتب التفسير التى نقرأها اليوم وان كان قد فاتنا ذكر شيء منها فانه لا يخرج عن مضارعة واحد من هذه الكتب التي

ذكرناها فلم يبق بيدنا مايصح الاعتماد عليه والثقة به غير تفسير ابن جرير وهو الحسنة الوحيدة للمطابع الاسلامية بعد قرن وأكثر من ظهور المطابع فى الممالك الاسلامية ولولا ان بعض أمراء الاعراب من سكان الجزيرة العربية راسل بعض تجار الكتب بمصر فى شأنه وأعانه على ذلك بمساعدات جليلة لم يظهر له ظل فى عالم المطبوعات اكتفاء عنه بالخازن والجمل

وان أردت معرفة تفاسير الصحابة والتابعين وتابعى التابعين وعلماء القرن الثالث فارجع الى ما كتبناه فى المقدمة على هذا العلم فقد بسطنا هناك مؤلفات القرون الثلاثة والباحث عليها ان لم يجدها كلها وجد منها ما يكفى لحاجة الناس

﴿ خاتمة واعتذار ﴾

لا يظن ظان أننا نريد بما كتبناه انتقاص أحد من العلماء حاشا لله وانما الغرض بيان ان هذه المؤلفات التى نتداولها قاطعة لنا عن العلوم الاسلامية وان ضرورة المحافظة على الدين تقضى علينا باختيار الكتب النافعة فكل ما نذكره فانما الغرض منه تمحيص الحقيقة والتماس الأنفع لنا فى علوم ديننا وهذا عذرنا فى كل ما نسطره عن هذه المؤلفات التى ابتلينا بها اليوم وابتليت بنا فما نجد الى غيرها ولا تجد الى غيرنا سبيلا

﴿ علم المنطق ﴾

قالوا الغرض من هـذا العلم عصمة الذهن عن الخطأ فى الفـكر والمراد بالفـكر المعـلومات التى يتوصل بها الى المجهولات فهو الميزان الذى يعرف به صحيح الفـكر من سـقيمه ولذلك سماه بعضهم الميزان ولولاه لم يعرف من قضايا العـقول حق من باطـل ولا صواب من خطأ .. وذكروا فى بيان الحاجـة اليه ان العلوم ليست كلها تدرك ببديهة العقل ولا كلها نظرية يتوقف تصورها أو الحـكم بوجودها على دلائل وأنظار وانمـا بعضها يتوقف على ذلك وبعضها يدرك بالبديهة ثم القسم الذى يتوقف على الدليل انمـا يعلم بواسطة ترتيب المقدمات وهـذا الترتيب ان لم يكن على قانون مخصوص لم يؤمن الخطأ فيـه فكانت الحاجـة ماسة الى قانون يعرف به صحيح هـذا الترتيب من فاسده وهو المنطق

واتفق القائلون بحله على ان حكمه الفرضية واختلفوا فى انه فرض عين أو كـفاية والأكثرون على انه فرض عين : قالوا فى بيان ذلك ان هذا العلم يتوقف عليه علم التوحيد الواجب اجماعاً والمنطق وسيلة اليه وما يتوقف عليه الواجب فهو واجب أما انه وسيلة لعلم التوحيد فلأن علم التوحيد لا بد وان تكون دلائل مسائله عقلية والدلائل العـقلية

لا تعلم صحتها الا بعرضها على الميزان المنطقي فما قبله منها قبل وما رده رفض وترك فكان علم التوحيد متوقفا على المنطق ولذلك صدر بعض المتأخرين كتبهم الكلامية بالمنطق وأما أن ما يتوقف عليه الواجب فهو واجب فذلك بين لا يحتاج الى بيان

هذه مقالتهم في حكم علم المنطق من الوجهة الشرعية وتلك مقالتهم فى حاجة الناس اليه التى تدعوهم للاشتغال به والالتفات اليه

أما نحن فنري ان هذا الفن لا حاجة اليه بوجه من الوجوه وان الاشتغال به ضرب من العبث واشغال للنفس بتعلم ما لا ثمرة لها فيه وان حكمه انه يجب وجوبا عقليا ترك الاشتغال به حرصا على صرف العمر فيما لا خير فيه فى دنيا ولا آخرة وانا أبين ذلك بيانا شافيا يرفع كل نزاع واختلاف ثم أنقل من كلام أئمة هذا الفن مايشهد لنا بصحة هذا الذى قلناه فنقول : تتوقف صحة الدليل وكونه موصلا الى المدلول على أمرين : الاول ان تكون المادة التى ركب منها الدليل صحيحة غير فاسدة فان كانت فاسدة في أصلها كانت النتيجة التي تفضى اليها فاسدة أيضا فان النتائج تتبع المقدمات فانها بناتها فعلى أى صفة كانت أمهاتها كانت هي : الأمر الثانى وهو أضعف الأمرين واقلهما حاجة اليه ان تكون المقدمات التى تركب منها الدليل مؤلفة تأليفا مخصوصا على الطريقة المبينة في كتب المنطق فى بحث الاقوال

الشارحة والقضايا فاذا اختل نظام تركيبها فلم توافق صورة من الصور التى بينها المنطقيون في كتبهم لم تنتج إنتاجا حسنا يفيد فائدة صحيحة

وانما قلنا ان هذا أضعف الأمرين وأقلهما حاجة اليه لأن من حضرت في نفسه مقدمات الدليل على شئ من العلوم وكانت تلك المقدمات صحيحة أمكنه ان يصل بها الى نتائجها الصحيحة أيضاً وان لم يلاحظ قواعد ترتيب أجزاء المقدمات كما كان الناس قبل ان يترجم هذا الفن من اليونانية الى العربية يبحثون ويناظرون ويستدلون على ثبوت أشياء وبطلان أخر: فان قالوا ان الفطرة قامت عندهم مقام قراءة هذا الفن ومعرفة اصطلاحاته وقواعده فقد كفونا مؤنة الاستدلال على ان هذا الفن لا حاجة اليه ولا فائدة فى تعلمه

اذا علمت ان صحة الدليل وكونه موصلا الى مدلوله يتوقف أولاً على كون المقدمات صحيحة وثانيا على كونها مؤلفة تأليفاً مخصوصاً فاعلم ان المنطق انما يبحث عن الأمر الثانى وهو كيفية ترتيب أجزاء الدليل تعريفا كان أو برهانا فبين فيه ما يلزم فى التعاريف من تقديم الاجناس على الفصول أو كل أعم على ما هو أخص منه وفى القياس ما يلزم من موافقته لأحد الأشكال الأربعة ولم يبين فيه أجزاء التعاريف والأقيسة التى هى صحيحة مقبولة فاذا ألفت تأليفا موافقاً للميزان كانت منتجة إنتاجا حسنا

نعم ان المنطق يبحث عن أجزاء التعاريف وعن مقدمات الدليل فيبين الحد التام والحد الناقص والرسم التام والرسم الناقص ويعرف الاجناس والفصول والانواع والاعراض الخاصة والاعراض العامة ويبين في القياس ما كانت مقدماته يقينية أو ظنية خطابية أو شعرية ويذكر ما يفيد منها اليقين وما لا يفيد الا الظن وما لا يفيد أصلا الا أنه بين كل ذلك بنوع اجمال وترك التفصيل الى المعرف والمستدل ومن هنا نشأ الغلط وكثر الخبط فانا اذا حاولنا الاستدلال على بعض المطالب العلمية ورتبنا لذلك دليلا فمن أين لنا ان نعرف ان مقدمات هذا الدليل يقينية حتى تكون النتيجة يقينية ونحن نعلم ماهية اليقيني ولكن جزئيات هذا اليقيني ليس لها علامات محسوسة تميزها من غيرها فلاتشتبه بها وانما تميزها بعلامات عقلية بحتة والعقل مستور بحجاب العادات والأوهام وفيه قصور عن ادراك كل الحقائق فربما مر عليه ان هذه المقدمة يقينية غلطاً أو لكونه أعتادها أو لأن الوهم صوّرها له يقينية فما الذي يفيد الناظر هنا معرفته بالمنطق

فصل: وأنت اذا نظرت الى المناطقة في كتبهم الفلفسية والكلامية رأيت بينهم اختلافا هائلا ورأيت كل واحد منهم يحيل ما يوجبه الآخر وكل واحد منهم من الراسخين في المنطق وله فيه كتب ومقالته مؤيدة منه ببراهين مركبة على هيئة براهين كتب

الميزان وأحد المختلفين غالط ولا محالة وربما كانا كليهما غالطين فمن أين عرض لهما أو لأحدهما الغلط مع معرفتهما بالمنطق معرفة تامة لا تضارعها معرفتنا بقواعده اذا كان المنطق يعصم الذهن عن الخطأ في الاستدلال كما يزعمون : بل نري ان الواحد من هؤلاء قد يقول مقالة ويقيم عليها ما شاء الله أن يقيم من الدلائل وينصب لها البراهين ويزعم انها ضرورية لا تقبل النزاع والاختلاف ثم تراه في كتاب آخر من كتبه أو فى موضع آخر من كتابه ذلك قد نقض مقالته وأفسد مقدمات أدلتها بعد ان كان يزعم انها بديهية يقينية وهو فى أحد قوليه غالط أو في كليهما والميزان عنده حاضر فان كان هذا الميزان يميز بين صواب وخطأ كما يزعمون فلم اضطربوا كل هذا الاضطراب واختلفوا كل هذا الاختلاف وتناقضوا كل هذا التناقض

هذا شيخ الاسلام أبو حامد الغزالى ومؤلفاته في المنطق لا تخفى كثرة وهو القائل ان من لا معرفة له بالمنطق فلا ثقة بعلمه لو جمعت بين مؤلفين من مؤلفاته فى الفلسفة والكلام تراه ينقض فى كل واحد منها ما أثبته فى الأول وبرهن عليه وهو على كثرة معرفته بالميزان لم يستقم له وزن فى العلوم التى جعل المنطق وسيلة لها : وهذا فخر الدين الرازى على توسعه فى فن المنطق وانفراده فيه بأقوال خالف فيها أهل الوضع كتبه أيضاً فى الفلسفة والكلام مضطربة جداً لا يكاد

يوافق بعضها بعضاً .. ولقد رأيتـه فى شرح اشارات الشيخ الرئيس أبى على الحسين بن سينامال فى النمط الأول الى ترجيح قول الفلاسفة بابطال الجزء الذى لا يتجزى وفى النمط الخامس من الكتاب المذكور رجح قول المتكلمين بوجود الجزء الذى لا يتجزى وفى النمط الثامن تحير وتوقف وقال ان أدلة الفريقين متكافئة لا يمكن ترجيح شيء منها: وحاشا الله ان يتكافأ الحق والباطل وانما احتكموا الى العقل فيما لا مدخل له فيه فقام الوهم ينقض ويبرم

وهكذا تجده فى بقية مؤلفاته لا يستقر على حال من القلق ثم رأى فى آخر عمره ان المسالك التى سلكها كبقية إخوانه المتكلمين لا تروى غليلا ولا تشفي عليلا فترك ذلك كله ورجع في العقائد الي ظاهر القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيمر بك نقل عبارته عند الكلام على العقائد

فلو ان المنطق كما يزعمون ميزان للافكار يعرف به جيدها من رديئها لم يضطرب أئمة المنطق ومدونو كتبه فى أفكارهم كل هـذا الاضطراب ولم يتناقضوا كل هذا التناقض وبيد كل واحد منهم ميزان لا يختلف عن الميزان الذى بيد الآخر .. فان قال قائل ان الميزان في ذاته صحيح ولكن الصنجات التى يوزن بها فى هذا الميزان وهى العقول متفاوتة فمن هنا جاء الاختلاف : قلنا هذا صدق ومقبول ولكن أي

خير فى ميزان ليس له صنجات معلومة المقادير يوزن فيه بواسطتها أو ليس وجود مثل هذا الميزان وعدمه سواء : ثم ان أصل دعوى المتمسكين بهذا الفن انه ميزان للافكار أى انه الذى يميز بين جيدها ورديئها واذا كانت الافكار معيارات يوزن فيه بواسطتها فكيف تكون موزونة به . . فان قيل ان بعضها معيار وبعضها موزون قلنا يلزمكم ان تفرقوا لنا بين ما هو معيار وما هو موزون فان قيل ان المعيار المعلومات من الافكار والموزون المجهول منها قلنا هذا المعلوم الذى جعلتموه معيارا هل تعنون به أى معلوم كان صوابا كان أو خطأ أو تعنون به ما كان معلوما على وجه صواب فان قلتم انما نعنى به ما كان معلوما على وجه صواب قلنا ومن أين لنا ولكم علم هذا وأى ميزان يعرفنا ذلك فقد جعلتم هذه المعلومات من الموزونات وأصل دعواكم انها من المعايير : فان قلتم انها مبينة في علم آخر قلنا المنطق آلة العلوم العقلية كلها فلا يصح ان يتوقف على غيره ثم أى علم هو وما هي كتبه المدونة فيه

فصل . والشيخ الرئيس أبو على الحسين بن سينا يقول فى منطق الشفاء فى بحث الاقوال الشارحة ان التمييز بين الفصول والخواص أمر في غاية العسر بل ربما لم يمكن الوصول اليه فى أكثر الحقائق لاشتباه أحدهما بالآخر وعدم الفارق الذى يمكن الرجوع اليه في

تمييز أحدهما عن الآخر

واذا كان كذلك فقد بطل الوثوق بالاقوال الشارحة جملة لأن التعاريف المعرفة للحقيقة والمبينة لكنه الذات هي التى تركبت من الاجناس والفصول واذا اشتبهت الفصول بالخواص واختلطت اختلاطاً لا يكاد يمكن التمييز بينها لم يعد فى الوسع الوصول الى حقيقة شئ من الاشياء ولا ماهيته التي كان بها قوامه

والغزالى أبو حامد يقول فى كتابه محك النظر الذي ألفه فى المنطق ان العمدة فى البراهين على اليقينيات التى توافق الواقع ولا تخالفه ولكن الوصول الى اليقينيات ضرب من المحال مع غلبة الاوهام والعادات على العقل وسترها له عن مشاهدة نور الحقيقة

فان صح هذا الذي قاله أبو حامد وهو صحيح فقد ارتفع الوثوق بالاقيسة والبراهين وهي الشق الثانى للمنطق لان المقدمات اذا كانت انما تكون مفيدة علماً صحيحاً اذا كانت مقدماتها يقينية واليقينيات لا يمكن وصول العقل اليها لكونه مستوراً عنها كما يقول أبو حامد بحجاب الأوهام والعادات لم يمكن الوصول بها الى شئ يوثق به ويرتكن اليه

ولسنا ننكر امكان الاستدلال على بعض المجهولات ببعض المعلومات بل هذا ممكن فى ذاته وواقع فى الخارج وانما ندعى ان هذا الفن الذى زعموه ميزان الافكار قليل الجدوى في هذا الباب جداً

لأنه ميزان صور الادلة والعمدة فى الادلة على موادّها التى ألفت منها لا على صورها وقد حققنا ذلك والحمد لله

فصل: ونحن انما جعلنا كتابنا هذا فى بيان كتب العلم واصلاح طرق التعليم ومن جملة ذلك تمييز العلوم النافعة التى لها نتائج حسنة من التى لا خير فيها فانما الغرض لنا من هذا كله النظر فى حالة طلبة العلوم الشرعية وصرف وجوههم الى ما فيه صلاح لهم ولا متهم في أمر دينهم ودنياهم وصرفهم عن الاشتغال بما لا يفيدهم ولا يفيد أمتهم من العلوم وبما هو قاطع لهم عن الحصول على العلوم النافعة من الكتب السافلة الرديئة الساقطة فلا يظن ظان اننا خرجنا عن الموضوع الذى جعلنا أس كتابنا هذا عليه

فصل .. وكل المشتغلين بهذا الفن من أهل هذا العصر يعلمون من أنفسهم انهم لم يحصلوا منه على طائل ولن يحصلوا ولو أن لدينا انصافا واطراحا للعادات والتقليد لكفينا مؤنة البحث والاستدلال على هذه الحقيقة المشهودة واكتفينا بالاشارة اليها بأدنى اشارة ولكنا قوم تعرف قلوبنا وتكذّب ألسنتنا وأفعالنا .. فأنت لو سألت أحداً ممن يشتغل بهذا الفن عن فوائده التى تقصد من تعلمه لجمع لك فيها بين خيرى الدنيا والآخرة ولو سألته عما حصل له من فوائدها لتوقف ولم يجب بشىء

فما أشبه حال هؤلاء الناس بحال رجال الكيمياء تسمع منهم عن هذه الصنعة ما يخيل لك انهم لو أرادوا قلب الجبال ذهباً لفعلوا ثم هم مع هذا العلم الشريف والصنعة العجيبة أفقر الناس وأسوأهم حالاً وأنكدهم عيشاً وأتعبهم بالاً ولو أنك جادلت أحدهم الليل والنهار على أن هذه الصنعة باطلة لا أصل لها وان الذهب أو الفضة لا يمكن ان يحصلا من معدن آخر لم تقنعه فان سألته عن السبب في عدم حصوله منها على طائل أعتل بعلل لا تقنع الا فكره السافل فهو يكذب عقله وحسه وتجربته واختباره ويركن الى كتاب لا يعلم من هو مؤلفه ولا غرضه من تأليفه ذلك

هذا ونحن نعلم اننا لو أملينا الوفا من المجلدات فى بيان ان علم المنطق علم لا فائدة فيه وان الاشتغال به ضرب من العبث وقام ابن سينا من قبره يشهد لنا بذلك ويقرر على الناس انه لم يستفد مما قرأ وكتب في المنطق فائدة فى عقيدته ولا فى طبيعياته ولا فى طبه وانما جذبه التيار العام الى تعلمها والتأليف فيها كما جذبنا تقليد من سلف من أمثالنا من طلبة العلوم الى الاشتغال بها وان كنا لا نرى لها نتيجة نحمد لها غب هذا السرى الطويل لم نبلغ بكلامنا قلوبهم لأن عليها من التقليد واتباع العادات أغشية تحول بينها وبين كل ما يلقى اليها من وعظ وارشاد

ثم ان هذا الفن ليس من العلوم الاسلامية فتلزمنا المحافظة عليه وانما هو من وضع اليونان ثم ترجم في زمن المأمون كما سبق ذكره في التمهيد فضياعه وبقاؤه علينا سيان

ولدينا من العلوم ما هو أهم منه فخير من صرف الاوقات الثمينة في تفهم هذه الاصطلاحات التي لا فائدة وراء تعلمها تعلم تلك العلوم الشرعية التي قد أهملت وصارت نسياً منسيا أو العلوم المادية التي فقد الاسلام بفقدها أهم خصال الشرف والسؤدد

ونعني بهذا الذي نصفه بانه أهم خصال الشرف والسؤدد علم جلب الغنى والثروة لأن الغني اذا تجردت عنه أمة من الأمم جردت عن كل أوصاف الشرف وسلبت جميع سماة الكمال وألصق بها كل شر وأضيف اليها كل قبيح وان لم تكن على مثل ما تصفها به الامم الأخرى أو بعض أفراد تلك الأمة

وحال الأمم كحال الافراد فكما ان أفراد الناس يقع التفاضل العام بينهم في الغنى والثروة فمهما كان الانسان غنياً كان عند الناس محبوبا مبجلا محترماً تضاف اليه كل فضيلة وان لم يكن متصفا بها وينزه عن كل رذيلة وان كان في أخلاقه بعضها أو كلها والضد بالضد

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطئ الهبلُ

وانما قلنا ان التفاضل العام يقع بينهم في الغني لأن التفاضل

بالمزايا الفاضلة والاخلاق الكاملة انما يقع عند نفر قليل من الناس هم بالنسبة الى غيرهم كالعدم اذا نسب الى الوجود

فكذلك الأمم انما يقع التفاضل بينها بالغنى فمهما كانت الامة غنية واسعة الثروة كانت معظمة مبجلة موقرة مرعية الجانب عند بقية الأمم مشهوداً لها بالكمال معترفا لها بالفضل وان لم تكن على شئ من هذه المزايا مسلوبا عنها ما يشينها وان كانت مغموسة فيه عاطلة من كل حلى الكمال وان كانت فقيرة كانت على ضد ذلك وان لم يكن لها من أخلاقها ما يحط من كرامتها ويشينها

والسر فى ذلك ان النفوس مطبوعة على حب الاستئثار بالمنافع المادية والمعنوية فكل نفس تحرص ان يكون كل ما في هذا العالم مما جعل الله النفوس شركاء فيه تحت يدها وفى قبضة تصرفها لا ينازعها فيه منازع ولا يشاركها فيه مشارك وكذلك الاخلاق الشريفة والمزايا الكاملة تحب ان تضاف اليها دون غيرها وان تخص بها فلا يشرك غيرها معها فيها . . وكل نفس من هذه النفوس تبذل قصارى جهدها فى الوصول الى هذه الأمنية لاتنى فيه أبدا ولا تألو فى تحصيله جهداً وكل واحدة منها يحصل لها منه على قدر طلبها وبحسب استعدادها وهذا هو الذى يسمى المعترك الحيوى

ولا تجد نفسا ترضى ان ينال غيرها من هذه المنافع شيئاً أو ان

يستبد دونها بشيء من تلك المزايا وترى كأن كل ما يعلق بالنفوس الأخر من المنافع المادية والمزايا الفاضلة هو حقها قد غصب منها وسلبته بقوة تخالف الشرف والانصاف فهي تحرص على سلبه ممن ترى انه سلبها اياه ولن ترضى بتركه وتخضع للمشاركة في المنافع والمزايا الا اذا رأت امامها قوة تقهرها فتكف حينئذ محافظة على ما بيدها من تلك المنافع لا تسامحا منها فيما بيد غيرها منها

اذاً فالنفوس انما تعترف لبعضها في حق المشاركة في المنافع والمزايا اذا كان في المعترف له قوة قاهرة لا توجد في المعترف وكان المعترف يتوقع منه لو نازعه غلبته على ما في يده منها .. فكل ذي قوة معترف له باستحقاق ما يدعيه لنفسه من المنافع والمزايا وان كان لا يستحقها والتفاضل بالقوى .. والقوة مادية وهي قوة الجسم ومعنوية وهي قوة المال والغنى فاذا كان لانسان هاتان القوتان خضع له من كان له احداهما فقط واعترف له بكل ما في يديه وما يدعيه لنفسه وان كان مبطلا في دعواه ومن كان له واحدة منهما خضع له من ليس له شيء منهما محافظة على ما تحت يده من المنافع ورجاء أن يناله منها شيء آخر بواسطة ذلك القوي

ونمثل هذا الذي ذكرناه في شخصين أحدهما قوي الجسم والثاني ضعيفه ولا ناصر لهذا الضعيف يرد عنه صولة القوي أو أحدهما

غنى والثانى فقير ترى ان الضعيف من كل منهما يعترف للقوي بكثير من الحقوق والمزايا التى لا يستحقها ولا هو متصف بها بل ربما سلب نفسه شيئاً من مزاياها ومنحه اياها كل ذلك محافظة على ما بيده من تلك المنافع

ونفوس الأمم كنفوس الافراد والاعراض واحدة فى الكل فكل ما قلناه في نفوس الافراد يقال مثله فى نفوس الأمم سواء بسواء لا تفارق هذه تلك فى شئ أبدا .. فاى أمة توفر لديها قوة المال والجسم وقوة جسم الأمم العصبية غلبت على من دونها واعترف لها كل من لا يساويها من الأمم فى هاتين القوتين بالمنافع والمزايا وجعلوا لها ما ليس لها بحق ونعتوها بما ليس من نعوتها

وان أردت اليقين في ان الفضل تابع للقوة وجوداً وعدما فاعتبر هذا في رجل طعن فى السن فتلاشت قواه الجسمية أو أصابه مرض فانهكه أو رجل كان غنياً فافتقر بسبب من الاسباب التى تفرق بها الثروات ترى ان من كان يألفه ويتودد اليه ويؤثره على نفسه فى المادى والمعنوى من المزايا انقلب عليه وقلب له ظهر المجن فسلبه كثيراً من مزاياه الحقيقية بعد ان كان يعترف له بما ليس فيه ولا هو من نعوته وقد يكون هذا الذى نزل به ليس من صنعه ولا له مدخل فيه حتى يجعل هو من ذنبه

وكذلك الأمم اذا سقطت واحدة منها بسقوط عصبيتها أو ماليتها تبادرتها الأمم فما أبقت عليها ولا أتقتها بعد ان كانت تجلها وتحترمها وتخافها وتحاماها وقول الخاصة الحق للقوة وقول العامة (البقرة اذا وقعت كثرت سكاكينها) يلم بهذا الذى قلناه

فالعصبية والمال أصل حياة الامم فمهما اشتدت عصبية أمة من الأمم واستحكمت أواصرها وتوثقت عراها ووفرت ماليتها باتساع تجارتها ونمو زراعتها كان مركزها بين بقية الامم مهيبا ولم يمتد اليها نظر ناظر ولا تعلق بها طمع طامع ولذلك يقول ابن خلدون فى مقدمة كتابه ديوان العبر ما معناه .. ان قيام الدول يحتاج أول ما يحتاج الى عصبية فكلما قويت عصبية الملك كانت دعائم ملكه أرسخ وأقوى وأقدر على دفع صدمات المهاجمين الذين يسعون في نقضها فاذا ثبتت وقامت احتاجت الى المال لتحصين الثغور واقامة المسالح وبناء الحصون وتشييد القلاع وترتيب الجند وتفريق العمال فى الاصقاع لجباية الخراج ورفع المظالم الى آخر ما ذكره

هذا رأينا في تفاضل الامم ونحن لا نرتاب فى ان المخالف لنا أكثر من الموافق من سائر الطبقات ولكن لا علينا ان خالفنا الناس أجمع بعد ان تكون حوادث التاريخ شاهدة لنا على حقية ما ذهبنا اليه من ان التفاضل بالقوة بقسميها

ظهر الاسلام غريباً بين طوائف اليهود وجماهير النصارى والمجوس الاعاجم وكتائب الوثنيين من العرب فمقته كل فريق وعاداه أهل كل ملة فما زالت عصبيته تقوى وتتضاعف وعصبية غيره تضعف وتتلاشى حتى ظهر عليها كلها وخضعت بجملتها لقاهر سلطانه فدخل منهم قوم فيه لما رأوا من باهر آياته وواضح بيناته ولزم آخرون ما كانوا عليه وأقروا له بالسلطة ورضخوا له بما أوجب عليهم أداءه اليه ولم يكن فى الامم التى دوخها الاسلام ووهن بنيانها وقهر سلطانها أمة تساويه فى البداوة غير الوثنيين من سكان الجزيرة ويقرب منهم يهودها وما سوى هؤلاء من الامم من أروام واقباط وأفرنج وأعاجم فقد كانوا كلهم أرقى من المسلمين مدنية وحضارة فكانت العلوم عندهم موفورة وباب الانتفاع بها واسع لكن قوة العصبية لا يثبت امامها شئ من القوى ويتلاشى امامها كل شئ فلما انقلبت هذه العصبية وماتت فيهم وانقلبوا على بعضهم كانوا قد اتسعت ثروتهم وفشت فيهم الصناعات والتجارات والزراعة فحفظ ذلك لهم مركزهم بين بقية الامم وتساووا مع غيرهم فصاروا يدولون مرة ويدال عليهم مرات لضعف عصبيتهم وقوة عصبية غيرهم ثم مالوا الى السكون وأخلدوا الى الراحة فضاعت من أيديهم قوة المال أيضاً فتداعى بنيان عزهم ومجدهم وطمع فيهم من كان يخافهم وما زال حالهم يتسفل حتى صاروا

الى ما ترى من الهوان على سائر الامم

ولما لم يبق لديهم من القوى ما يدفعون به عن حوزتهم ويذودون به عن زمارهم ولا خير يرتجى ولا بأس يتقى تسلطت عليهم بقية الامم وزاحموهم على البقية الباقية فى أيديهم من منقول وقار بطرق تنازع البقاء وحب الاستئثار بالمنافع وجردوهم عن الكمالات التي هي فى سجاياهم وأخلاقهم وطبائعهم بعد أن كانوا يعترفون لهم بما ليس لهم من المزايا ويسلمون لهم ما ليس لهم من الحقوق

ولو اننا بحثنا عن ذنوب المسلمين لم نجد لهم ذنباً غير انهم أصبحوا أمة فقيرة منحلة قد فقدت كل الاسباب التي تحفظ لها كرامتها بين بقية الأمم وتمنعهم من التطاول عليها والتحرش بها . والناس لا ينكرون عليهم هـذا فقط وانما ينسبون لهم كل عيب ويجردونهم عن كل كمال على أننا لو نظـرنا الى سائر الاوصاف والعوارض التى تعـرض للامم لوجدناهم يساوون بقية الامم فيها

فما من فضيلة توجـد فى أمة من الامم الا وهي موجودة فى المسلمين بنسبة وجودها فى الأمم الأخر لا تنقص عنها ولا كقدر ذرة وربما كان وجودها فيهم أكثر كمية وأقوى كيفية لتوفر الدواعى اليها من العـقل والدين وما من رذيلة توجـد فى المسلمين الا وهي موجودة فى الأمم الأخر بنسـبة وجودها فى المسلمين وربما كان

وجودها في غيرهم أكثر لضعف الوازع عنها عندهم : ونحن لو بسطنا صفات الكمال واحدة واحدة وسألنا المنصف ان يذكر لنا أي صفة من هذه الصفات تجرد عنها المسلمون لم يجد واحدة يقال انهم قد تجردوا عنها حتى ما تكاد توجد فيهم ولم يسعه اذا أمعن النظر وحقق الأمر أن يدعى أن وجودها في غير المسلمين أكثر بل ربما ظهر له انها فيهم أكثر وارتباطهم بها أشد كما انا لو بسطنا صفات النقائص وسألنا المنصف أن يذكر لنا أي صفة انفرد بها المسلمون دون غيرهم من سائر الامم أو انهم أكثر ارتباطاً بها وتعلقا فيها لم يستطع ان يذكر شيئاً فان الواقع على خلاف ذلك وقلة التأمل هي التي ادت الى هذا الغلط.

فليس في الحقيقة من ذنب لهم سوى انهم فقراء أفذاذ لا رابطة تربطهم ولا جامعة تجمعهم ولو كانوا ذوى ثروة واسعة كالتي في يد غيرهم ولهم روابط تربط أقصاهم بأدناهم كما لغيرهم من الأمم لم ينلهم من هذا الاضطهاد شئ والغنى محبب الى النفوس والغنى محبوب ولو انك نظرت الى دول الارض لوجدت فيها دولا لا ترتفع فى أخلاقها وعاداتها وأحكامها ونظاماتها عن قبائل البربر فى صحارى أفريقيا ولكنهم مع هذا الحال مبجلون موقرون برغم أنوف المتمدنين لأن لديهم من قوى العصبية والمال ما يطؤون به على أنوف من يناويهم ويطمع فيهم أو ينظر اليهم نظرة

فان كان غرض أصحاب الافكار الذين وقفوا أنفسهم وأقلامهم لخدمة اخوانهم المسلمين من المعارف التى يحثون دائما على تعلمها ويتألمون من كسادسوقها بين ظهرانينا المعارف العملية التى هي ينابيع الثروات فهم مصيبون وان كان الغرض هذه العلوم الفكرية التى لاتتجاوز نتائجها أفكار متعلميها كأكثرمايقرأ في المدارس الاسلامية من المدارس الشرعية والنظامية فشر هذه أكثر من خيرها وضررها أكثر من نفعها ولئن كثر عدد هذه المدارس وزاد على ما هو عليه الآن فلا بد وان يصير المعول أكثر من العائل وتتضاعف البلايا والإحن ببقاء أكثر أهل البلاد بلا شغل ينالون به قوتهم ونحن اليوم الى أرجل متحركة فى العمل والكسب أحوج منا الى أدمغة متخيلة والداخل الى بلاد الاسلام أكثر من الخارج منهافان لم يوجد طريق للتوازن بينهما فما أقرب ما نرى أنفسنا وليس عندنا من شئ نتوسل به الى القوت غير قوانا الجسمية ننهكها فى الخدمة للحصول على القوت اليومي

وفى الممالك الاسلامية أكثر من مليونى طالب علم منهم طلاب العلوم الشرعية ومنهم تلامذة المدارس النظامية وليس فيهم مائة نفر يشتغلون بتلقى العلوم الصناعية أفليس لو اعتيض عن نصف هذا المبلغ من الطلاب فصرف الى تعلم هذه العلوم الصناعية التى هى ينابيع

الثروة في كل عصر حتى اذا أتقنوها عملوا بها بمساعدة وجهاء البلاد وأهل الثروة فحفظوا خيرات بلادهم التي يشتريها الغريب الغربي منهم بالقنطار ويبيعهم اياها بالدرهم لانفسهم كان خيراً لنا من ان يشتغل هذا الجم الغفير من الناس في علوم أكثرها لا خير فيه وليس هو من علوم الدنيا ولا من علوم الآخرة .. أليس في الايام الحاضرة من الادلة الحسية ما يدل على ان أكثر هذه العلوم ليست في شيء من أمور الدنيا والآخرة .. أيرى الناس ان عدد أهل البطالة الذين قضوا ما مر من سني حياتهم وسيقضون الباقي عالة على أهليهم قليل فهم يزيدون فيه كل يوم مئات وهل في وسع الحكومات ان ترزقنا كلنا عن آخرنا : اللهم قد عظم الخطب واشتد الكرب ولم يبق في قوس التصبر منزع فوفق ساداتنا وكبراءنا وخاصتنا لصرف وجوهنا نحو سعادتنا انك على ما تشاء منا ومنهم قدير رجع

وان كان ولا بد لطلبة العلوم الشرعية من تعلم هذا الفن والاشتغال به كما هو الظن بهم فخير من حاشية الباجوري على السلم وحاشيتي العطار والحفني على شرح ايساغوجي وحاشية العطار وابن سعيد على الخبيصي التي يقرأها أهل مصر وأهل الغرب ومن حواشي ايساغوجي التي يتعاطاها الاتراك والتي لا يكاد يحصرها العد ومن حواشي القطب لوامع الهدى ونور الهدي وحواشي سلم العلوم التي يتعاطاها طلاب

العلوم الهنديون محك النظر للغزالى أو ما هو في حجمه وسهولة تراكيبه وقرب معانيه من كتب متقدمى المناطقة ثم البصائر النصيرية التى سعى بنشرها منذ سنوات مفتى مصر السابق المرحوم الشيخ محمد عبده ثم منطق الشفاء للشيخ الرئيس فان هذه الكتب على كونها لا تساوى فى الحجم حاشية من حواشي تلك الكتب فالعلم موجود فيها برمته وهي خالية عن الحشو وسقط الكلام من اعتراض وجواب والذي يريد ان يحصل على قواعد هذا الفن يمكنه ان يأخذها من هذه الكتب ان وفق الله له المعلم الناصح فى زمن يسير فأما من يريد الشغب والنزاع من غير طائل ولا جدوى فلن يجد فى هذه الكتب أمنيته

فان قالوا (وهو اعتراض أورده علينا بعض شيوخ الازهر) ان كتب المتأخرين أخصر وأجمع وتناول العلم منها أقرب .. قلنا ان سلمنا لكم ذلك فلا نزال نقول ان تركها لازم جداً فان هذه المختصرات من مؤلفات المتأخرين التى قلتم انها أخصر وأجمع من مؤلفات المتقدمين ان كلفتم قراءتها وحدها قلتم انها رموز واشارات لا يمكن الوصول اليها بدون حواش وتقريرات فصرتم الى ماهو أطول من كتب المتقدمين التى تشتكون من طولها بل الى كتب الهذيانات التى ليست فى شئ من العلوم فتعين ان الرجوع الى كتب المتقدمين في كل ما ألف من العلوم خير من الاشتغال بكتب المتأخرين بما

ذكرناه من البراهين على ذلك والله خير موفق على اتباع الصواب ومعين على ترك العادات واطراحها

﴿علم أصول الفقه﴾

الغرض من هذا العلم معرفة طرق استنباط الاحكام الشرعية العملية من الادلة الشرعية أي من الكتاب والسنة واجماع علماء الامة والقياس عند من يراه حجة أيضاً

فهذا العلم للمجتهد كالقدوم والمنشار للنجار فكما ان النجار ليس في استطاعته ان يعمل في صنعته بدون آلاتها فكذلك المجتهد الذي نصب نفسه لاستنباط الاحكام الفرعية العملية من الادلة الشرعية لا يمكنه استنباط شئ من الاحكام بدون اتقان هذا الفن والاحاطة به .. وبعبارة أخرى المجتهد كالمترجم فان لم يكن على علم تام بأصول اللغة التي يترجم عنها وفروعها لم تقع ترجمته صحيحة .. وحاجة غير المجتهد الى هذا الفن كحاجة الاعمى الى مصورات الجغرافيا فان تصور أن يكون للاعمى حاجة الى هذه المصورات التي لا يعلم ما فيها الا بحاسة البصر أمكن تصور حاجة غير المجتهد الى فن أصول الفقه

ولطلبة العلوم الدينية عناية حسنة بهذا الفن وهو مستعمل بينهم بدرجة متوسطة ولاهل كل قطر كتب خاصة بهم يتدارسونها بينهم

على طريقتهم المألوفة بينهم فى التعلم كما علمت مما قدمناه آنفا

فأهل مصر يتعاطون من كتبه شرح المحلي على جمع الجوامع بحاشية البنانى ما يعرفون غير هذا الكتاب ولا غير هذه الحاشية فهو أول ما يتلقى الطالب من كتب هذا الفن وآخره وان اتفق لاحد ان يكون قرأ على أحد شرح الورقات أو نظر فيه بنفسه فذلك من غرائب الصدف ونوادر الاتفاق

والسبب في اقتصارهم على هذا الكتاب مع ان فيهم الشافعي والحنفى والمالكى والحنبلى والكتاب المذكور فى أصول فقه الشافعية ان الكتاب المذكور من الكتب التى يمتحن بها من يريد الحصول على شهادة العالمية من أهل أى مذهب كان فالطالب كيف كان مذهبه مضطر الى حضوره .. فاجعل هذا على ما قدمناه من سوء حالة التعليم وفسادها وعدم عناية العلماء الذين بيدهم الحل والعقد واليهم مقاليد أمور الطلبة بشأن من تحت يدهم ونظرهم فى استفادتهم وتحصيلهم وهل من فائدة للطالب فى اشتغاله بأصول مذهب لا يعرفه وهل ليس يدخل تحت قدرة من التى الله اليهم لسوء حظنا مقاليد أمورنا أن يفرقوا بين أصول المذاهب كما فرقوا بين الفروع ويجعلوا امتحان من يريد الحصول على شهادة العالمية من كتب أصول مذهبه أو لم يكن ذلك خيراً لهم من البقاء على هذه الحال التى طالما سألهم الطلاب

إعفاءهم منها فلم يجدوا لشكواهم سامعا

ومن سنين قلائل ظهرت حركة من الحنفية فى مصر في قراءة كتب أصول مذهبهم الا أن هذه الحركة لم تلبث أن خبت نارها وخمد ضرامها وأظن ان السبب في خمودها انهم كانوا يظنون انهم يتوسلون بذلك لاقناع من اليهم أمر الطلاب بجعل امتحان من يريد الحصول على شهادة العالمية بكتب أصول مذهبهم فلما لم يوفقوا لذلك وأخفقت مساعيهم رجعوا الي طريقتهم الأولى إذ ليس فى وسعهم الجمع بين الطريقتين

وليس فى استطاعة احد أن يعرف نتيجة تعليم هذا الفن وتعلمه قبل ان يعرف حال كتاب جمع الجوامع وشرحه وحاشيته التى هى عمدة أهل مصر فى تعلم هذا الفن الذى هو آلة المجتهد التى يتوصل بها الى استنباط الاحكام من الكتاب والسنة .. فأما المتن وهو جمع الجوامع فقد اختصره مؤلفه من نيف وستين كتابا من كتب هذا الفن وجعله كالتذكرة لمن أحاط علما بقواعد هذا الفن وخلاف الناس فيه من كتبه المبسوطة فهو يتذكر به ما يعرف من القواعد والاحكام خشية ضياعها ولم يجعله ليتعلم منه فن الاصول من لا يعرف قليلا ولا كثيراً من أصول الفقه ولا أدرك له طعما ولا شم له رائحة .. وسيمر بك في الفصل الذي عقدناه آخر الكتاب لبيان الطرق النافعة فى

تعليم العلم وتعلمه ان الكتب المختصرة مضرة بالتعليم وقاطعة عنه وان الاشتغال بمبسوطات الكتب لابد منه فى ابتداء التعليم وان المختصرات لا ينبغي ان يمسها الا من يريد أن يجعلها تذكرة يتذكر بها ما يعلمه ولا ينبغي ان يمسها من يريد ان يتعلم منها ما يجهل فانها لا تفيد شيئاً وأما شرحه فقريب منه غموضا وخفاء واختصاراً ولن تجد أحداً فى استطاعته الوقوف على حقيقة منه اللهم الا أن يكون له اطلاع على قواعد هذا الفن واحاطة بها من غير هذا الكتاب .. وأما حاشية البنانى عليه فلا مساس لها بالكتاب بوجه من الوجوه ولا ارتباط بينهما ولا علاقة وانما هي محاكمات بين الناصر اللقانى وتلميذه ابن قاسم العبادى وكان الناصر اللقانى كتب حاشية على هذا الكتاب تقع في مجلدة فجاء تلميذه ابن قاسم وكان بينه وبين شيخه منافسات فكتب حاشية على الكتاب المذكور تقع فى أربع مجلدات زيف بها أكثر أقاويل شيخه ثم جاء البنانى فوضع حاشيته على شكل محاكمة بينهما لم يتعرض فيها لايضاح شئ من غوامض الكتاب

هذا هو الكتاب الذى يتاقى منه طلاب العلوم الشرعية بمصر فن أصول الفقه على الطريقة المألوفة بينهم والتى شرحنا لك طرفا منها فيما سبق فاحكم أنت بنفسك على قدر استعدادهم فى هذا الفن وتصور كيف يكون حال الاحكام الشرعية إن أوقع الله في نفوس

بعض هؤلاء الناس أن آلات الاجتهاد قد توفرت لديه واستكملها بالاحاطة بطرق الاستنباط فعمد لاستنباط الاحكام الشرعية وزاحم الأئمة المجتهدين فى مذاهبهم وعارضهم وناقضهم

ومن الحكايات المضحكة فى هذا الشأن ان أحد كبار علماء الازهر بمصر وأطولهم باعا في العلوم العقلية والنقلية وأكبرهم شهرة بين الطلاب استنبط يوما وهو يقرء التلامذة شرح الورقات ان افتتاح الأمور ذوات البال بالبسملة واجب كوجوب الصلاة واعتلّ لذلك بحديث كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الى آخر الحديث وقال ان هذا خبر بمعنى الطلب والطلب للإيجاب فالابتداء بالبسملة واجب ثم قال هذا مذهبي وان وقع الاجماع من الأئمة والعلماء على ان ذلك مندوب اليه عملا بصريح الحديث وصريح قاعدة الاصوليين المتفق عليها من ان الأمر للوجوب .. فذكرنا له ان الامر انما يكون للوجوب اذا توفَّر فيه أمران أن يكون ثبوته قطعياً بان يكون آية من كتاب الله أوحديثا متواترا أو مشهورا الثانى ان تكون دلالته على المعنى قطعية لا يحتمل لفظه غير هذا المعنى فان سقط أحد الأمرين من الأمر لم يفد الوجوب وهذا خال عنهما معاً فانه حديث آحاد ودلالته ظنية فكيف يستنبط منه الوجوب فأنكر علينا ماقلنا وأصرّ على ما قال

هـذا والشيخ قد قرأ جمع الجوامع على الشيوخ وسئل فيه يوم امتحن ليعطى شهادة العالمية فأجاب ثم اقرأه الجم الغفير من الطلاب فما باله لم يهتد لفهم قاعـدة من قواعد الاصوليـين ان كان فى هـذا الكتاب خير لمعلم أو متعلم

وطلاب العلوم الشرعية بالأقطار الهندية يعتنون بكتاب مسلَّم الثبوت للمحب البهارى أحـد علمائهم عناية أهـل مصر بكتاب جمع الجوامع وحالة الكتابين واحدة فى الاختصار وكونهما بحيث لا يطلع على خفاياهما الا الراسخون فى هذا العلم

والطلبة الاتراك يقرأون من كتب هذا الفن التوضيح وأصول البزدوى بشرح عبد العزيز البخارى عليه وشرح ابن الملك على المنار وهي كتب مبسوطـة بعض البسط والاستفادة منها ممكنة فى الجملة ولـكنى لا أحقق ان نتيجة التعلم عندهم أحسن منها عند المصريين وربما كان سبب ذلك عدم اعتنائهم بتأسيس قواعد هذا العلم بالعمل

وطريقة أهـل الغرب في هذا الفن وغيره كطريقة أهل مصر والعلم انما ينقل اليهم من مصر دون غيرها من سائر البلدان .. وأهل الشام ينالون من طريقة المصريين وطريقة الاتراك الا أن عنايتهم بهذا العلم كسائر العلوم دون عناية غيرهم

هـذا مجمل حال علم الاصول في المـدارس الشرعية الاسلامية

وأنت تري أنه حال غير حسن وفى البقاء عليه اضاعة للوقت وصرف للعمر فى طلب مالا يحصل والسعي وراء ما لا ينال .. وحاشا العقلاء من مثل هذا

﴿ كلمة فى فن الأصول ورأي فى الاجتهاد ﴾

قد ذكرنا في صدر كلامنا على فن الاصول ان هذا العلم آلة المجتهد الذي ينصب نفسه لاستنباط الاحكام من الكتاب والسنة وان حاجة غير المجتهد اليه كحاجة الاعمى الى مصوَّرات الجغرافيا وانما نريد بهذا الكلام التمهيد لذكر الاجتهاد والتقليد وبيان رأي الناس فيهما والصواب فى ذلك فما لم تُعرف حقيقة الحكم في ذلك لم يمكن الحكم بلزوم هذا الفن أو عدمه

وأقوال الناس فى الاجتهاد والتقليد لا تزيد على ثلاثة أقوال .. فقوم يرون أن التقليد ضربة لازب وان دعوى الاجتهاد ضرب من الكفر والالحاد في الدين ويرون أن باب الاجتهاد قد أغلق بعد الأئمة المجتهدين الذين وقع الاتفاق على تسليم الاجتهاد لهم وجواز تقليدهم وهذا رأي الجمهور ولهم على ذلك حجج وبراهين ليس هنا محل بسطها: وفساد قول هؤلاء معلوم بالضرورة ويكفي فى بيان فساده انه تحريم مالم يرد نص عن الشارع بتحريمه وقول على الله بغير علم .. القول الثاني ان الاجتهاد لازم وان التقليد غير جائز بوجه من الوجوه

وعلى كل واحد من المسلمين ان يجتهد لنفسه فيما يعرض له من أمور دينه ويعمل بما أدى اليه اجتهاده وانتهى اليه بعد ان يكون قد نظر فى الدلائل الشرعية .. وهؤلاء قليلون جداً ولهم دلائل على ما ذهبوا اليه كما ان للفريق الأول دلائل وحسبنا في ابطال ما ذهب اليه هذا الفريق ان أكثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا مجتهدين وانما كانوا يقلدون فيما يعرض لهم من أمور الدين علماء الصحابة كابن عباس وابن مسعود وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وأمثالهم رضى الله عنهم وكذلك من جاء بعد الصحابة من التابعين ولم ينقل عن علماء ذلك العصر انهم أنكروا على من جاء يستفتيهم فى أمر من أمور دينهم تركه الاجتهاد وميله الى التقليد ولو ان في ذلك محظورا على الناس فى دينهم لم يسع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم التواطئ على السكوت على هذا المنكر

ولسنا نقول اننا لم نعلم ان أحداً من علماء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل الفتيا فيهم أنكر على من جاء يستفتيه التقليد وترك الاجتهاد بل نقول نحن نجزم جزما قاطعاً بانهم لم ينكروا على أحد .. وهذا كاف فى الجزم بان الاجتهاد فى الاحكام الفرعية ليس بلازم على كل أحد وحاشا الحنيفية السمحة من هذا التشديد الشديد .. القول الثالث وسط بين القولين وهو ان الاجتهاد ليس بمحظور

على أحد من الناس وليس بضربة لازب على كل انسان بل من رأى منه ما يؤهله للقيام باعباء هذه الخطة العظيمة فله ان يجتهد ويعمل بما أداه اليه اجتهاده ومن لم يجد من نفسه ذلك لم يلزم بالاستعداد له والتهيؤ حتى يصير بحيث يمكنه بل يجوز له ان يقلد أحد الائمة المجتهدين ويكون ذلك كافيا له فى أعماله متى كان قصده بتقليد من قلد موافقة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وان لم يوافق ما قصد اليه

ونحن نرى ان هذا القول الاخير هو الصواب الذى ينبغى المصير اليه فى أمر الاجتهاد والتقليد وان الانسان فى سعة من اتباع اجتهاده بعد استفراغ الوسع فى طلب الحق .. حاشا أنا لا نجيز لأحد يرى فى نفسه صلاحية للاجتهاد ان يدعو الناس الى العمل بقوله والاخذ بما أداه اليه اجتهاده لا لشيء سوى اننا نرى ان فى ذلك توسيعاً لباب الخلاف بين المسلمين ونحن فى حاجة الى تضييقه

نعم نحن لا ننكر ان في سعة باب الاجتهاد راحة كبيرة للناس وخيراً كثيراً للمسلمين وخروجا عن الاصر الذي طوقت به رقاب الامم التى لم تخضع لأحكام هذا الدين حتى أداها التدين الى ترك الدين والمروق منه مرة واحدة الا أن الناس لغلبة الجهل عليهم جعلوا هذا الاختلاف المذهبي الذى هو من تمام محاسن هذا الدين وخفة على المتدينين به سببا للتعصب والنزاع وتألب بعضهم على بعض وقيام كل

فريق منهم ضد الفريق الآخر كما يقع بين أهل الأديان المختلفة: ولقد قرأنا في كتب التاريخ عما وقع بين أهل المذاهب المختلفة من المسلمين ما كدنا نكذبه لولا انا رأينا له في أيامنا من الشواهد ما يصدقه ويقويه

ومن ذلك ماقرأناه في كتاب معجم البلدان قال اجتزت ببلد من بلاد الفرس فوجدتها عامرة آهلة بالسكان رائجة الأسواق ثم عدت اليها بعد سنوات قليلة فوجدتها خرابا يبابا قد هدمت مساكنها وخلت من أهلها ولم يبق بها الا أقل من القليل فاستغربت من سرعة الخراب اليها وتفريق جماعاتها في الزمن اليسير فسألت رجلا من العقلاء عن السبب في ذلك فقال كان أهل البلد قسمين أهل سنة وشيعة وكان أهل السنة قسمين أيضاً حنفية وشافعية فحصل بين أهل السنة والشيعة ما أفضي لقيام بعضهم على بعض وكان أهل السنة أكثر عدداً وأقوى عدة فما زالوا بهم قتلا حتى أفنوهم عن آخرهم وأصبح نحو نصف البلد خرابا لا يعمره أحد من الناس ثم وقعت العصبية بين الشافعية والحنفية وقامت بينهم الحروب حتى أفنى بعضهم بعضاً ولم يبق من الفريقين غير بيوت قليلة من الشافعية سبق فناء الحنفية عن آخرهم آجالهم فبقوا على قيد الحياة

ومثل هذه الحوادث كثير لا حاجة بنا الى ذكرها والمشاهد منها كاف في الاستدلال به على الغابر ومنشأ هذا جهل العامة وفساد

حال رؤساء الدين وتعصبهم ومع هـذا فلا حاجـة بنا الى فتح باب آخر للخلاف

على انا لو سلمنا لكل أحد دعوى الاجتهاد وسوغنا له دعوى الناس الى مذهبه الذى اجتهد فأداه اليه اجتهاده لأوقعنا الدين فى هوة عظيمة من الفساد ..فان منصب الاجتهاد عظيم والنفوس تميـل اليه جداً لأنه من الرياسـة الدينية فلو انا فتحنا الباب لدخله من لا يعرف قبيلا من دبير واتخذ له مذهباً جديداً دعى الناس اليه وناظر من خالفه فيه عليه وفي ذلك تعـريض الأحكام لخطر كبير: وقد كنت أرى أن فى الزام الناس تقليد أحد من الائمة المجتهدين دون غيرهم وعدم تسليم الاجتهاد لاحـد من أهل هذا العصر حجراً على الناس وتضييقا على الافـكار وحصراً لفضل الله في قوم قليلين .. فلما كنت فى الهند عام تسـعة عشر بعـد ألف وثلثمائة دعيت احـدى ليالى رمضان لتناول طعام الافطار عند أحد التجار وكان في جملة المدعوين رجل من علماء نجد يرى انه من المجتهدين وله من أهل وطنه من يرى قوله حجة فلما مدت المائدة ووضع الطعام مدّ المجتهد يده اليه فقلت امسك فلم يحن الوقت والشمس لم تغرب بعد فقال أرى ان الشمس قد غربت وان الوقت قـد حان وما كنت لاقلد أحـداً وأهوى بيده فأكل ونحن لانشك فى عـدم دخول وقت الغروب .. فمن ذلك الحين

رجعت عن فكرى وملت الى رأي من يرى الحجر على الناس فى هذه الدعوى وقلت ان لم يكن فى هذا الحجر سوى كف مثل هؤلاء الحمقاء عن ولوج هذا الباب ومزاحمة العقلاء الفضلاء فيه لكفى ذلك داعيا الى اختياره وترجيحه على غيره سيما وان درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ولا شك ان ما ينشأ عن هذا الباب من المفاسد يقل بجانبه ما يترتب عليه من المصالح

وفوق هذا كله فان الغرض من الاجتهاد اليوم ان كان الخروج عن إثم التقليد فى الأحكام فقد علمت مما حكيناه عن الصحابة أنه غير ممنوع وانه ليس كل أحد من المسلمين مكلفا بالاجتهاد وان كان الغرض تنقيح أقوال الائمة المجتهدين وبيان غير الموافق منها فالظن لا يدفع بظن مثله ولا يمكن للانسان ان يصل فى المسائل الاجتهادية مهما بالغ فى البحث والتنقيب الى درجة يجزم بها بان ما انتهى اليه بحثه حق قطعا وأكثر ما يمكن ان يصل اليه غلبة الظن : وخير من الاشتغال بهذا واجدى للمسلمين اختيار ما يوافق أهل كل عصر ومصر من أقوال الائمة المجتهدين والعمل بها وترك التقيد بمذهب امام واحد من الأئمة وفى هذا من التوسيع على المسلمين والنظر اليهم ما لا ينكر وقعه

والناظر فى أقوال بعض الائمة في فروع المعاملات التى لا يزال العمل بها جاريا على القوانين الشرعية يرى كثيراً منها لا يناسب حال

هذا الزمن وفى قول غيره من الائمة ما يناسب حال الزمن وينطبق عليه لخير من التقيد بقول واحد يكون فيه المناسب وغير المناسب اختيار المناسب من مذهب كل امام من الائمة والعمل به

ولو أننا ذهبنا نستقرى افرادالمضار التى تنشأ من التقيد بمذهب واحد في المحاكم الشرعية لخرجنا الى حصر ما لا يبلغه الحصر وعدّ ما لا يستوفيه العد: ومن العجب ان الناس مع اعتقادهم بان سائر الائمة على درجة واحدة وان تقليد كل واحد منهم كتقليد الآخر اذا سمعوا مثل هذا نفروا عنه واشمأزت منه نفوسهم مع ما فى ذلك من الضرر عليهم

ولوان رجال الدين فى القرون الاخيرة نظروا نظرة رجل خبير بصير واستعملوا الأناة والصبر ووفوا التأمل في مصلحة الدين حقه لم تهجر أكثر أبواب الفقه ولا منعت المحاكم الشرعية من النظر فيما يحدث من الحوادث المتعلقة بها .. ولكنهم أصروا على البقاء على طريقة أصبح العمل بها غير ميسور وفى الاحكام الشرعية ما يناسب ويمكن العمل به الا أنه من قول امام آخر غير الامام الذى يجرى العمل بمذهبه بين الناس أو من الأقاويل الضعيفة فى مذهب ذلك الامام نفسه فاضطر القائمون على الناس والناظرون في ترتيب أمورهم وربطها بروابط يصلح معها حال المعاش ويستقيم أمر العباد الى الإعراض

عما حرص عليـه أولئك والخروج عنه الى أقوال ليست من الدين في شئ حرصاعلى صلاح حال الناس في دنياهم .. وهذا بعض ما يترتب على الجمود من الفساد والله المستعان على تحمل آلام هذا الجمود

وفي امكاننا بعد ما ذكرنا من التمهيدات السابقة الشافية الوافية الواضحة أن نقول ان علـم الاصول ليس من العلوم الضرورية اليوم وانه لو رفع من جمهور العـلوم الدراسية لكان خيراً من الاشتغال به وصرف الاوقات الطويـلة فيه سـيما وان الناظرين في هذا الفن الحريصين عليه يرون ان دعوى الاجتهاد ضرب من الالحادوالزندقة فأي خير لهم بعـد قولهم هذا فى الاشتغال بعلم لا ينتفع به الا المجتهد وحاجة غير المجتهد اليه كحاجة الاعمى الى ضوء السراج ..والمسوّغون للاجتهاد اليوم يرون ان قواعـد الاصوليـين منشأها الذوق العربى وعندهم من الذوق العـربى والملكة ما يغنيهم عنها

فرأينا في الاجتهاد ينحصر فى أمرين .. الاول ان من رأى فى نفسه استعداداً له لم يمنع منه ولا حجر عليه فيه ولا عُدّ من المستخفين بالدين ما لم يظهر عليه من الاضـطراب فى الرأي ولم يكن من المتهاونـين بالتـكاليف الشرعيـة والا كان غرضه العبث بالدين ..الثانى ان يمنع المجتهدون من دعوة الناس الى ما اجتهدوا فيه فأداهم اجتهادهم اليه لأن في ذلك مفسدة كبيرة على العامة; وغيرُ هذا انما يقوله متعصب أو

جاهل رقيق الدين ذو مجون .

وهكذا كان رأي الاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده فى أمر الاجتهاد ولم يكن يرى ان الاجتهاد واجب على كل أحد وانه لايجوز تقليد أحد من الأئمة كما يذكر ذلك عنه أعداؤه وجهلة محبيه وحاشا الرجل العاقل البصير ان يرى مثل هذا الرأي ويدعو الناس الى ما لا يمكنهم ولو فعلوه لكان فى ذلك فساد دينهم ودنياهم : واذا كان الشيخ محمد عبده يسوؤه الاختلاف الواقع بين المذاهب الاربعة فكيف يدعو الناس الى ان يكون لكل واحد منهم رأي واذا كان الاختلاف السابق سبباً لارتباك الحال فكيف يكون الأمر لو أصبح الناس كلهم مختلفين .

ولقد دخلت عليه رحمه الله يوما ما استفتيه فى بعض الحوادث فذكر ما هو المذهب المعروف فى ذلك وكان بحضرته رجل لا أعرفه فنازعه فى الحكم وقال لو كان بغير هذه الطريقة لكان خيراً وأنظر فقال الاستاذ لا يقع رأيك حجة على الناس وأنت مخير فى شأن نفسك

هذا هو الرأي الحق الصواب البين الواضح الذى يجمع النظر الى المصلحتين معاً مصلحة الدين ومصلحة الناس وأما ما تسمعه من الناس من ذكر الاجتهاد والحث عليه واطراح التقليد والتنفير عنه والوقوع فى المتمسكين به وأساءتهم القول فيهم فنشأه حب الظهور بين

الناس لا تحرى المصلحة ولو سألت أولئك الذين لا ينزل من ألسنتهم ذكر الاجتهاد فى الدين لم تجد لهم أقل معرفة به ولو سألتهم عن الاضرار التي ولدها التقليد لم يذكروا شيئاً أصلا وانما كان قولهم ان البلاء كل البلاء انما وقع على الدين من اختلاف المجتهدين وترك الاجتهاد فان سئلوا البيان لم يبينوا وغاية علمهم فى ذلك انهم سمعوا الناس يقولون فقالوا وهم لا يفرقون فيما يدعون اليه بين غث وثمين

﴿ علم الفقه ﴾

الغرض من هذا العلم معرفة مايعرض لأفعال المكلفين من الحل والحرمة والكراهة والندب والإباحة والجواز والفساد وهو من الأهمية بحيث لا يخفى على أحد فيحتاج الى البيان والايضاح وانن استحال الحال وتغير الزمان وقهر ظلام الباطل المتكاثف نور الحق المتفرق حتى أغلقت أكثر أبواب الفقه وارتفع العمل بها استغناء عنها بما لا يساويها ولا يدانيها اعتدالا فلا نيأس من يوم يعود كل شئ فيه الى مقره ويكشف نور الحق ظلام الباطل ويصدعه فتفتح هاتيك الابواب ويظهر منها شعاع نور الحق

على انا والحالة هذه في حاجة تامة لقراءة كتب هذا الفن

وتعليمه وتعلمه لاقام الصلوات المكتوبة وأداء الزكوات المفروضة والصوم والحج والأنكحة والطلاق والمواريث والأوقاف والذبائح ونحوها مما لا يزال باب العمل فيه مفتوحا علينا ولا غني للهيئة الاسلامية عنه وان استغنى عنه بعض الافراد من المسلمين

وهذا العلم من العلوم المقصودة لذاتها وليس هو من العلوم الآلية التى يكون الغرض منها التوسل بها الى غيرها من العلوم بل هو وعلم التوحيد الذى هو معرفة الله جل شأنه بما يجب له وما يجوز عليه وما ينزه عنه ومعرفة رسله كذلك على هذا الوجه هما العلمان الوحيدان المقصودان لذاتيهما وكل ما عداهما من العلوم فانما هو وسيلة لهما أو وسيلة لما هو وسيلة لهما فان الله جل شأنه انما خلق هذا الخلق لعبادته كما قال جل شأنه (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) وعبادته توحيده وطاعته فى فعل ما يأمر به وترك ما ينهى عنه ولما كان من فوق طاقة العقول ان تعبده جل شأنه ابتداءً من عند أنفسها لعدم اهتدائها بذواتها لما يليق به من العبادة وما لا يليق أرسل رسله ببيان ذلك للناس تخفيفا منه عنهم وقطعا لاحتجاجهم عليه فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نضل ونخزي وأنزل معهم الكتب تبقى بين أيديهم ليتذكروا بها أبداً ما افترض عليهم وماشرع لهم من الدين وليرجعوا اليها فيما اشتبه عليهم من أمر دينهم

اذا تدبرت هذه المقدمة التى ذكرناها لك علمت ان جميع أصناف العلوم الشرعية كلها آلات لعلم الفقه والتوحيد وليس غيرهما بينها من علوم المقاصد فعلم التفسير والحديث رواية ودراية وكتب الرجال جرحا وتعديلا وعلم البلاغة والنحو والصرف والعروض والقوافي والاشتقاق وسائر العلوم الادبية انما الغرض منها ان يتوصل بها الى معرفة الكتاب والسنة والغرض من الكتاب والسنة معرفة ما أوجب الله على عباده وكلفهم به على لسان رسله عليهم السلام

وأنت خبير بان طلبة العلوم الدينية فى جميع البلاد الاسلامية كل منهم يتلقى هذا الفن على حسب مذهبه التي يتعبد به فى فروع الاسلام فمنهم شافعيون ومنهم حنفيون ومنهم مالكيون ومنهم حنابلة ولكل فريق كتب خاصة به يتلقى فروع مذهبه منها وقد يغلب بعض المذاهب على أهل قطر فلا يكاد يوجد غيره عندهم

ونحن سنجعل كلامنا قاصراً على المذهبين الحنفى والشافعى لأمرين الأول أنهما أكثر انتشاراً بين المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها دون مذهب مالك وأحمد بن حنبل الأمر الثانى أننا لا نعرف شيئاً من حال كتب هذين المذهبين المتداولة الآن فلا يمكننا استحسان الحسن منها واستقباح ما ليس بحسن وتمييز النافع منها من غيره على اننا ان وفق لنا من يعرفنا حقيقة الحال فى ذلك ممن نثق بعلمه وعقله

وانصافه ألحقنا ذلك بالكتاب وأضفناه اليه والا فلا لوم علينا فى ترك ذلك والاعراض عنه فالله تعالى يقول ولا تقف ما ليس لك به علم

وقبل الخوض في المقصود نذكر كلمات يسيرة فى أسباب اختلاف المذاهب فى الفروع الدينية ونبين ان ذلك ليس بقادح فى الدين ولا فى أصحاب تلك المذاهب مع اقامة البراهين على ان الاتفاق فى ذلك ضرب من المحال : فقد نسمع من قوم الطعن فى حقية الدين لهذا الأمر ومن آخرين القدح فى أصحاب المذاهب قال الأولون إن الدين الاسلامي لو كان صحيحا فى ذاته لم تتضارب أحكامه فيكون الفعل الواحد فيه حلالا وحراما وصحيحا وفاسدا وموقوفا ونافذا لان الصحيح المنزل من عند الله لا يختلف ولا تتضارب أحكامه ولا تتناقض ولأن المتناقضين كل منهما يكذب الآخر ويدفعه فيتساقطان ويبطل الحكم بوجهيه فيرجع التدين الى ترك الدين واطراح أحكامه وهذا خلاف المقصود من التشريع

وقال الآخرون ان الحكم في ذاته واحد إما الحل أو الحرمة أو الصحة أو الفساد والله سبحانه لا يجعل لشئ واحد حكمين متناقضين لأنه لو فعل ذلك لكان هو متناقضا لانه اذا وصف شيئاً واحداً بالحل والحرمة فى وقت واحد فقد وصف نفسه بكونه آمراً به ناهيا عنه فى وقت واحد وهل التناقض غير هذا .. واذا كان ذلك

كذلك فهذا الاختلاف المشهود بين أصحاب المذهب الاربعة وغيرهم إما منشأه القول بالهوى والرأى من غير استناد على أصول الشريعة أو اهمال منهم فى تعرف الحق وتمييزه من غيره وتقصير وترك للمبالغة فى الاجتهاد وتمييز الصحيح من الفاسد وكيف كان الحال فان هذا يوجب اطراح أقوالهم لعدم الوثوق بها لتناقضها وعدم معرفة حقها من باطلها على ان الاحكام المشروعة واحدة والحق فى ذاته واحد

هذا كل ما احتج به الطاعنون لا نعرف لهم دليلا غير هذا الذى ذكرناه وأنت اذا تأملت ما سنذكره في هذا المقام فأنت فى غنية عن الجواب عما اعترضوا به وارتكنوا اليه

ما هو الدين : الدين قانون سماوى أنزله الله على رسول من رسله وكلفه بابلاغه لمن أرسله اليهم وأخذهم بالعمل به والسير على موجبه سواء فى معاملة الخالق والمخلوقين .. هذا هو حقيقة كل دين وكل ما يوجد فى كتب القوانين الشرعية السماوية من قصص ومثل ووعد ووعيد ووصف النعيم بما يرغب فيه والشقاء بما ينفر عنه فانما المقصود من ذلك حمل المكلفين على العمل بهذا القانون والوقوف عند حدوده وعدم تعديها لان التكاليف الشرعية منها ما هو من أعمال الجوارح ومنها ما هو من أعمال القلوب والعقوبات المشروعة فى القوانين الشرعية انما هي على أعمال الجوارح دون أعمال القلوب وانما لم يجعل الشارع عقوبة

على أعمال القلوب التي تخالف شرعه كالعقوبات التى جعلها على أعمال الجوارح لانه لما كان تنفيذ تلك العقوبات على المخالفين موكولا الى الخلق وهؤلاء ليس فى استطاعتهم الاطلاع على القلوب ومعرفة أعمالها الموافقة لأمر الشارع والمخالفة وكان علم ذلك مما استأثر به علام الغيوب جعل لذلك عقوبات أخرويات يتولى هو اقامتها على مخالفيه وبين لهم على لسان رسله ما أعد من أنواع العذاب لمن خالفه وتعدى حدوده ليكون ذلك باعثا لهم على الامتثال وكافا عن المخالفة والتعدى

فالدين على هذا الذى ذكرناه قانون كبعض هذه القوانين التى تتعامل بها الأمم اليوم وانما يمتاز عنها كما باشتماله على بيان ما على المخلوق لخالقه فهو قانون دنيوى أخروى والقوانين الوضعية التى هي من أوضاع البشر قوانين دنيوية بحتة لا تعلق لها بأحوال الآخرة ويمتاز عنها كيفاً بحسن الوضع وكمال الاحاطة مع غاية الاعتدال في ترتيب العقوبات على الجنايات وموافقته لجميع الناس فى كافة الاعصار بحيث لا يأتى زمن يحتاج فيه الى تحوير كالذى يقع فى القوانين الوضعية

والقانون شرعيا كان أو وضعياً لا يمكن ان تبين فيه أحكام الحوادث الجزئية حادثة حادثة كل حادثة بحكمها الذى هو لها لان ذلك يقتضي قبل كل شئ استقراء أفراد الحوادث وكيف يمكن

استقراؤها وهى متجددة بتجدد الأزمان ولكل زمان من جزئيات الحوادث ماليس لغيره فلو جعل التشريع عبارة عن بيان أحكام جزئيات الحوادث تفصيلا لأدى ذلك الى ابطال التشريع

فتعين اذا ان يكون القانون عبارة عن قواعد كلية يتعرف منها أحكام جزئيات الحوادث الكونية فالأديان السماوية عبارة عن قواعد كلية كسائر القوانين

ثم ان القوانين الوضعية سواء المستعملة فى أيامنا هذه أو المهجورة من قوانين الأمم الغابرة لو رجع الانسان الى شروحها التى وضعت عليها لايضاح تلك القواعد الكلية وجد بينها اختلافا كبيراً فى تفسير تلك القواعد وتطبيقها على الحوادث الجزئية حتى ان الأحكام تختلف باختلاف الشرح والتطبيق فتكون مباحة على قول ومحظورة على قول آخر

بل رأينا فى عصرنا قوما نري انهم من أفاضل رجال هذا العصر ومن كبار المتشرعين يختلفون فى تفسير اللوائح التي تصدرها دوائر الحكومات فى الحوادث الجزئية مشتملة على المادتين والثلاث فقط فيبيح أحدهما قانونا ما يحظره الآخر وحجة كل منهما نص اللائحة

هذا على ان القوانين الوضعية من أوضاع البشر أمثالنا وعباراتهم في قوانينهم كالتي ألفناها في محاوراتنا ومراسلاتنا وهي دون القوانين

الشرعية غموضاً واجمالا

واذا كان الحال على ما سمعت ورأيت فى القوانين الوضعية فأى موجب للقدح فى القانون الشرعى أو فى شراحه اذا اختلفوا فى تفسير بعض مواده أو فى تطبيقها على فروعها الجزئية وما الذي يجعل لشراح القوانين البشرية فى اختلافهم عذراً دون شراح القوانين الشرعية السماوية

وفوق هذا فان القانون الشرعى الاسلامى تفرقت مواده بتفرق حفظته في الأقطار اذ لم يكن مجموعا فى سفر لاشتغال أهل العصر بالدعوة الى الدين والفتوح عن ذلك فأخذ أهل كل مصر بما وصل اليهم من هذا القانون وعملوا به وبقى غيره غيباً عنهم لم يطلعوا على شئ منه فلم يكونوا مكلفين به

هذا وان لاثبات حقية هذا الأمر وكونه غير مخالف للقواعد الطبيعية مسالك أخر أقوى وأمتن من هذا الذى سلكناه الا اننا رأينا ان الاحتجاج على هؤلاء الطاعنين بما يستحسنونه ولا ينكرونه باثبات مشابهته من كل الوجوه لما ينكرونه خير من الاحتجاج عليهم بشئ ربما كانوا لا يوافقوننا فيه فنحتاج الى الاحتجاج على ما احتججنا به على مقصودنا ويطول النزاع

ولنرجع الآن الى ما كنا بصدده .. وهو ذكر الكتب الفقهية التي يتداولها طلاب العلوم الشرعية في الممالك الاسلامية من

حنفية وشافعية وغيز الحسن منها من غيره معتمدين في جل ما نقول أو كله على ما قاله متأخرو الفقهاء فنقول

يقرأ طلاب العلوم الشرعية الحنفيون فى مصر شرح مراقى الفلاح للشرنبلالى مجرداً وبحاشية الطحطاوى عليه وشرح الطائى على متن الكنز ولا حاشية علي هذا الشرح والحمد لله وشرح ملا مسكين عليه كل واحد من هذه الكتب الثلاثة فى سنة ثم شرح العينى على الكنز فى سنتين ثم شرح الدرر على الغرر لملا خسرو في سنتين أيضاً ثم شرح الدر بحاشية ابن عابدين في خمس أو ست سنوات فيكون مجموع ما ينفقه الطالب من سنى عمره ثنتا عشرة سنة هذا اذا لم يُعد قراءة كتاب واحد مرة أو مرتين فان أعاد شيئاً منها ارتقى العدد الى أضعافه

فأما شرح مراقي الفلاح للشرنبلالى ففيه من المسائل الغريبة العويصة والعبارات المعقدة والعلل الأصولية شئ كثير فلا ينبغي ان يكون أول ما يشتغل به صغار التلامذة الذى هم الى تعلم فرائض العبادات ولوازمها أحوج منهم الى غرائب المسائل ونكات الأصوليين

وأما شرح الطائى على متن الكنز فهو الآية العظمى اغلاقا واجمالا واختصارا ومازالت أكباد طلاب فقه أبى حنيفة في مصر متعطشة لحاشية عَلى هذا الكتاب تفصل مجمله وتحل معماه وتقيد

مطلقاته لكن لم يوفق أحد لهذا المشروع الذى يرون انه أجل مشروع .. وهذا الكتاب باتفاق أهل العلم فيهم أعضل الكتب الفقهية لشدة غموض عباراته وكثرة إجمالها ولهذا قالو انه لا يصح الافتاء بما فيه ولا يصح التعويل عليه فى القضاء ففيه بليتان كل واحدة منهما تكفى فى ترك الاقبال عليه والاعتناء به : وأما شرح ملامسكين فقد ذكروا ان مؤلفه مجهول لا يعرف هو ولا أحد من أشياخه الذين أخذ عنهم وأكثر نقوله ضعيفة ولذلك أسقطوا الاحتجاج به فى القضاء والفتيا

وأما شرح العينى على الكنز فهو كالذين تقدماه وعلته التى مات بها ان مؤلفه اختصر به شرح الزيلعى على الكنز فى ستين يوما ففاته شئ كثير يتوقف عليه الفهم أو صحة الحكم

وأما شرح الغرر لملاخسرو المسمى بالدرر فانه قد زاد فى متنه على ما فى متن الكنز زيادات غير حسنة فسقط اعتباره لهذا

وأما شرح الدر بحاشية ابن عابدين وهو أكثر الكتب تداولا وانتشاراً فالمتن والشرح في غاية الخفاء والاغلاق لشدة اختصارهما والشرح مملوء بالنقل عن صاحب النهر وابن كمال باشا والاشباه لابن نجيم وهي كتب مضطربة لا يصح التعويل عليها ولذلك قالوا انه لا يصح الاحتجاج به فى القضاء والفتيا لشدة اختصاره ولكثرة مافيه من الحشو والزوائد المنقولة عن الضعفاء : وابن عابدين على سعته

وضخامته ترك أكثر المواضع من غير تحرير واغفل التنبيه على أكثر ما فيه من الأغلاط والعذر له في ذلك انه ينقل من كتب المذهب ما تيسر له النقل فاذا لم يجد سكت فان تكلم شيئاً من عندنفسه خانته قواه ولقد سمعت من هو أوثق من ابن عابدين وأوسع منه اطلاعا وأدق نظراً يقول اذا رأيت ابن عابدين يقول فى آخر كلامه فافهم فاعرف انه قد اعتمد على نظره فاخطأ

وهي ان نقحت عن هذه الزوائد التي فيها واصلح ما فيها من الأغلاط فلا بأس باستعمالها لاشتمالها على كثير من الاحكام الفقهية ولكن الاشتغال بغيرها من كتب المذهب المصححة المنقحة الموثوق بما فيها لجلالة مؤلفيها وتضلعهم وأخذهم عن الثقات خير منها كيف كان حالها وربما قرؤا على ندرة كتاب الاشباه والنظائر لابن نجيم المصري وهو كتاب فى غاية الاغلاق والايجاز وقل ان يهتدي أحد لحل رموزه الا بعد عناء ومشقة وبعد هذا فان كثيراً من الاحكام التي نقلها لا تنطبق على الأحكام الفقهية المنقولة عن المذهب الحنفى والسبب في ذلك ان ابن نجيم ألف هذا الكتاب فى ستة أشهر ثم اخترمته المنون قبل تنقيحه وتبييضه واخراج ما فيه من الغرائب فبقي على ماهو عليه الآن : ولذلك يقول متأخرو الحنفية انه لا يجوز الاعتماد عليه في القضاء والفتيا وآخرون يقولون ان تداوله حرام اذ لا يوجد من يقدر على تمييز

صوابه من خطأه ففي استعماله ادخال بعض أحكام في الدين وهى ليست منه وربما كان قول هؤلاء أقرب الى الصواب

هذا كل ما يتداوله طلاب العلم الديني فى مصر من كتب الفقه الحنفي وطلاب العلوم فى الممالك التركية والسورية والهندية وغيرها يشاركونهم فى هذا لا يزيدون عليهم الا ببعض مؤلفات صغيرة هي كهذه الكتب لان عمدة طلاب العلوم الشرعية فى كافة الممالك الاسلامية على الكتب المطبوعة التى يتيسر لهم تناولها ولن ترى مهما فتشت فى خزانة كتب أحد من الطلبة كتابا خطيا وان وجد فى خزائن بعض الموسرين من أهل العلم فقليل .. والطباعة أول ظهورها فى الممالك الاسلامية كان فى الأستانة ومصر وكان نموها فى مصر أكثر لضعف يد المراقبة عليها

وصادف حين ظهور الطباعة فى مصر ضعفا فى العلم الديني وجهلا فى سائر الطبقات وتسلطا من العلماء الاغبياء على الحكام الجهلاء فكان همُّ المطابع المصرية طبع آثار هؤلاء الذين نشير اليهم وأشياخهم وبعض من يثقون بهم من علماء القرون الوسطى دون شيء من كتب المتقدمين لمخالفتها لأفكارهم

وربما تقدم واحد لطبع كتاب من الكتب النافعة إما من مؤلفات المتقدمين أو من مؤلفات بعض المتأخرين فمنع من ذلك لان بعض

المشايخ رأى فيه مسألة تخالف رأيه أو اعتقاده وان كان رأيه واعتقاده خطأ فى نفس الأمر

فكأن المطابع ما وجدت في مصر الا لخدمة أفكار هؤلاء الناس الأغبياء ونشر مؤلفاتهم ومؤلفات من يحبون دون غيرهم من سائر طبقات العلماء وكأنهم أخذوا من الله ورسوله حجة وثيقة على انهم هم المصيبون وغيرهم من المخطئين .. ومن رأى حالة قلم المطبوعات تلك الأيام ووقوفه موقف الحيرة بين الناس والعلماء رأى ما يضحك ويبكي

فانتشرت هذه الكتب بين الناس انتشاراً هائلا وتفرقت فى ممالك المسلمين شرقا وغربا وعكف طلاب العلوم على تعلمها والأخذ عنها لعدم وجود غيرها بأيديهم وجعلوها قدوة لهم فى علومهم وما زالت على تكرر الزمان نعلو منزلتها عندهم حتى صاروا يعدون الكلام في ابطالها والاستغناء عنها بما هو أنفع منها ضربا من الالحاد فى الدين

وأهل الآستانة على ضعف سيرهم فى هذا الطريق كانوا يحتذون في سيرهم حذو الطباعة المصرية ويقتدون بها فى طباعتهم لاعتقادهم ان أهل مصر لوجود الأزهر بينهم هم القدوة في كل ما يصدر عنهم من حركة وسكون

فكان ظهورُ الطباعة في مصر في ذلك العهد بلية عظيمة على

المسلمين كافة فى مشارق الارض ومغاربها ولولاها لم تنتشر كتب الكفر والخرافات بين أيدي المسلمين فتصير عند العوام فيهم وما هم قليلون دينا منزلا وشريعة متبعة

فصل ـ واذا قايس المرء بين مطبوعات مصر ومطبوعات البلاد الافرنجية رأى أمراً معجباً .. يرى ان مطبوعات البلاد الافرنجية كلها لأجلّ علماء الاسلام وأفضلهم اللهم غير كتب قلائل ويرى ان المطبوعات في مصر على ضد ذلك على خط مستقيم: نعم ان خزائن الكتب فى البلاد الأفرنجية ملأى من الكتب الاسلامية الجليلة بخلاف مصر فانها بعد نحو نصف قرن من تأسيس مكتبة رسمية لم تحصل من الكتب الا على هذه الدشوت المودعة فى خزائن مكتبة الحكومة والتى هي غير القليل منها عبارة عن شروح وحواش من مؤلفات المتأخرين وما قد يوجد من كتب المتقدمين فاما ناقص أو مغلوط لا يوثق به لكن أي عذر لهم فى ترك استجلاب الكتب النافعة ومزاحمة الاوربيين فى اقتنائها واستنساخ الاهم فالأهم منها أو لم يكن ذلك خيراً لهم من شحن خزائن المكتبة بالكتب الافرنجية التى لا يعرفها أحد من أهل البلاد

فان قال قائل ان هذا من شأن الحكومة وليس من شأن الأهالى فهم معذورون قلنا الى هنا وندع الكلام فانا قوم مشرقيون

وعلاقة المحكوم منا بالحاكم علاقة العبد الخوّار بالسيد الجبار وانما عليهم الأمر وعلينا السمع والطاعة

أرانا قد بعدنا عن الموضوع وخرجنا الى الكلام عما لم نجعل كتابنا من أجله وانما الحديث ذو شجون والنفس اذا كانت تألم من شئ وتطلب الخروج عنه والخلوص منه الى فضاء ضده تتبعت أدنى الوسائل لذكره فتذكرته لتعلن بشكواها منه وتلتمس الفكاك من أسره فلنرجع الى ما نحن بصدده فنقول

قد ذكرنا ما يتداوله طلاب العلوم الشرعية من كتب الفقه الحنفى وبيان درجتها بين الكتب ومقدار ثقة الناس فيها حتى من يحرص عليها ويشتغل ليله ونهاره فيها وحسبنا دليلا على صحة ما ذكرناه قلة الناجحين فى هذا الفن ففي سنة ١٧ هجريه بعد ثلاثمائة وألف كان الناجحون فى امتحان المكافأة من طلبة فقه أبى حنيفة فى الازهر ثلاثة نفر اثنان سوريان والثالث مصرى وانى لا أعلم كمية الذين دخلوا قاعة الامتحان من الحنفية لكنى أحقق انهم أكثر من ثلثمائة

فاذا كان الناجحون واحداً من كل مائة فى هذا الامتحان البسيط فكم يكون عدد الناجحين فى الامتحانات الحقيقية التى يقصد منها معرفة من له ملكة وادراك ممن لا شئ عنده

نعم انه ليست رداءة الكتب هي السبب الوحيد فى عدم النجاح

بل لسوء طرق التعليم المألوفة بين أهل العلم بمصر دخل كبير في هذا الامر أيضاً بل هـذا أشد ضرراً وأسوأ تأثيراً ولكن هذا لا يدفعنا عن المقصود ولا يزلزل قولنا فيه فانمـا القصد اثبات ان لهذه الكتب آثاراً سيئة على العلم لا انها وحدها دون غيرها هي السبب فيه كله

هـذا ولو انا نعلم ان في تـكتم الانسان عيوب نفسه ومبالغته في سترها عن أعـين الناس مصلحة له لبالغنا في كتمان هـذه الحقائق ولحرصنا على سترها ولكن المعلوم ان العيوب اذا تركت ولم ينظر في ازالتها رسـخت فـكانت ملـكات واذا انتهت الى مثل هذا الحال صار زوالها ضربا من المحال ٠٠ وليس من علاج لعيب خيرا من افشائه بين الناس فان المتصف به اذا رأى نفسه مشهوراً به بين الناس والناس مجمعون على استقباحه أخذ نفسه بالتنازل عنه أو عن بعضه

على ان كثـيرا من قليلي الشعور يظنون ان حالة العلوم في البلاد الاسـلامية حسنة وهي بحيث يمكن اجتناء ثمـرها منها وانها في مصر كأحسن ما يمكن ان تكون حسنا واسـتقامة حال وان التعرض لاصلاحها سعي في افسادها فان اصلاح ما هو صالح في ذاته افساد له لا محالة ٠٠ ومن الناس من يشعر بسوء حالة العلوم في عامة الممالك الاسلامية سيما في مصر ولـكنه لا يدري ماهو ذلك الفساد الذي نزل به ولا كيف يمكن عـلاجه كالرجل الذي ليس له معرفة بالطب يرى

المريض ملقى على فراشه يعالج سكرات الموت فيعلم علما جازما انه مريض لما يشاهد من آثار المرض عليه ثم هو مع ذلك ان سأل عن مرضه ذلك وعن العلاج الذي يمكن استنقاذه به من مخالب هذا المرض الذي اعتراه لم يستطع عن أحدهما جوابا: فكان غرضنا من ذكر هذه الحقائق اقناع الاولين بسوء حالة العلوم الدينية في الممالك الاسلامية مصر وغيرها وافهام الآخرين حقيقة ذلك المرض الذي يشاهدون اعراضه على جسم العلوم الدينية وذكر الدواء الشافي من هذه الادواء رجع

وأما طلبة العلوم الدينية من الشافعية فيقرأون من كتب مذهبهم شرح ابن قاسم الغزى على متن القاضي أبي شجاع بحاشية البرماوى ثم شرح الخطيب الشربيني عليه ثم شرح التحرير بحاشية الشيخ عبد الله الشرقاوى ثم شرح المنهج بحاشية البناني

هذه الكتب أكثر تداولا في أيدي طلبة العلوم الشافعيين وهي في بعض البلاد كمصر ضربة لازب لا يسع الطالب ترك حضورها لعدم وجود غيرها عندهم وأقل مدة يمكن بها الطالب استيعاب هذه الكتب قراءة عشر سنوات

فأما شرح ابن قاسم فهو شرح حسن لا بأس باقراء التلميذ اياه في أول سني تعلمه ولكن حاشية البرماوى عليه لا خير فيها .. فانها على

كونها كسائر مؤلفات المتأخرين من شروح وحواش ليست فى علم
من العلوم المدوّنة وانما هى في ابحاث لا تصح نسبتها الى نوع من
أنواع العلوم وفى عباراتها اغلاق وغموض يبهمان المراد على الطالب
المتمكن فى العلم فضلا عن الضعيف فيه ففى اشغال الطالب بها تعريضه
الى الضلال فى عباراتها وتضييع له فى مجاهل اشاراتها : وأما شرح
الخطيب فهو خيرما يقرأ من كتب هذا الفن لبسط فى عباراته وسهولة
فى تراكيبه الا أن أهل العلم من الشافعية يقولون ان فيه شيئاً كثيراً
من الاحكام الضعيفة والفروع الواهية فلا بد لمقرئه وقاريه من النظر
معه فى شيء من حواشيه ليتميز عند الناظر صوابه من خطأه وغثه من
ثمينه .. فان كان ما يقولون حقاً تعين عليهم تركه والمصير الى غيره
من الكتب الموثوق بها وبمؤلفيها فاشتغالنا باصلاح فساد نفوسنا ورفع
آفة الجهل بعلم ديننا عنها خير من الاشتغال باصلاح فساد الخطيب
وغير الخطيب .. والجدار المائل الذى لا يحتاج اليه الانسان بوجه
من وجوه الحاجة لاستغنائه عنه بغيره فخير من ترميمه نقضه لأن فى
نقضه مصلحة وهي دفع أذى سقوطه على أحد ولا مصلحة فى ترميمه
لعدم الحاجة اليه .. وأما شرح التحرير لشيخ الاسلام زكريا
الانصارى وحاشيته للشيخ عبد الله الشرقاوى فأما الشرح فلو لا ضيق
فى عباراته واغلاق فيها وشدة ايجاز يبهم المعني ويشتت أفكار المعلم

والمتعلم لم يكن به بأس :وأما حاشيته فيكفيك فى بيان درجتها معرفة ان مؤلفها من متأخر متأخرى فقهاء المصريين والحاشية فيها من كل شيء عدا الفقه اللهم الا بعض صور تخيلية يستحيل وجودها خارج الاعيان تخيلها المحشى موجودة فصار يبحث لها عن حكم شرعى يطبقه عليها والعجب كل العجب اهمال ذكر أحكام حوادث الفتيا التى تغدو على الناس وتروح والاشتغال بذكر أحكام حوادث خيالية يستحيل وقوعها خارج الأعيان .. وأما شرح المنهج وحاشية البنانى عليه فأما متن الكتاب وهو المنهج فانه مختصر من مختصر الى ما شاء الله والشرح كذلك فهما من الاحاجى والالغاز .. ولما كانا بهذه المثابة وكانت الهمة فى مصر مصروفة الى تعلمه وتعليمه كان كل من قرأه من العلماء كتب عليه ما شاء الله ان يكتب فلما جاء البنانى ووقف على نسخة شيخه الصبان فوجد حواشيها مملوءة بالحواشى جرد تلك الحواشى وجعل هذا المزيج حاشية على شرح المنهج ثم طرحها الى تلامذته الذين طرحوها الى المطابع المصرية فطبعت منها الوفا مؤلفة من النسخ ثم طرحتها الينا نقرأ منها ما لا يُفهم ونفهم ما لا يُعقل ونعقل ما لا يفيد

فصل ـ ومتأخرو المؤلفين معذورون فيما ألفوا من هذه الكتب لأنهم لما حرصوا على استبقاء ذكرهم في دفاتر مؤلفى الاسلام

والنفس أحرص ما تكون على خلود الذكر بعد الممات وانتشاره في الحياة ولم يكن عندهم من العلوم ما يؤهلهم للوقوف في مصاف متقدمي المؤلفين وكانت العلوم قد فرغ من تأسيس قواعدها وتهذيبها وتنقيحها ولم يبق في الوسع الحاق شيء بها له نوع مدخلية فيها ولا اصلاح شيء منها فات المتقدمين اصلاحه عمدوا الى كتب المتقدمين فلخصوها ثم خلف بعدهم خلف آخر فلخصوا تلك الملخصات حتى صارت كل مجلدة من مؤلفات المتقدمين في أوراق قليلة فكانت هذه هي المتون وكل يزعم انه انما حمله على ذلك قصور همم الناس عن التطلع الى المطولات وليس كما زعم وانما حمله على ذلك حب الشهرة واستبقاء الذكر

ثم رأوا ان هذه المختصرات التي نحتوها من تلك المطولات قد صارت من الاغلاق والخفاء بحيث لا يمكن فهمها وبطل الغرض المقصود منها فعمدوا الى شرحها ليتسنى لمن ينظر فيها ان يفهم شيئاً من معانيها فكانت هذه الشروح كمفاتيح لرموز تلك المتون ثم رأى قوم آخرون ان هذه الشروح غير كافية في المطلوب أيضاً لغموض عبارات الشروح من جهة ولعدم توفيتها بالمقصود من جهة أخرى فوضعوا على الشروح حواشي لايضاح مبهمها وتكميل ناقصها فوقعوا في شر مما فروا منه ومن المقرر ان الشيء اذا خرج عن حده انقلب الى ضده فهؤلاء بالغوا

في اختصار المطوّلات حتى صاروا الى ما هو أطول من المطولات على انها لا تساويها في استيعاب فوائد العلوم المدونة فيها

فانحل بشيوع هذه المؤلفات بين أيدى المتعلمين نظام العلم وذهب رونقه وأظلم مشرقه وتلاشى واضمحل حتى عفت آثاره ودرست معالمه وأصبح كأن لم يكن شيئاً مذكورا

ثم نشأ بعد تلك الطبقات طبقة أخذوا معلوماتهم عن هذه المؤلفات الرديئة فلم يحظوا من العلوم بطائل ولا بلوا بمائها لهواتهم وان لقبوا بالعلماء فى عصرهم ونشأت فيهم ناشئة الحرص على استبقاء الذكر فألفوا مؤلفات رتب معانيها وألف ألفاظها استعدادهم الذى استفادوه مما قرأوه من تلك الكتب وانتشر ذلك عنهم بين أيدى الناس فأكثر ما ترى اليوم من الكتب فهو من آثار أولئك الذين نصف لك حالهم فى تعليمهم وتأليفهم

فصل ـ فاذا كان هؤلاء معذورين بما بسطناه آنفا فأى عذر لنا نحن فى أخذ كتبهم والعكوف عليها بعد أن علمنا انها مضرة للعلم قاطعة عنه أوَ ليست مضرة كما يقول عُبّادها لكن في مؤلفات اسلافنا ما هو خير منها وأسهل وأقرب تناولا

وقد تتبعنا حجج الناصرين لهذه الكتب المتداولة بيننا والذابين عنها فوجدناها لا ترجع الى محصل ولا تنتهى الى شيء يمكن الارتكان

عليه فى نصرتها ورفع شأنها ووجدنا ان كل ذلك يدور على شىء واحد وهـو المحافظة على العوائد القديمـة والمألوفات الموروثة مهـما كانت رداءة وانحطاطا .

فصل ـ ومن أقبح آثار هذه الـكتب وأشدها ضرراً انها تضعف الفكر وتفسد العقل وتقلل الادراك وتقضى على الشعور ومن أغرب ما رأيت من قبيح آثارها انه .. أقيم احتفال فى بعض السنين فى الجامع الازهر بجلوس سموى خديوى مصر الحالى على أريكة الخديوية فحضر ذلك الاحتفال شيخ الاسلام وقاضى مصر المرحوم فمن دونهما ممن ينسب الى العلم وجم غفير من ذوات مصر

ولنا اذ ذاك صديق بمصر من أدباء الاتراك وذوى الفضل فيهم فسألناه ان يزور معنا الازهر لحضور هذا الاحتفال وكنا نظن أننا سنباهيه بهذا المجمع الذى لا يتفق مثله فى بلادهم

فلما حصلنا فى الازهر حيث أقيم الاحتفال وتكاملت وفود الناس من سائر الطبقات قام أحد كبار علماء الازهر فتلا على الحاضرين ورقـة ملخصها انه فى ليلة كذا (لليلتنا تلك) احتفل شـيخ الجامع الازهر ومدرسوه وطلبته وجم من ذوات مصر وأعيانها بعيد جلوس سمو الخديوى المعظم على أريكة الخديوية السامية احتفالا جامعاً لمظاهر الابهة والجلال والحسن والكمال وختم الاجتماع بالدعاء للسدة الملوكية

والحضرة الخديوية وبعض ذلك لم يكن حصل إذ ذاك

نظرت الى رفيق التركى فرأيته قد طبق أجفانه كأنه نائم .. فقلت أظن ان المجلس قد طال عليك ونالك من السآمة والملال ماجعل للنعاس عليك سبيلا .. فقال كلا .. وانما أطبقت أجفانى لئلا أرى بعيني ما أسمعه بأذنى فأضيع على الخطيب فائدة الخبر

فداخلنى من الخجل ما لم أملك دفعه ولم أجد عذراً أقدمه عن الشيخ الخطيب ثم علمت بعد ذلك ان قوما اعترضوا على الشيخ بمثل ما اعترضنا به فكان من اعتذاره انه كان أعد تلك الخطبة ليقوم بها بين يدى الجناب الخديوى بعد احتفال أهل الازهر ليطلع سموه على مكانته فى قلوب الازهريين واتفق ان الجناب الخديوى سافر قبل احتفال أهل الازهر لجهة أو كان مسافرا ولم يحضر فقام الشيخ خطيباً بها بين الازهريين يخبرهم بما كان منهم ويفترى عليهم شيئاً لم يصدر عنهم

أفترى ان هذا الشيخ لو كان تلقى الفنون التي يتداولها أهل الازهر من كتب العقلاء كان يصدر عنه شيء من هذا الذى حكيناه عنه ولكنه عوّد فكره على شيء فاعتاده والعقل قوة من القوى كالجوارح وعمله كأعمالها فكما ان الجوارح اذا عودت على خسيس الأعمال كالسرقة اعتادته وألفته حتي ما تقلع عنه ولم تمتد الي صالح

فكذلك العقل اذا انتقشت فيه العقائد الفاسدة والمعلومات الرديئة أظلم وصدأت مرآته حتى ما يرتسم فيه شيء ينفع

❊ علم الحديث وتوابعه ❊

هذا العلم أحد أركان الدين على ما قدمنا من القول وفائدته كفائدة علم التفسير وكل ما قيل فى علم التفسير يقال فيه سواء بسواء

وهذا على ما علمت من أهميته شقيق علم التفسير في قلة العناية به والالتفات اليه كما كان شقيقه فى حاجة المسلمين اليه وفي توقف الدين عليه لأنه أحد أركانه التى يقوم عليهما

فليس في المدارس الاسلامية كافة من ينظر فى كتب هذا الفن أو شئ من توابعه .. فعلم ناسخ الحديث ومنسوخه على شدة الحاجة اليه وتوقف الاحكام عليه لا يوجد له ذكر أصلا بين طلاب العلوم الشرعية .. وعلم رجال الحديث المسمى بعلم الجرح والتعديل كرفيقه لا يوجد له ذكر أصلا مع ان الاحاديث لا يعلم كونها مقبولة أو مردودة الا بعد معرفة أحوال رواتها وعلم مصطلح الحديث الذى به تعرف مراتب الاحاديث من صحة وحسن وارسال وضعف وانقطاع واعضال وشذوذ وغير ذلك مع معرفة أحكام كل مرتبة من هذه

لمراتب ان وجد في بعض المدارس الاسلامية فوجوده ضعيف لا يكفي
في الغرض المطلوب منه ولا يفيد الفائدة التي دوّن من أجلها

وقد يظن بعض الناس ممن يتعاطى النظر في العلوم الشرعية انه
قد وقعت الغنية عن علم ناسخ الحديث ومنسوخه بتدوين كتب الفقه
والفراغ منها والوصول بها الى حيث لا يحتاج الانسان للتطلع الى
كتب الاحاديث وعن علم رجال الحديث بتدوين المسانيد والمصنفات
والجوامع وعن علم مصطلح الحديث بذكر مراتب الحديث في
بعض الكتب

كل ذلك خطأ ولده قلة العناية بأمر الدين وما هو مقصود بالذات من
العلوم والاشتغال عنه طول العمر بعلوم المبادى التي هي انما تقع منه
موقع الوسائل من المقاصد أو علوم الاوهام والخرافات التي يشتغل بها
الانسان عمره ثم لا يعرف لها نتيجة ولا يستفيد منها فائدة

فأما قولهم انه قد بطلت الحاجة الى علم ناسخ الحديث ومنسوخه
بتدوين كتب الفقه .. فكتب الفقه وان كثرت فيها الفروع والاحكام
لم تستوعب كل ما جاء في الاحاديث لعدم اطلاع كل واحد من
الأئمة المجتهدين على كل ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من
حديث .. ثم ان الاحاديث ليست كلها في التشريع وبيان الاحكام
الفرعية العملية بل منها ما هو في العقائد ومنها ما هو في الاخبار عن

حوادث المستقبل ومنها ما هو في الاخلاق ومنها ما هو في شرح السعادة الدنيوية ومنها ما هو في شرح السعادة الاخروية والشقاء الاخروي ووصف نعيم الدار الآخرة وعذابها وشقائها الى غير ذلك مما لا يكاد يدركه الحصر ولا يستوعبه العد .. وبعض هذا الذى ذكرنا يقع فيه النسخ فتكون الحاجة ماسة لمعرفة تواريخ الأحاديث وأحكامها عند التعارض

ومما ذكرناه أيضاً تعلم شدة الحاجة الى علم رجال الحديث فان كتب الصحاح لم تستوعب كل أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما نقل كل واحد منها ما سمعه ورواه وصحت طرق روايته عنده وبقيت وراء ذلك أحاديث صحيحة لم تدون في الصحاح وفيها من الاحكام والفوائد ما لا غنية بنا عنه ولا يمكن الوثوق به الا بمعرفة حال رواته ودرجاتهم في العدالة والضبط في الرواية .. وكذلك مراتب الأحاديث لم تبين كلها في كتب الاحاديث فما زالت الحاجة ماسة للكشف عنها ومعرفتها

على ان هذه العلوم على كونها من أجل العلوم الشرعية فائدة وأكثرها عائدة فهي أقل العلوم قواعد وأنذرها ضوابط والانسان في وسعه تلقيها في أيسر زمن وفي المراجعة في كتبها بعد ذلك الوصول الى المقصود منها وانها لو قيست بعلم من هذه العلوم التي يفني

طلاب العلوم الشرعية أعمارهم فى تحصيلها على غير فائدة فيها لم تحتج الى عشر معشار ما تحتاج اليه هذه العلوم الآلية من الزمان

ولكن ذهب زمان العلوم الشرعية النافعة التى هي أساس الدين الاسلامى وانقرضت دولتها فهجرها حتى من ينتسب اليها وتوجهت نحوها سهام الطاعنين واعتراضات الناقدين وصار أمسّ الناس بها رحما أكثرهم لها قطيعة .. ولقد رأيت شيخا من شيوخ العلم بمصر وقف على أحد باعة الكتب يشترى منه كتابا من كتب الحكايات الأدبية فلما أخذ الكتاب وجد فيه على زعمه بيتا لاحد الشعراء مختل الوزن فمد لسانه على البائع تأنيباً ولوماً وكان فيما قال له (يا أستاذ ان هذا من الكتب الادبية وليس من الكتب الفقهية فتتساهلون في أمر تصحيحه) فانظر كيف جعل هذا الشيخ الازهرى افساد كتب الحكايات والاشعار فوق إفساد كتب الفقه مع ما في إفساد كتب الفقه من تحليل الحرام وتحريم الحلال

وهذا أيضاً هو سبب استنكار الناس أحوال المحاكم الشرعية في الممالك الاسلامية وإكثارهم من الاعتراض عليها وعلى سيرها وقوانينها والحاحهم في طلب اصلاحها وقلب نظاماتها على ان المحاكم الشرعية فى كل مصر من الامصار كحال المحاكم النظامية فى ذلك المصر سواء بسواء وكل ما قد يوجد من اختلال فى المحاكم الشرعية يوجد

مثله بمثل كميته فى المحاكم الأخر الا ان المحاكم الشرعية مظلمة بادبار الايام عنها وتلك مشرقة باقبال الايام عليها فلذلك يستنكر الناس من أمر الأولى مايستحسنون من الثانية والكمال البشرى ماوُجد وان يوجد والانصاف فى الناس قليل والاعتدال نادر وقل ان تجد مادحا أوقادحا الاوقد ركب متن الشطط واعتسف

وربما حملك ما تسمع من كثرة اللغط فى الشرع والشرعيات والاسلام والمسلمين على الظن بان محبى الشرع والاسلام كثيرون والراغبون فى رجوع الاسلام الى مثل حاله الأولى وخروجه عن هذه الوهدة وليس كذلك بل مصدر أكثر هذه الاقاويل أمران محبة التقاليد الجديدة واستحسان ما استحسنته واستقباح ما تستقبحه ومن ذلك تقاليد الدين الاسلامى الذى كان رغماً للمعاطس والثاني المحافظة على التقاليد القديمة عن الآباء الموروثة لما فى خروج النفس عنها من المشقة عليها وان علمت ان الحق فى ضدها فراراً من وصمة الاتصاف بما ليس بحسن فنتنج لهؤلاء الناس فى اجتماع هاتين المحبتين في قلوبهم الميل الى الجمع بين التقاليد القديمة والحديثة بتصوير الأولى بصورة الثانية وادعاء انها لا تخالفها وان كان قد حصل للصورة الأولى بعض تغيير فمن آثار المتلاعبين حرصاً على عدم تفويت أحد المحبوبين

ولذلك كنا نساء مما يسر به كثير من الناس من هذه النهضات

التي يظنون انها بعض الوسائل لترقي الاسلام ورجوعه الى مثل ماكان في القرون الاول .. ونحن نرى انها سير الى هدم البقية الباقية من ابنية الدين من طرق أقرب من الطرق التي كان يسلكها المسلمون من عدة قرون غبرت

فالطرق القديمة طريقة المحب الجاهل الذي ربما أضر من حيث يريد النفع وربما اتفق له النفع والطرق الحديثة طرق العدو العاقل البصير الذي يري ان حياته بموت هذا الدين أخذناها عنه ونهضنا للعمل بها

فما أشبه هذا الدين بين أيدينا كلنا معاشر المسلمين من مظامين ومتنورين بجدار لقوم حدث فيه وهن وثلوم فتركه أهله وأعرضوا عن رأب صدعه واصلاح ثلمه وسد خرقه قبل اتساعه وما زال كذلك في وهن وتلاش حتى صار بحيث يخشي سقوطه فاجتمع أهله ينظرون في إصلاحه فقال قوم انه ثابت مكين لا بأس عليه ولا يمكن سقوطه وقال آخرون ان عوامل الفساد قد لعبت في أساسه على وهن فيه فأضعفت الجدار فليس من طريقة لاصلاحه غير هدمه ونقض أساسه ثم إعادته على شكل آخر نأمن بعدها سقوطه علينا وطال نزاعهم في ذلك فأي فريق من الفريقين فرض غلبته الآخرَ على أمره فالجدار مهدوم لا محالة وليس الرأي إلا في ترميمه وكف عوامل

الخراب عنه لا في تركه على حاله ولا في نقضه وإعادة بنائه

ولولا ان هذا ليس من موضوع كتابنا لأشبعنا الكلام عليه ولوفيناه حقه من الايضاح والبيان وربما عقدنا لذلك مقالا على حدة بينا فيه سوء آثار هذه النهضة على الاسلام وبينا كيف ينبغي ان تكون النهضة وما الذى ينبغي ان يحرص عليه

هذا مقدار عناية طلاب العلوم الشرعية بعلوم الأحاديث النبوية وبعض الناس لهم عناية بمتون الحديث الا أنهم جعلوا الغاية من هذه الكتب التبرك بها وبرواتها فحظهم سماع ألفاظها دون فهم معانيها التي قيلت للدلالة عليها والله المستعان على ذلك وليس ما كل ما يعلم يقال

أما كتب هذا الفن المتداولة بين الناس فهي جيدة لا ينقصها الا الانتفاع بها وحسبك بكتب الصحاح الست ويمكن للانسان ان يستثني منها مؤلفات السيوطى كالجامع الصغير ومختصراته فقد علمت مما سبق ما فيها من ضعيف وموضوع من الاحاديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وشراح الجامع الصغير لم يوفق الله أحداً منهم لتخريج أحاديثه وبيان صحيحها من سقيمها ومن لنا بمن يحذر المسلمين من تداول هذا الكتاب الذي لا يتميز فيه حق من باطل .. أو ليس من الغريب ان يكون اعتناء طلبة العلوم الشرعية بهذا الكتاب فوق اعتنائهم بالبخارى وشروحه على انه أصح الكتب المصنفة في الحديث

ومن خير شروح البخارى المتداولة بين الناس شرح ابن حجر العسقلانى عليه أما شرح العيني فأكثره حشو وزوائد لا تجدي ولا تفيد ولو ان مؤلفه اقتصر على قدر الخمس من كتابه هذا لكان أوفر له وانظرَ للناظر فى كتابه ولكن جرت عادة أكثر المتأخرين بالتوسع فى التأليف والاكثار من الكلام فيها بكل غث وثمين وبما يناسب ومالا يناسب رغبة فى تكبير حجم الكتاب وزيادة عدد كراريسه .. وجاء القسطلانى بعدهما فأخذ من شرح ابن حجر أظهر مسائله فجعل منها شرحه على البخارى ووسع فى حجمه بتكرير ضبط أسماء الرواة حيثما وردوا وهو على علاته خير من شرح العيني وأقرب تناولا

ومن كتب الحديث كتب الرقائق (المواعظ) كدرة الواعظين وتنبيه الغافلين وتنبيه المغترين وموعدنا بالكلام على هذه الكتب وبيان مفاسدها وآثارها السيئة على الدين القسم الثانى من هذا الكتاب وهو قسم الارشاد فانها بذلك القسم أمس وأكثر تعلقا ولأنها وان كانت كما يستعملها العامة يستعملها طلبة العلوم الشرعية الا أن استعمالهم اياها فى حلق دروس الوعظ لا فى المدارس المؤسسة لتعليم علوم الدين

﴿ علم التوحيد ﴾

اختلفوا فى موضوع هذا الفن اختلافا كثيراً لا يكاد يحصى ولا يحصر فالمتقدمون من المتكلمين جعلوا موضوعه ذات البارى جل شأنه من حيث اتصافه بصفات الكمال وتنزهه عن سمات النقص وعن أفعاله فى الدنيا من خلق العالم جواهره وأعراضه وارساله الرسل وأفعاله فى الآخرة من بعث الناس ومجازاة المحسن باحسانه والمسيء باساءته ثم اتسع الموضوع فما زال في اتساع حتى جاء فخر الدين الرازى ومن أخذ عنه فقالوا ان موضوعه المعلوم من حيث هو معلوم ! وفائدته ارشاد المسترشدين وردشبه المفسدين فى الدنيا والفوز بالسعادة الباقية في العقبي على ما يقول أهله فى كتبهم

ونحن نبين هنا بعون الله وتأييده ان هذا العلم من العلوم المضرة وانه يجب تركه والاعراض عنه كلية وانه يضاد ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده ونرتب الكلام فيه على ثلاث مقالات (المقالة الأولى فيما) ورد عن سلف الامة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين وتابعى التابعين وهم أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بانهم في الدين خير ممن بعدهم من أهل سائر القرون من ذم هذا العلم والنهي عن الخوض فيه والتحذير منه (المقالة الثانية) فى ذكر شيء من مقالات المتكلمين وبيان ما فيها من الفظاعة والمخالفة لدين الاسلام

ونختم هذه المقالة بفصل نبين فيه ان أكثر هذه الأقاويل والمذاهب التى ظهرت بين المتكلمين وانتشرت عنهم سببها التعصب وانتصار كل واحد منهم لطريقته فان كانت تؤدى الى لوازم فاسدة التزمها ولم يتنازل عن رأيه الأول (المقالة الثالثة) في بيان طريقة السلف فى العقائد الدينية ومتشابهات القرآن : سالكين فى هذا كله طريق الايجاز والاختصار فانا لو أردنا ان نبسط الكلام على هذه المواضيع الثلاثة التى فتحنا باب الكلام عليها ونوفيها حقها من الشرح والبيان لخرجنا بالقارئ من فضاء الراحة الى ضيق السآمة والضجر .. على أن فى هذا الايجاز بلاغا الى ما قصدنا اليه من الوقوف بالقارئ على ضرر هذا العلم وسوء تأثيره على الاسلام والمسلمين

وعلينا لقارىء كتابنا صدق الحديث وتحرى الحقيقة وترك الاعتساف ولنا عليه في كل ما كتبناه ولا سيما في هذا الموضوع ان لا يعجل بالاعتراض علينا اذا لاح له اعتراض قبل استيفاء البحث واجادة التأمل وان ينصفنا من نفسه ويخرج لنا عن عاداته كما أنصفناه من نفسنا وخرجنا له عن عاداتنا وان يظن بنا خيراً فيما عسى ان يضل به الفكر ونفقد فيه الصواب والله لنا وله خير حسيب

﴿ المقالة الأولى ﴾

(في ذكر ما ورد عن السلف الصالح من ذم هذا العلم والتنفير عنه)

روى ان قوماً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم خاضوا في البحث عن القدر وسألوا عنه فقال عليه السلام فبهذا أمرتم وقال انما هلك من كان قبلكم بكثرة السؤال أولفظ هذا معناه فلم يرض صلى الله عليه وسلم من أصحابه الخوض فيما كتب فيه المتكلمون أهل الكلام على اختلاف آرائهم مجلدات كثيرةوزعموا انهم يتقربون بذلك الى الله تعالى ويتحرون ما فيه رضاه ورضا رسوله

وفي حديث مسلم ان رجلا من أهل مصر يسمى صبيغا دخل على عمرو بن العاص وهو بمصر يسأله عن معنىقوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) فقال له ليس عندى علم ذلك وانى مرسلك الى من عنده علم ذلك فأوفده الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكتب اليه معه كتابا يقول فيه يا أمير المؤمنين ان هذا الرجل يسأل عن متشابه القرآن فلما قدم صبيغ على أمير المؤمنين عمر وقرأ كتاب ابن العاص غضب حتى استبان ذلك في وجهه وعلاه بالدرة فما زال به حتى قال له يا أمير المؤمنين لم يبق والله فى رأسى شيء مما حدثت به ثم نفاه الى البصرة وأمر ان يهجر سنة فلا يكلم فلم يكن جواب مسألته عند عمر رضى الله عنه غير ضربه ونفيه وأمر الناس بهجره ولو أن فيما أجاب به أهل الكلام المبتدع بتفسير استوى باستولى خيرا لأجابه عمر به واحتج له بألف بيت كبيت

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

ولكنه رأى ان نفس السؤال تشويش في الدين ولا يقع الجواب عنه الا بالدرة

وفى كتاب الجام العوام لابي حامد الغزالى ان رجلا جاء الى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يسأله عن القرآن أهو مخلوق أم لا فتعجب عمر من قوله فأخذ بيده حتى جاء به الى على بن أبي طالب رضى الله عنه فقال يا أبا الحسن استمع ما يقول هذا الرجل قال وما يقول ياأمير المؤمنين قال الرجل سألته عن القرآن أهو مخلوق أم لا فوجم لها رضى الله عنه وطأطأ رأسه ثم رفع رأسه وقال سيكون لكلام هذا نبأ فى آخر الزمان ولو وليت من أمره ماوليت لضربت عنقه .. وروى أحمد بن حنبل هذا عن أبى هريرة قال أبو حامد فهذا قول على بحضور عمر وأبى هريرة رضى الله عنهم ولم يقولا له ولا أحد ممن بلغه ذلك من الصحابة ولا عرف على رضى الله عنه فى نفسه ان هذا سؤال عن مسألة دينية وتعرف لحكم كلام الله وطلب معرفته لصفة القرآن الذى هو معجزة دالة على صدق الرسول بل هو الدليل المعرف لاحكام التكاليف فلم يستوجب طالب المعرفة هذا التشديد فانظر الى فراسة على واشرافه على ان ذلك قرع لباب الفتنة وان ذلك سينتشر فى آخر الزمان الذى هو موسم الفتن ومظنتها بوعد رسول

الله صلى الله عليه وسلم وانظر الى تشديده وقوله ولو وليت لضربت عنقه .. فمثل أولئك السادة الاكابر الذين شاهدوا الوحي والتنزيل واطلعوا على أسرار الدين وحقائقه وقد قال صلى الله عليه وسلم في الاول لو لم أبعث لبعث عمر وقال فى الثانى أنا مدينة العلم وعلى بابها يزجرون السائل عن مثل هذا السؤال ثم يزعم من بعدهم من المشغوفين بالكلام والمجادلة وممن لو انفق مثل أحُد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه ان الحق والصواب قبول هذا السؤال والخوض فى الجواب وفتح هذا الباب ثم يعتقد فيه انه محق وفى على وعمر انهما مبطلان هيهات ما أبعده عن التحصيل وما أخلى عن الدين من قاس الملائكة بالحدادين ورجح المجادلين علي الأئمة الراشدين والسلف انتهى كلام أبي حامد الغزالى

ودخل رجل على مالك بن أنس يسأله عن قوله تعالي (الرحمن على العرش استوى) فقال فى جوابه الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة .. ودخل أبو حنيفة على ابنه حماد وهو يناظر رجلا فى القدر فزجره وقال اياك ان تعود الى مثل هذا والخوض فيه مرة ثانية : ودخل عليه بشر المريسي يناظره فى الكلام فانتهره وقال له اخرج عني يا كافر: وروى أبو يوسف قال كنا جلوسا عند أبى حنيفة اذ دخل جماعة فى أيديهم رجلان فقالوا ان

هـذين يقول القرآن مخلوق وهـذا ينازعه ويقول هو غير مخلوق قال لا تصلوا خلفهما قال أبو يوسف قلت أما الأول فنعم لانه لا يقول بقدم القرآن وأما الآخر فما باله لا يُصلى خلفه فقال انهما يتنازعان فى الدين والمنازعة فى الدين بدعة :ونقل الزاهدى فى كتاب التلخيص عن أبي حنيفة انه كان لايجوّز الصلاة خلف المتكلم يرى انه مبتدع وعنه من رواية أبي يوسف من طلب العلم بالكلام تزندق ومن طلب المال بالكيمياء افتقر ومن طلب غريب الحديث كذب

وقال الامام الشافعى حكمى فى أهل الكلام ان يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهـم فى العشائر والقبائل ويقال هـذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على كلام أهل البدعة .. وقال

كل العلوم سوى القرآن مشغلة الا الحديث وإلا الفقه فى الدين
العـلم ما كان فيه قال حـدثنا وماسوى ذاك وسواس الشياطين

ومن كلامه أيضاً لان يلقى العبد الله بكل ذنب خـلا الشرك خير له من ان يلقاه بعلم الكلام .. وقال لقد اطلعت من أهل الكلام على شئ ما ظننت مسلما يقوله .. وقال اذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غـير المسمى فاشهد بانه من أهـل الكلام ولا دين له .. وقال أيضاً لو علم الناس ما في هذا الكلام من الاهواء لفروا منه فرارهم من الاسد

وعن أحمد بن حنبل أنه قال علماء الكلام زنادقة .. وقال لا يصلح صاحب الكلام أبداً ولا تكاد ترى أحدا نظر فى الكلام الا وفي قلبه دغل وقد بالغ فيه حتى هجر الحارث بن أسد المحاسبي مع زهده وورعه حين ألف كتاباً فى الرد على المبتدعة وقال له ويحك ألست تحكي بدعتهم أولا ثم ترد عليهم .. ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر فى الشبهة فيدعوهم ذلك الي الرأى والبحث والفتنة .. الى غير ذلك من أقوال الائمة مما لو أردنا نقله لاتسع مجال المقال

فصل ـ واذا كنت لا تقنع بما نقلناه لك من قول عمر وعلى وأبى هريرة وأئمة الدين أصحاب المذاهب المتبعة المشهود لهم بالصلاح وتحرى طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتأولت لذلك التأويل التى تراها فى كتب علم الكلام فأنا أنقل لك من أقوال علماء الكلام ممن وفقه الله قبل موته الى ترك هذا العلم الممقوت والرجوع عنه الى طريقة السلف بعد ان اشتغل فيه زمنا طويلا وألف فيه كتبا كثيرة ما يثلج به صدرك وتحس به ببرد الحق ان شاء الله

فهذا أبو الحسن الاشعرى امام المتكلمين فى عصره وشيخ أهل السنة والجماعة رجع فى آخر عمره عن كل معتقداته التى أخذها من علم الكلام وذكر فى كتابه الابانة وهو آخر مؤلفاته انه رجع فى عقائده الى مذهب أحمد بن حنبل رضى الله عنه الذى هو مذهب

الصحابة والتابعين

فما أجدر هؤلاء الذين ينتسبون اليه في عصرنا وينتحلون عقائده ويقتدون به ان يرجعوا الى مثل ما رجع اليهم امامهم ويطرحوا كتب البدع والخرافات بعد ما تبين لهم من رجوع امامهم عماهم عليه اليوم .. ولا يحملهم التعصب الباطل والتمسك بما وجدوا عليه أسلافهم على الوقوع في الاشعرى والطعن فيه لرجوعه بعد ما مكثوا زمنا يقتدون به ويحتجون بقوله كما فعل يهود خيبر بعبد الله بن سلام حين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عنه ولم يكونوا علموا اسلامه فقالوا هو خيرنا وابن خيرنا وعالمنا وابن عالمنا فلما أخبرهم باسلامه نقضوا مقالتهم آنفا وأكذبوا أنفسهم وقالوا هو شرنا وابن شرنا وجاهلنا وابن جاهلنا فشر الجهل ما أفضى الى مثل هذا التعصب الوخيم:

وأبو حامد الغزالى على كثرة اشتغاله بهذا الفن وكثرة مؤلفاته فيه انتهى به البحث الى التوقف والحيرة في المسائل الكلامية ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات والبخارى على صدره وقد نقلنا لك طرفا من كلامه فى ذم هذا العلم فى حديث عمر وعلى السابق .. وابن رشد الحفيد أطول الناس باعا فى هذا الفن واعلمهم بمذاهب الفلاسفة والمتكلمين ومقالاتهم قال فى كتابه تهافت الفلاسفة ومن الذي قال فى الالهيات شيئاً يعتد به

والآمدى أفضل أهل عصره وصاحب المذاهب المشهورة في الكلام توقف فى آخر عمره وتحير .. والامام فخر الدين الرازى على ماعلمت من حاله في هذا العلم قال فى كتابه الذى صنفه فى أقسام الذات

نهاية أقدام العقول عقال وغاية سعى العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى ان جمعنا فيه قيل وقالوا

وقال فيه ولقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ورأيت أقرب الطرق طريق القرآن اقرأ في الاثبات الرحمن على العرش استوى واليه يصعد الكلم الطيب واقرأ فى النفى ليس كمثله شئ ولا يحيطون به علما ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى .. وقال أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى يذكر حيرة هؤلاء الاقوام

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر الا واضعا كف حائر على ذقنٍ أو قارعا سنّ نادمِ

وقال امام الحرمين يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت ان الكلام يبلغ بى الى مابلغه ما اشتغلت به .. وقال عند موته لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الاسلام وعلومهم ودخلت فيما نهوا عنه فان لم يتداركنى ربى برحمته فالويل لابن الجوينى وها أنا ذا

أموت على عقيدة عجائز نيسابور وقال الخونجى عندموته ما عرفت مما حصلته شيئاً سوى ان الممكن مفتقر الى المرجح ثم قال الافتقار وصف سلبي أموت وما حصلت شيئاً .. وقال خسر وشاهى وكان من أجل تلامـذة فخر الدين لبعض من دخـل عليه ما الذى تعتقده قال الذى يعتقده المسلمون قال وأنت منشرح الصدر لذلك مسـتيقن به قال نعم قال إشـكر الله على هذه النعمة ولكنى والله لا أدرى ما اعتقد كررها ثلاثا وبكي حتى اخضل لحيته

وقال آخر اضطجع على فراشى واضع الملحفة على وجهي وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندى منها شئ ومن وصل به الحال الى مثل هذا تزندق ان لم يتداركه الله برحمته

وقد اتفق لى مثـل ذلك كثيراً حين كنت اشتغل بهذا العـلم الممقوت فـربما خرجت في حاجة أقضيها فاشتغل فكرى بالنظر فى هذه المسائل وتعرف الصواب فيها فما أشعر الا وأنا فى مكان بعيـد عن المكان الذى خرجت أريده وربما كان الوقت المناسب لقضاء تلك الحاجة قد فات فتعطلت علىّ مصالح نفسي بسبب كثرة اشتغال الفكر بهذه المسائل

واذكر انى وقفت يوم الصلاة المغرب أول ما أذن له وكنت قبل ذلك بأيام انظرّ فى بحث عـلم البارى من شرح جلال الدين الدواني

على العقائد العضدية الذي تحيرت فيه على ما يقول الجلال افهام العقلاء وانقسموا الى أربعة مذاهب فلما أحرمت بالصلاة عرض لى هذا البحث فما زالت مستغرقا بالنظر فيه واستقراء الاقوال وتبين الصواب فيها وأنسيت الصلاة حتى صاح المأذن للعشاء فانقشعت عني تلك السحابة وعادت الي الحواس فلولا انى على هيئة المصلى مستقبلا للقبلة لم أعرف ما الذى أقامنى هذا المقام لشدة اشتغال البال واستغراق الفكر فى هذا البحث العقيم

هذا قليل من كثير مما ورد عن الصحابة والتابعين وخيار الامة وأهل الاجتهاد ومن وفق للتوبة من أهل الكلام نقلناه فمن يرد الله به خيراً وفقه لترك هذا العلم ونبذ كتبه الممقوتة والتمسك فى الاعتقاد بظاهر كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما كان السلف الصالح ومن حرمه الله التوفيق أوقع فى قلبه هجر كتاب الله وسنة رسوله وحبب اليه التمسك باهداب المواقف والمقاصد وسائر كتب البدع والخرافات فى العقائد فتنة له فى دينه ثم ان ربك لبالمرصاد

واعلم ان ابن المعلم هازل بأصحابه والباقلانى أهزل

ومن أعجب العجب ان أهل الكلام المبتدع المذموم يقولون ان طريق السلف فى ترك النصوص على ظواهرها وعدم تأويلها أسلم فى الآخرة وأقرب للنجاة وطريقنا فى التأويل وصرف الالفاظ القرآنية

عن ظواهرها اعلم .. وان رجلا يفنى وقته ويقطع مادة عمره في ابحاث ربما مرق بها عن الدين وحقت عليه بها كلمة العذاب لمجرد ان يقال عنه ان قد سلك طريقة النظار وترك الالتجاء والتسليم لمخذول محروم من التوفيق ونعوذ بالله من مثل ذلك

﴿ المقالة الثانية ﴾

(في ذكر شيء من مقالات المتكلمين المخالفة لحقيقة الدين الاسلامي)

أهل هذا العلم والمكثرون من النظر فيه أحد رجلين رجل ساءته محاسن هذا الدين وسهولته وقربه من العقول وملاءمته للفطر وموافقته لافكار البشر كافة فهو يبدع مقالات في الزيغ والالحاد يشوه بها محاسن هذا الدين الحنيف السهل وينفر منه العقول الداعية اليه ويبعد عنه الفطر القريبة منه لينفر عنه من أقبل عليه وهجر ما سواه من الاديان لملاءمته للفطر وموافقته للعقول فهذا رجل ليس من أهل الدين وانما هو من أعدائه الذين ساءهم رقيه وانتشاره وأعجزهم الوقوف امام تياره الجارف فعمد للنكاية فيه باسمه ليتمكن مما يريد من ابنائه مع المحافظة على نفسه بجمهور من أهل الدين الذين كثيراً ما يشتبه عليهم الدين بما ليس منه .. وأكثر فرق المتكلمين من هذا القبيل ومن تتبع مقالاتهم علم صحة هذا الذي قلناه وسترى شيئاً منها فيما سيأتي من الكلام

والثانى رجل أراد ان يحقق للناس ماهيته ويشرح لهم كيفية الاتصاف به حتى لا تكون نسبة المنتسبين اليه نسبة اسمية خالية عن التحقق به والاتصاف بحقيقته نخرج به البحث عن الدين ووقع في شيء من الالحاد وهذا رجل حسنت نيته وساء عمله فطلب الدين لا من الجهة التى يطلب منها ودخل اليه من غير بابه وأصّل للوصول اليه أصولا لم يؤصلها الله ورسوله وهذا حال قليل من فرق المتكلمين الذين قضوا عمراً طويلا فى البحث فى العقائد واقامة الدلائل عليها والاكثار من الانظار فيها

وقد ظهر لكل فريق من الفريقين مقالات شنيعة فى الاسلام تخالف حقيقة الدين الاسلامى أدى اليها الزيغ وسلوك صراط غير مستقيم في الوصول الى حقيقة الدين وكل فريق يزعم ان مقالته هي الاسلام وان الخروج عنها كفر أو فسق وانتشر ذلك بين الناس وتعصب لكل فريق قوم أخذوا بقوله وانتموا اليه وقبلوا كل ما جاء فى قوله من حق وباطل وضاعت حقيقة الدين بين جماهير تلك الأقوال الباطلة لقلة من ينشرها وينوه بذكرها بين الناس حتى لقد يؤلف مؤلف كتابا في مقالات أهل الاسلام فيذكر كل مقالة حدثت فى الاسلام ويغض عن المقالة الصحيحة في الاسلام مقالة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الامة الصالح كأنها وهى الاسلام نفسه لا تضارع فى

نظره أشنع مقالة من المقالات التى ذكرها فى كتابه وأشتغل فى البحث عنها زمنا طويلا

ونحن انما قصدنا الذكر شىء من هذه المقالات الشنيعة لننبه أفكار المسلمين الى مقدار ما دخل فى الدين من الوهن المعنوى بسبب هذا العلم المشؤم ولنستلفت أنظارهم الى وجوب ترك هذا العلم الذى يحرصون عليه ويفنون فى الاشتغال به أعمارا طوالا وليس من فائدة فيه غير زعزعة أركان الدين ونقض أساسه

﴿ قولهم فى البارى جل شأنه ﴾

قال قوم من أهل الكلام ان البارى جل شأنه وتعالى عما يقول هؤلاء الملاحدة الاشرار جسم طويل عريض عميق طوله وعرضه وعمقه سواء وهو كالسبيكة البيضاء الصافية يتلألاء من كل جانب وله لون وطعم ورائحة وهو يقوم ويقعد ويتحرك ويسكن وله مشابهة بالاجسام لولاها لم يدل عليه ويعلم ماتحت الثرى بشعاع ينفصل عنه اليه وهو سبعة أشبار بشبر نفسه مماس للعرش بلا تفاوت بينهما وان العرش يئط تحته أطيط الرحل الجديد تحت الراكب الثقيل :وقال آخرون هو على صورة انسان له يد ورجل وحواس خمس وأنف وأذن وعين وفم ونصفه الأعلى مجوّف ونصفه الأسفل مصمت الا انه ليس لحما ولادماً : وقال قوم ان الله على العرش تحمله الملائكة

وهو أقوى منها كالكركى تحمله رجلاه وهو أقوى منهما وقال قوم ان الله تعالى نور غير جسمانى وهو مع ذلك على صورة انسان . وقال قوم ان البارى تعالى لايعلم الأشياء قبل حدوثها وانما يعلمها لحين حدوثها وعلمه كعلم خلقه سواءً بسواءٍ لايمتاز علمه عنها بشيء وان كان خالقاً لهم وهم خلقه .. وقال قوم انه تعالى حل فى بعض خلقه وسموا جماعة زعموا ان البارى حل فيهم حتى ادعى الشيطانية وهم أصحاب محمد بن لقمان الملقب بشيطان الطاق لعنه الله وحزبه ان الله تعالى حل في أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة وانه لم يقتل .. وقال قوم انه جل شأنه خلق الخلق دفعة واحدة في آن واحد فليس آدم قبل عيسى ولا عيسى قبل محمد صلوات الله عليهم أجمعين وكأنهم أخذوا هذه المقالة من قول بعض الفلاسفة بالكمون والبروز ومعنى ذلك أن الاشياء كلها موجودة دفعة وانما كمن بعضها في بعض فهذا الترتيب الذى يشاهد بينها هو من ترتبها فى البروز الى الاعيان واما فى الوجود فهي متقارنة .. وقال قوم ان الله جل شأنه لايقدر على ظلم العقلاء وانما يقدر على ظلم الصبيان والمجانين وهؤلاء الاسكافية أصحاب أبى جعفر الاسكاف لعنه الله ولعنهم .. وقال قوم ان مايقع فى هذا الكون من الشرور كالمرض ونحوه خلق الشياطين لا خلق الله تعالى وكان أحدهم يمر بالزمني والمجانين وأصحاب العاهات فيقول أرحم الراحمين يفعل هذا

بخلقه .. وقال قوم ان للعالم الهان قديم وهو الله ومحدث وهو المسيح وهو الذى يحاسب الناس يوم القيامة وهو المعنى بقوله تعالى وجاء ربك والملك صفاً صفاً وهو الذى يأتى فى ظلل من الغمام وهؤلاء الحابطية أصحاب أحمد بن الحابط من اتباع النظام .. وقال قوم إن الله جل شأنه يفعل مايفعل لالغرض ولا لحكمة فنفوا حكمه فى خلقه وأمره وقالوا ليس فى كلامه لام تعليل ولا باء سببية وتأولوا كل ماورد فى القرآن مما ظاهره التعليل والسببية فهل ترى في هذه الاقوال ماينطبق على القرآن والسنة الثابتة الصريحة وهل هذا الا زندقة والحاد فى الدين

﴿ قولهم فى صفات الباري جلّ شأنه ﴾

ورد القرآن وجاءت السنة الظاهرة بوصف البارى تعالى بانه عالم قادر مريد متكلم سميع بصير الى آخر ماجاء فى القرآن والسنة فلم يرض أهل الكلام المبتدع من أشاعرة ومعتزلة وغيرهم من أهل هذا العلم ان يعتقدوا اتصاف البارى بهذه الصفات التى وصف نفسه بها ويرجعوا فيما وراء ذلك من تفسيرها وكونها عين ماهيته أو زائدة عنها الى تسليم الامر لله جل شأنه والكف عن الخوض فيما لا مدخل للعقل فيه ولا فى الاستطاعة الاهتداء اليه ولا ورد عن الصادق مايشرحه ويفسره ويعرف طريقه بل ورد عنه النهي عن الخوض فيه ورأوا ان الامتناع عن الخوض فى غمار هذا البحث نقص فى قدر معلوماتهم التى لم تقف

بهم عند حد وقالوا في ذلك مقالات لايقاربها شيء في الشناعة والقبح هذا غير مافي نفس البحث من الشناعة لانه بحث عن ذات الباري واتصافه بأوصافه ولا يعلم كنه ذاته ولا كنه صفاته ولا كيفية اتصافه بها الا هو

فالمعتزلة تبعاً للفلاسفة أنكروا زيادة أوصاف البارى على ذاته وقالوا انه عالم بذاته لابعلم زائد على ذاته قادر بذاته لابقدرة زائدة على ذاته وهكذا في سائر الصفات التي ورد بها السمع قالوا لان أوصافه جل شأنه لو كانت زائدة عن ذاته فان كانت جزأ من الذات لزم ان تكون الذات مركبة والمركب حادث وان كانت خارجة عن تمام حقيقة الذات عارضة لها فاما ان تكون قائمة بنفسها قيام الجواهر أو تكون قائمة بالذات قيام السواد بالأسود والبياض بالأبيض فان كانت قائمة بذاتها وهي قديمة لزم تكثر القدماء وقد كفر النصارى باثبات ثلاثة قدماء فكيف من يثبت ثمانية قدماء وان كانت قائمة بالذات فان كانت محتاجة الى الذات لزم احتياج القديم والاحتياج من امارات الحدوث وان لم تكن محتاجة للذات كانت جوهراً قائماً بذاته وتسميتها صفة وعرضا تسمية لاتوافق الحقيقة فللفرار من هذه اللوازم الفاسدة قلنا ان صفات البارى عين ذاته

أما الأشاعرة فوقعوا في حيرة بين رد النصوص القرآنية الصريحة

فى ان للباري صفات قائمة بذاته جل شأنه وبين دفع هذه اللوازم الفاسدة أو التزامها ولما لم يجدوا للخروج عن هذا الاشكال سبيلا عمدوا الى التهافت والقول بما لا يعقل ولا ينعقد عليه القلب فقالوا ان صفات البارى جل شأنه لاهي عين ذاته ولا هى غير ذاته وهذه عبارة امامهم أبي الحسن: ولعمرى لا يعقل العاقل شيئاً له وجود اذا نسب الى شيء يقال انه لاهو عينه ولا هو غيره ومهما تكلف الانسان لهذه العبارة من الشرح والتفسير فلن يبلغ بها مرتبة تكون بها معقولة لا ينفر منها السماع فان كان مراد أبي الحسن بهذا القول ان صفات البارى البارى عدم فى الخارج وانها لا يصح ان تكون موضوعا لقضية خارجية فيحكم عليها بانها عين أو غير فقد رجع الى رأى المعتزلة والفلاسفة بعد ان مكث زمنا يرد عليهما ويسفه رأيهم

وجاء من المتأخرين فخر الدين الرازى فاستشنع مقالة المعتزلة لمخالفتها ظاهر القرآن واستصغر مقالة الأشاعرة لانها لا ترجع الى محصل يجتمع عليه الفكر فان أولت تأويلا مقبولا عادت الى مثل مقالة المعتزلة وعسر عليه التفصى من هذا المضيق فلجأ الى القول بان صفات البارى جل شأنه ممكنة لا قديمة فراراً عما ألزم به من تعدد القدماء لو كانت الصفات زائدة على الذات فوقع فى شر مما فر منه وهو تجويز قيام الممكنات بالباري وكونه محلا للحوادث وقد بالغ هو نفسه

فى إنكار ذلك على الكرامية أصحاب محمد بن كرام الذين جوزوا ان تقوم الحوادث بالبارى ووافقه على ذلك من أخذ قواعد هذا الفن من كتبه كعضد الدين الايجى والشريف الجرجانى والسعد التفتازانى الا أنهم حاولوا التفريق بين الممكن والحادث فراراً من شناعة مقالة الكرامية فلم يأتوا في ذلك بشئ يسمع وينعقد عليه القلب

وجاء آخرون قالوا مقالة الرازى بامكان الصفات فلما أورد عليهم ان البارى لا يصح ان يكون محلا للحوادث فروا عن ذلك الى ان صفات البارى ليست قائمة به بل هى قائمة لا فى مكان فخرجوا من الزندقة الى الجنون فان صفة الشئ اذا لم تقم به فبم تقوم واذا لم تكن قائمة بشئ فكيف تكون صفة وأى فرق بين الجواهر والأعراض حينئذ ولكن المتكلمين اذا عضهم البحث لجـؤا الى أظهر الأشياء بطلانا وأوضحها فساداً فقالوا به والتزموه ونصروه واحتسب هذا منه وسيمر بك شئ آخر منه فى فصل على حدة كما وعدناك به فى صدر كلامنا على هذا العلم

وانما اضطرهم الى هذا الخبط كله الدخول بعقولهم فيما لا دخل للعقل فيه ولو انهم رجعوا فى ذلك الى ظاهر ما ورد فى القرآن والسنة فاعتقدوه دينا ووقفوا فيما وراء ذلك لأراحوا واستراحوا ولم يلقوا أنفسهم فى مهواة عميقة يتعذر الخروج منها والوقوف في هذا المقام

ليس قصوراً فيكون عيباً يتنزه الكامل عنه انما القصور ان يحجم المرء حيث يمكنه الاقدام فأما الاقدام حيث لا يمكن الاقدام ويتعين الوقوف فذلك جهل وطيش وتغرير بالنفس وقول على الله بغير علم وافتراء عليه والله جل شأنه يقول ولا تقف ما ليس لك به علم: أعاذنا الله من الخذلان

﴿ قولهم فى التقليد فى العقائد ﴾

قال جمهور المسلمين كل من اعتقد بقلبه اعتقاداً لا يشك فيه وقال بلسانه لا اله الا الله محمد رسول الله وان كل ما جاء به حق وبرىء من كل دين سوى دين محمد صلى الله عليه وسلم فهو مسلم سواء كان اعتقد ذلك بدليل عقلى أو بغير دليل

وقال الأشاعرة وأبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المجتهد إنه لا يكون مسلما الا من اعتقد ذلك عن دليل والا فليس مسلما وزاد أبو جعفر أنه اذا بلغ الغلام أو الجارية سبع سنين وجب تعليمهما وتدريبهما على الاستدلال على ذلك

وهذه مقالة شنيعة وتضييق شديد على المسلمين وقد رفع الله عنا الاصر والحرج ومخالفة صريحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الامة وخيارها فانهم كلهم كانوا يقبلون اسلام الاعرابى والرومى والعجمى والعبد والأمة بمجرد النطق بالشهادتين بدون طلب

استدلال ولم ينقل انهم طلبوا ممن دخل في الاسلام دليله على الوحدانية والرسالة لا حين اشتغالهم بالفتح ولا بعد رجوعهم الى أوطانهم واستقرارهم في ديارهم ولو كان ذلك لازما لفعلوه في أحد الموطنين وحاشا لله أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم الذي بعث لدعوة الناس الى الدخول في دين الله وخلع ما سواه من الانداد ونشر قانون السعادتين بين الناس بالسنان بعد البرهان ويقول أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وأني رسول الله الحديث يهمل مطالبة الناس بالاستدلال على ما يعتقدون في حين أن حقيقة الايمان لا تحقق الا بالاستدلال

ثم بعد هذا كله فليت شعري ما هو حد الاستدلال الذي لا يكون الانسان مسلما الا به أترى كل دليل يقوم عند الانسان على الوحدانية وصدق الرسالة يكفي في التحقق بحقيقة الدين وان كان عليه شكوك واعتراضات أو لا بد من دليل يكون خاليا عن الشكوك والاعتراضات حتى يكون كافيا فان قالوا يكفي أي دليل فقد أتونا بالامر النكر وان قالوا لا بد من دليل لا يمكن الاعتراض عليه كلفوا الناس ما ليس في وسعهم ولا يدخل في طاقة أحد منهم غير قليل من الناس في طويل الدهر وكثير التنقيب والبحث وحاشا الحنيفية السمحة من هذا التشديد

ويلزم على هـذه المقالة أن يكون المسلمون كلهم اللهـم الا نفراً يسيراً من أهل الكلام كفاراً لانهم قل أن يوجد فيهم المستدل على عقائد دينه وهذه مقالة شنيعة نبرأ الى الله من اعتقادها؛ والذى نعتقده وندين الله به ان كل من اعتقد الحق الذي هو حق عنـد الله تعالى فهو محق مؤمن مستدلا كان أو غير مستدل ومن اعتقد الباطل الذى هو باطل مردود عندالله تعالى فهو مخطئ كافر سواء كان مستدلا أو غير مستدل لا ندين الله بغير هذا

وانما اضطرهم الى هـذه المهاوي العميقة الاعراض عن كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستدلال بادلة الكتاب والسنة والميل الى تحكيم العقل فيما لا حكم فيه الا لله والعقل لا يهتدى اليه ولا يعرف وجه الصواب فيه وهذه سيرة رسول الله صلى الله عليـه وسلم وأصحابه بين أيدينا لا نرى فيها أنهم كلفوا أحداً بالاستدلال على مادعوا اليه من الايمان ولوكان غرض هؤلاء الناس القدوة بمن تجب القدوة به لماخرجوا الى هذه المذاهب الفاسدة والاقوال الردية

ومن أعجب العجب ان قوما من الاشاعرة غلوا وافرطوا فقالوا ان الايمان شرطه الاستدلال والاستدلال شرطه الشـك لأن من جهلت نفسه شيئاً لم تتوجه لطلبه ومن جزم به لم يستدل عليه فالايمان شرطه الشـك فمن لم يشك فى الله ورسوله أولا ثم يسـتدل لهما ثانيا

لا يكون مسلما ناجيا من عذاب الله

وهذه في الشناعة بحيث لا زيادة عليها وأى شناعة أشنع من أن يكون الايمان مشروطا بالكفر الذى هو الشك لان الشك كفر ومثل هذا لولا أننا رأيناه فى كتبهم لم نصدق ان مسلما يقول به

ومع ان مقالة الاشاعرة متفقة على اشتراط الاستدلال في الايمان لم يخالف فى ذلك أحد منهم غير السمنانى قاضى الموصل تلميذ البلاقلانى فنحن نري قوما من متأخرى الأشاعرة يقدمون تقليد أسلافهم على استدلالاتهم ونتائج عقولهم وهذا من أغرب ما ينقل عن هؤلاء الناس .. وممن رأيناه يستن هذه السنة (الامير) من متأخرى المصريين وأهل الشهرة فيهم تكلم في حاشيته على عبد السلام على الجوهرة في بحث زيادة صفات البارى وعدم زيادتها وبسط أدلة المخالفين ونظر في قول كل فريق منهم وتعرف حقه من باطله ثم قال مامعناه والذى يشهد له العقل ويوافقه البرهان ماذهب اليه المعتزلة ولكن حيث ان أشياخنا أهل السنة والجماعة جروا على خلافه فنحن معهم

وهل أنا الامن غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية أرشد

ولاأدري كيف استقام له القول بان تقليد النبي والصحابة فى الاقرار بالوحدانية لا يكفي في الايمان ولا بد من الدليل والاكتفاء بتقليد مشايخه وان قام الدليل العقلى عنده علي بطلان ماذهبوا اليه سبحانك

هذا بهتان عظيم

﴿ قولهم فى النبي صلى الله عليه وسلم ﴾

ومن شنيع مقالاتهم فى الاسلام قولهم ان النبي صلى الله عليه وسلم لايخلو منه زمان ولامكان يريدون بذلك أنه مامن زمان الا وهو فيه موجود ومامن مكان الا وهو فيه موجود وهذه المقالة الشنيعة لم نرها لاحد من المتكلمين المتقدمين منهم والمتأخرين ولا رأيناها في كتب العقائد ولا كنا نظن ان أحداً يقول هذه المقالة الشنيعة وانما ذكرها الشيخ يوسف بن اسماعيل النبهانى البيروتى صاحب الكتب الكثيرة فى الأدعية والصلوات فى منظومة له سماها (طيبة الغراء) ناقلا لها عن البرهان الحلبي ذكر يوسف النبهانى انه اطلع على رسالة الفها البرهان الحلبي في هذا الموضوع فطالعها وانتفع بها

وهذه مقالة شنيعة في الغلو فى النبي صلي الله عليه وسلم وانزال له فوق منزلته التى أنزله الله بها فان هذا اشراك للنبي صلي الله عليه وسلم فى أخص أوصاف الباري جل شأنه ومهما تأول الناس لاصلاح هذه المقالة الشنيعة فلن يجدوا الى الخروج عن قبحها سبيلا .. والامر لله ولا حول ولا قوة الا بالله

وياليت شعرى أى دليل قام عند هذا الذى قال هذه المقالة حتى قال بها هل تلا في ذلك آية منزلة أو حديثا صحيحاً ان قال ذلك فقد

كذب وشهد على نفسه بالكذب أوساق الدليل الذى أورده المتكلمون على إن البارى جل شأنه لا يحويه زمان ولا مكان فى النبي صلى الله عليه وسلم فحكم له بما حكم به للبارى جل وعلا فهو عين الشرك الصريح

ومثل هذه العقائد الفاسدة الباطلة الكاذبة يلقيها أهل الغفلة من المنتمين للعلم فى آذان العامة فتصادف منهم قبولا وتجتمع عليها قلوبهم حتي يصير من المتعذر نزعها من أذهانهم وربما كفروا من أنكرها عليهم ورأوا ان انكار ذلك نوع من الالحاد فى الدين واستخفاف بصاحب الشريعة المطهرة صلى الله عليه وسلم

ومثل هذه العقيدة فى الشر أو أقل منها فسادا دعوى بعض المغفلين ممن ينتمون الى العلم ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم جميع ما كان وما يكون أو لم يقبض حتى اطلعه الله على جميع ما كان ومايكون ولأهل هذه العقيدة دلائل على هذه المقالة الشنيعة كلها مبنية على مقدمات فاسدة أوقعها فى قلوبهم المبالغة في اطراء النبي صلى الله عليه وسلم المنهي عنه بقوله لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسي وأحاديث موضوعة كاذبة وقعت اليهم فاعتقدوا صحتها وهى مفتراة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكفى لمن ينكر هذه العقيدة انه لم يقم دليل من كتاب أو سنة صحيحة عليها مع الجزم باتفاق الكل على ان النبي

صلى الله عليه وسلم كان يعرض له الامر فيتوقف فيه الى ان يأتيه الوحي من الله به وحديث الأفك على الصديقة الطاهرة شاهد ومن ادعى انه أفيضت عليه بعد ذلك العلوم فليأتنا بآية أوحديث ولا طريق لاثبات مثل هذا الا الخبر الصادق

وهذه العقيدة هى الفرقان بين أهل السنة وبين المبتدعة عند أكثر مسلمى الهند فمن كان يعتقد ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم جميع ما كان وما يكون فهو من أهل السنة والخير وان لم يكن يعتقد ذلك فهو من أهل البدعة والفساد ولعلمائهم في ذلك رسائل لا تكاد تحصى شحنوها بالدلائل الفاسدة على هذه المقالة الشنيعة والرد على مخالفيهم فيها

وقد سئلت عن هذه المسألة وأنا بالهند سنة تسع عشرة وثلثمائة بعد الالف وكان قصد السائل تعرف عقيدتى فأجبت بما أعرف انه الحق الذى لا مرية فيه من ان النبي صلى الله عليه وسلم اطلعه الله على كثير من المغيبات لمصالح يقتضيها التشريع ولم يطلعه على كل ما كان وما يكون وبينت له ان هذا لا يحط من علىّ مرتبته عليه السلام بل من الادب مع الله ومعه ان لا نصفه بما لم يصف نفسه به ولا ان نثبت له ما لم يخبر هو بثبوته لنفسه .. فأنكر علينا ذلك وتحركت نفسه للمحاجّة فقلنا له أترى ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم عدد الشعرات التي في

لحيتك فقال . . لا . . فقلنا . . أفترى ان لحيتك ليست من المكوّنات فانقطع فى ميدان المناظرة قبل ان ينقل فيه قدما : الا ان هذا الشيخ الهندى ما زال بعد ان فارقنى يذكر من فساد عقيدتى بين العامة وتطاولى على الدين واحتقارى للشرع ما وسوس له به شيطانه وسوّلته له نفسه الخبيثة حتى ألهب قلوبهم حقدا علىّ وغيظاً مني وتحركت نفوسهم الشريرة لايذائى على حق أذعته فيهم ونشرته بينهم وبدعة أنكرتها عليهم وبينت لهم فسادها وانها ليست من الدين . . ولقد دخلت يوماً فى مدينة بومبي أحد المساجد الجامعة لاداء فريضة الجمعة فلما قضيت الصلاة فرضها ونفلها وهممت بالخروج من الجامع اجتمع علىّ قوم كثير عددهم قوىّ بأسهم فأنكروا على دخولى مساجدهم والصلاة فيها مع أهل السنة والجماعة (يعنون أنفسهم) وكادوا يضربوننى لولا ان الله تكرم بمن استنقذنى من أيديهم فخرجت وأنا لا أصدق بالسلامة من عصبة الجهل والابتداع

فهكذا يبذر علماء السوء بذور الخرافات والبدع والعقائد الفاسدة فى قلوب العامة فتتمكن فى قلوبهم حتى يتعذر على أحذق الناس بأمراض القلوب علاجها واختيار دواء نافع لها وليس هذا محل بسط الكلام على هذا الموضوع وموعدنا به ان شاء الله القسم الثاني من هذا الكتاب وهو قسم الارشاد فانه به أمس وأشد ارتباطاً

فصل ـ هـذا ما وعدنا به فى صدر كلامنا على فن التوحيد من انا سنختم المقالة الثانية بفصل نبين فيه ان أكثر المذاهب الكلامية الفاسدة اضطر البحث أربابها الى القول بها والانتصار لها وان كانت قلوبهم لا تنعقد عليها وان البحث اذا عض أحدهم وخاف على مقالته ان يظهر عليها مناظره عضدها بمقالة أخرى ظاهرة الفساد وكابر فيهما معاً .. ونحن نذكرهنا طرفا يسيراً من ذلك لان استيعاب كل مقالاتهم ومعرفة الضرورات التى اضطرتهم الى القول بها عسر جداً ويحتاج شرحه الي مجلدات ضخام فنكتفي الآن باليسير من ذلك ليستدل به على غيره

﴿ مقالة الأشعري فى ان الأعراض لا تبقى زمانين ﴾

ذهب الاشعرى وقليل من أتباعه الى ان الأعراض لا تبقى زمانين يعنى ان البياض مثلا المنتشر على سطح الجسم الأبيض يفنى كل وقت ويحدث بياض آخر مثله الا أن البصر لا يشاهد هذا التغير لشدة سرعة المنقضى والجائى ولو كان فى ذلك نوع بطء لأمكن ان يشاهد ذلك بالبصر .. وهذه مكابرة ونقض لشهادة الحس وهو أصدق شاهد ورجوع الى مقالة أهل السفسطة الطاعنين في شهادة الحس ولذلك أنكر أكثر أصحاب أبي الحسن مقالته ورفضوها وأبو الحسن نفسه يكبر هذه المقالة ولكنه اضطره البحث وا كرهته المناظرة

على القول بها على ظهور بطلانها

وذلك ان أبا الحسن ناظر دهريا ينكر الصانع ويزعم ان العالم موجود بالطبيعة فاستدل أبو الحسن على أن العالم لا بد له من موجد لا يكون حادثا مثله بحدوث العالم واحتياج كل حادث الى محدِث فقال الدهري اذا كانت علة الحاجة الى المحدِث الحدوث فالعالم بعد حدوثه مستغن عن الصانع كالجدار يحتاج الى الصانع فاذا وجد لم تبق له حاجة اليه فأكبر أبو الحسن التزام ما ألزم به ولم يجد لدفعه سبيلا فقال .. للدهري ان العالم جواهر واعراض والجواهر لا تقوم بدون أعراضها والاعراض لا تبقى زمانين بل هي أبداً متجددة فالجواهر محتاجة أبداً الى الصانع لامدادها بالاعراض التي بها قوامها وهي شرط وجودها ابتداءً واستمراراً .. فهو لم يذهب الى هذه المقالة ابتداءً وانما دفعه الى القول بها على بطلانها ضيق باب المناظرة عليه

﴿ مقالة النظام بالطفرة ﴾

ذهب ابراهيم بن سيار المعروف بالنظام شيخ المعتزلة في عصره ورئيس الفرقة النظامية الى أن الجسم اذا قطع مسافة من المسافات كالانسان يسير من مكان الى آخر وكالصخرة تسقط من أعلى الجبل الى أسفله لا يمر على جميع أجزاء المسافة وانما يحاذي بعضاً دون بعض وسمى ذلك طفرة

وهذه المقالة لو كانت من مقالات بعض المجانين والموسوسين لأُنكرت عليهم واستقبحت منهم فكيف بأبي اسحاق النظام

وانما اضطره الى هذا الخلط انه لما قال إن كل جسم من الاجسام فهو مركب من أجزاء لا نهاية لها ولا يمكن حصرها قالوا له لو كان ما تقول حقاً للزم ان لا يتمكن أحد من قطع مسافة من المسافات وان قصُرت لان كل مسافة فهي مركبة من أجزاء لا نهاية لها وقطع مالا يتناهي محال ولو قطع لكان متناهياً فلما رأى سهم الاعتراض صائبا قال ان الجسم اذا قطع مسافة لا يمر بجميع أجزائها وانما يمر ببعض ويترك بعضاً فلجأ من فاسد الى أفسد ومن حر الى جمر على ان ذلك لا يخرجه عن الاعتراض .. وكان أبو اسحاق النظام اذا قال له الاشاعرة في ذلك شيئاً يبكتونه به ضحك وقال ليس قولي بالطفرة أقبح من قولكم بالاختيار : وأبو اسحاق صادق في قوله هذا معترف على نفسه بالمكابرة والتهافت والتمسك بما يعلم انه باطل

﴿ مقالة أبي الهذيل في الاستطاعة ﴾

ذهب أبو الهذيل العلّاف وجماعة من المعتزلة الى أن الاستطاعة لا تتقدم على الفعل ولا تقارنه وانما تتأخر عنه يريد بذلك أن كل من فعل فعلا من الأفعال فانما حدثت له استطاعة هذا الفعل بعد صدور الفعل عنه لا قبله ولا معه .. وهذا من جملة حماقاتهم ومذاهبهم الفاسدة

التي انتصروا بها لمذاهب أخر وقد علموا فسادها والا فأى عاقل يقول هذه المقالة ولعمري ان كانت استطاعة الفعل تحدث بعده وكان الانسان انما يفعل اذا لم يكن مستطيعا واذا كان مستطيعا فلا فالاموات يفعلون كل فعل في العالم لا يعجزهم من الافعال شيء لانهم لا يصحبهم شيء من الاستطاعة وهذا حمق كبير

﴿ مقالة الأشاعرة في القرآن ﴾

جاءت السنة الطاهرة وآثار السلف الصالح مصرحة بأن القرآن كلام الله غير مخلوق وان ما بين دفتي المصحف كلام الله وغبر المسلمون على ذلك دهراً لا يعرفون غيره حتى ظهر فريق الاعتزال فقالوا القرآن مخلوق حادث لانه أمر ونهي وخبر وانجيل وتوراة وقرآن وليس هو صفة من صفاته تعالى لان القديم لا يتصف بالحادث وتعلق بهذه الشبهة جماعة من الخلفاء العباسيين وحملوا الناس فى عصرهم عليها فأقر بها من أقر خوفا من السياط وأنكر من صبر واحتسب

فلما جاء دور الأشاعرة وانتهى اليهم استشنعوا مقالة المعتزلة لمخالفتها صرائح السنة ومذهب السلف واستوجهوا دليلهم العقلى الذى عارضوا به السنة الصريحة فمالوا الى طريقة ظنوا انهم يوافقون بها مذهب السلف ويخلصون من إشكال المعتزلة فوقعوا الى الاعتزال

ورفضوا مذهب السلف من حيث لا يشعرون

وذلك انهم قالوا ان الكلام يطلق على الصفة إطلاقا حقيقيا وهذا هو القديم ويطلق على الألفاظ المتكلم بها اطلاقا مجازيا وهذا هو الحادث .. وهذه مقالة المعتزلة من غير تطويل فانهم اذا أطلقوا القرآن فهموا منه اللفظ المقروء والقرآن لا يطلق عندهم على الصفة ونفوا ان يكون ما بين دفتي المصحف كلام الله حقيقة

وكانوا اذا ادعوا ان هذا المذهب مذهب الصحابة والتابعين وسئلوا عن سبب امتناع أحمد بن حنبل وأمثاله عن القول بخلق القرآن مع انهم ما كانوا يطالبون الا بالاقرار بان اللفظ مخلوق مع شدة ما نالهم من الضرب والأذى والسجن قالوا انهم امتنعوا من القول بذلك خوفا ان يفهم العامة ان مرادهم ان الكلام الذى هو صفة حادث وهذا من أقبح الافتراء فان الناس الى ذلك العهد لم يكونوا يفهمون من القرآن الا اللفظ وما كان أحد منهم يفهم غير ذلك حتى يتبادر الى ذهنه .. وليس الا ضرورة البحث ألجأتهم الى هذه الشناعات

ولهم من الشناعات في القدر وخلق الأعمال شيء كثير ليس هذا محل بسطه فنكتفي هنا بما ندل به على شؤم هذا العلم وتحتم تركه حرصا على العقيدة الاسلامية الطاهرة ان تتدنس بخرافاته ونعم المستعان الله

﴿ المقالة الثالثة ﴾

(فى شرح طريقة السلف في الآيات والاحاديث المتعلقة بالعقائد)

حقيقة مذهب السلف الصالح وهو الحق الذى يجب المصير اليه ويحرم الخروج عنه ولو قيد شبر وكل من خرج عنه فهو مبتدع يجب الانكار عليه وردعه عن بدعته وقد تكون بدعته موجبة لفسقه وقد تكون موجبة لكفره كما سمعت آنفا تنبنى على سبعة أمور

(الامر الاول) التنزيه أى تنزيه البارى عما لا يليق بجنابه من الجسمية وتوابعها وكل ما يقتضى مشابهته لشئ من خلقه كما قال عن نفسه (ليس كمثله شيء) فاذا سمع قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) وقوله (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) وقوله (ويبقى وجه ربك) وقوله صلى الله عليه وسلم ان الله خمر طينة آدم بيده وقوله ان قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن فعليه ان يجزم بان الله جل شأنه ليس له يد كأيدينا ولا وجه كوجوهنا ولا صورة كصورنا وانه يتنزه عن ذلك ويتحاشى جنابه الكريم عنه ويعتقد ان الله جل شأنه قد أراد بما أخبر به عن نفسه ورسوله صلى الله عليه وسلم قد أراد بما أخبر به عن ربه معنى لا ينافى كماله تعالى وتقدسه فان اعتقد فيه ان له يداً كأيدينا ووجها كوجوهنا وصورة كصورنا فقد خالف صريح قوله ليس كمثله شيء وقوله ولا يحيطون به علما

(الأمر الثانى) التصديق وهو ان يجزم ويتحقق بقلبه ان هـذه الألفاظ التى ورد بها القـرآن أو السنة لهـا معان لائقة بجلاله وكماله أريدت منها ويقول آمنا وصدقنا وان ما وصف الله تعالى نفسه به أو وصفه به رسوله فهو حـق بالمعنى الذى أراده وعلى الوجه الذى قاله وان كان لم يقف على حقيقة المعنى الذى أريد من الـكلام

وقد يظن بعض الناس ان هذا التصديق غير ممكن : قالوا اذا لم يكن له تصور وشعور بالمعنى الذى يصدق به كيف يمكنه التصديق ولذلك خاض أهـل الكلام المبتـدع في طلب المعنى المـراد من آيات الصفات وأحاديثها وتأولوا لذلك التأويـل التى حرفوا بهـا القـرآن وحولوه من وجهه وصرفوه الى غير ظاهره .. وهذا خطأ منشأه قلة التأمـل فان الشارع لم يكلفنا فى آيات الصفات التى فى ظاهر معناها شائبة نقص ينزه عنه البارى بالتصديق بمعني مخصوص قبل تصوره حتي يأتى هـذا الذى توهموه واندفعوا لاجله كل هذا الاندفاع فى التأويل وانما كلفنا ان نعتقد ان هذه الألفاظ ليست مهملة لا تتضمن معنى وانما هي ذات معان وان تلك المعانى المرادة منها حق لائقة بجنابه المقدس وهـذا كما اذا سمع انسان صوت نَفَس من وراء جـدار فهو يعتقد ان وراء الجدار حيوان حى وان لم يعلم من أى نوع هو

(الامر الثالث الاعتراف) أى الاعتراف بالعجز عن الوقوف

على مراد البارى فى كلامه والقصور عن ادراك ما عناه لان الظاهر من اللفظ المتبادر منه نهانا عن إثباته له ووصفه به لعدم ملاءمته لكماله وقدسه ولم يبين لنا المراد من كلامه ولا فى استطاعتنا الوقوف على مراده من غير إخبار منه جل شأنه بنفس مراده الذى أراد وهب ان رجلا اصطلح على ان يعبر عن معنى من المعانى بكلمة من أفراد الكلام أفكان في استطاعتك وأنت لا تعرف اصطلاحه ولا أخبرك به من عرفه منه ان تفهم مراده من تلك الكلمة اذا تكلم بها : كلا: واذا كان هذا مع من هو من أفراد المخلوقين فكيف برب العالمين والبارى جل شأنه وصف نفسه بأوصاف لا نفهم معناها ولا نقدر ان نعرف كيفية اتصافه بها ولا ماهية تلك الصفات فنعترف بالعجز عن إدراك ما ليس فى قدرتنا الاطلاع عليه ولا في استطاعتنا الاهتداء اليه

ولا يسمى هذا الاعتراف تقصيراً معيباً فان التقصير قعود الانسان عما يمكنه القيام فيه لا قعوده عن كل شىء وان لم يكن فى استطاعته فالعاجز عن نقل صخرة عظيمة اذا كان لا يمكنه نقلها لا يسمى مقصراً وانما المقصر من يستطيع نقلها ويتركه فى حين الحاجة اليه والقوى الباطنة كالقوى الظاهرة والحكم فيها كلها واحد فاعتبر هذا التفاوت فى القوى الباطنة أيضاً

(الامر الرابع السكوت) اى سكوت الجاهل عن السؤال وسكوت العالم عن الجواب فان الاول بسؤاله قد عرض نفسه وعقيدته للخطر وكلف نفسه ما لم يكلف به وهو شاق والثانى بخوضه فى الجواب قد فتح باب الشبهة ووسعه وسهل الابتداع والخوض فيما لم يؤمر الا بترك الخوض فيه فاذا سأل العامى عن مثل هذه الامور المتشابهة نهي عن ذلك وزجر أشد زجر كما زجر عمر بن الخطاب رضى الله عنه صبيغا ونفاه وأمر الناس بهجره لما سأل عن آية الاستواء وكزجر على لمن جاء يسأل عن القرآن أهو مخلوق أم لا وقوله ولو وليت لضربت عنقه واذا خاض العالم فى هذه المسائل وفتح صدره بالجواب لكل من سأل عنها حظر عليه ذلك ومنع منه بما تصل اليه اليد فى منعه فربما كفر وأوقع الناس في الكفر من حيث لا يشعر

وفى قوله صلى الله عليه وسلم لمن مرّ عليهم فرآهم يخوضون في القدر وسألوه عنه (أفبهذا أمرتم) وقوله (انما أهلك من كان قبلكم كثرة السؤال) أوكما قال حجة بالغة على لزوم الكف والامساك عن الخوض فى هذه المسائل المتشابهة ولو أنها مما أبيح به الاشتغال لاحد من المخلوقين لم يكن أحد أحق من النبى صلى الله عليه وسلم بالتعليم ولا أحد أحق من الصحابة بالتعلم فاذا كف النبى صلى الله عليه وسلم وأمر أصحابه بالكف وزجرهم على الخوض فيه والبحث أفلا يسعنا

ان نكف ونسكت ونستسلم لمالا قدرة لنا عليه

(الامر الخامس الكف) أى الكف عن التصرف فى ألفاظ القرآن والسنة بصرفها الى معان غير ظاهرة وتحكيم العقل فى كتاب الله وسنة رسوله فلا يجوز تأويل استوى فى قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) بالاستيلاء ولا بالنسبة الخاصة التى للعرش وهى ان الله تعالى يتصرف فى جميع العالم ويدبر الأمر من الارض الى السماء بواسطة العرش فانه لايحدث فى العالم صورة مالم يحدثها فى العرش كما لايحدث النقاش ولا الكاتب صورة أوكلمة على البياض مالم يحدثها فى الدماغ ولا يجوز تأويل اليد فى قوله تعالى (يد الله مبسوطة) ولا اليمين فى قوله عليه الصلاة والسلام كلتا يدى ربنا يمين بالقوة ولا تأويل الوجه فى قوله (ويبقى وجه ربك) بالنفس فان الاستواء وان جاء فى لغة العرب مراداً به الاستيلاء كما فى قوله

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

واليد وان وردت في لغة العرب مراداً منها النعمة كما في قوله

سأشكر عمراً ان تراخت منيتى أيادي لم تمنن وان هى جلت

واليمين وان وردت مراداً بها القوة كما فى قول الآخر

اذا مارابة رفعت لمجد تلقفها عرابة باليمين

والوجه وان ورد مراداً به نفس الشئ كما فى قوله

رأيتــك لما ان عرفت وجوهنا * صددت وطبت النفس ياقيس عن عمرو

لأن ذلك قول على الله بغير علم وبلا اذن منــه والله تعالى يقول (ولا تقف ماليس لك به علم) ويقول (قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون) بل يجب الجمود على ألفاظ القرآن والسنة والامساك عن الخوض والتأويل : ومن أين لنا ان نعلم ان الله جلّ شأنه قد أراد بالاستواء الاستيلاء أوَ ليس من الجائز ان يكون قد أراد معنى آخر ولو اننا كلفنا ان نقول فى هذه المواضيع شيئاً لجاز الاعتماد على غالب الظن وأكبر الرأى كما انا لما كلفنا بالاحكام الفرعية وأخذها من الكتاب والسنة ساغ لنا ولم يحظر علينا تفسير المشترك والخفى بغلبة الظن لاجل العمل به ولكن هذه الامور حظر علينا الكلام فيها والخوض في شأنها فكيف نرتكب لاجل الخوض والبحث محظوراً آخر وهو تأويل كلام الله جل شأنه والقول عليه بغير علم ولا اذن منــه فى ذلك ونرى ان هـذا من الدين بل من أوجب واجباته

(الامر السادس الصرف) أى صرف باطنــه عن التفكر في هذه الامور التى نهى عن الخوض فيها بلسانه وليعلم أنه انمــا نهى عن الخوض فيها بلسانه لأن ذلك يؤدى الى فساد القلب وخروجــه عن صــلاحية عبودية البارى فأولى أن لا يشــغل قلبه بالتفكر في هــذه الامور التى ليس فى وسع أحد الوصول فيها الى حقيقة مرضية عند الله

فاذا كانت نفسه جوّالة في هذه الامور متفكرة فيها باحثة عنها طالبة لتعرف الحقيقة فيها فليشغلها بالذكر والعبادة عن النظر الى هذه الامور فان لم يصرفها ذلك عنها فليشغلها بأمور دنيوية تصرف وجهها عنها وتمنعها من التطلع اليها بل يقول أبو حامد الغزالى وربما كان الاشتغال بالمعاصي البدنية خيراً من الاشتغال بهذه المباحث فان الاشتغال بالمعاصى عاقبته الفسق والاشتغال بتلك المباحث عاقبته الكفر ونعم ما قال أبو حامد وكم من ذى علم وعقل وبصيرة خاض فى هذا البحث ليستخلص لنفسه عقيدة طاهرة يدين الله بها تخلى الدين جانباً وأخذ فى التماس غيره

(الامر السابع التسليم لأهل المعرفة) بأن يعتقد ان ما انطوى عنه من معانى القرآن والسنة لم ينطو على النبي صلى الله عليه وسلم وخاصة أصحابه وانما لم يخوضوا فيها ولم يجيبوا فيها جواب سائل الا بالزجر والتقريع لأن في الاشتغال بالبحث عنها من الاضرار بالدين والعقيدة مالا يقاس اليه ما يترتب عليه من فوائد معرفتها ولا يخطر له على بال انهم انما كفوا عنها للجهل بها

هذه الامور السبعة اذا عمل بها الانسان فقد احتاط لدينه وطهر قلبه من أدناس الاعتقاد وأقام مدة حياته على المحجة البيضاء التى قال فيها عليه السلام تركتكم على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها بعدى الا

هالك وكان من الفرقة الناجية وان خلط في شيء منها واسترسل مع من استرسل من أهل الكلام المبتدع خاطر بنفسه ودينه وخسر خسرانا مبينا

فان قيل اذا حصرتم الدلائل في القرآن والسنة والدين خوطب به أهل كل الأديان فاذا استشكل علينا أحد ليس من أهل ديننا شيئاً من هذه المتشابهات فكيف يمكننا اقناعه فان جعلنا له ظاهر الكتاب والسنة حجة فهو ينكرهما رأساً وينكر حجيتهما فالحاجة ماسة الى البحث عن بواطن هذه الامور وتحكيم العقل الصريح فيها لمجادلة الخارجين عن الدين المحادّين له

وهذه هي الشبهة التي سهلت على علماء الكلام المبتدع ارتكاب مانهوا عنه والجواب عن هذه الشبهة ان من استشكل علينا شيئاً من هذه المتشابهات أثبتنا له حقية نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالدليل الحسي الواضح الذي تصدق به الفطر وتستسلم له الطبائع فان صدق بذلك فقد صار منا ولزمه من الكف مالزمنا وان كابر في المحسوس لم يلزمنا اقناعه في المتشابه والله أعلم

—•✱✱✱✱✱✱✱✱•—

﴿ علوم البلاغة ﴾

ونريد بعلوم البلاغة علم المعاني الذي يبحث فيه عما يناسب به اللفظ مقتضى الحال وعلم البيان الباحث عن كيفية ايراد المعنى الواحد

بطرق مختلفة في الوضوح والخفاء وعلم البديع الذى يبحث عن المحسنات البديعية في الكلام العربى : وهذه العلوم كانت أول أمرها يدون كل علم منها في كتاب علي حدة كما رأيته في المقدمة ثم جمعت كلها في كتاب واحد متتالية وأطلق على هذا المجموع اسم البلاغة لانه يبحث عنها

والغرض من هذا العلم التوصل به الى فهم معانى كلام العرب من شعر منظوم وكلام منثور والوقوف على محاسن الكلام ودرجاته في البلاغة ومعرفة وجه كون القرآن الكريم معجزا ودرجة ارتفاعه في البلاغة على سائر كلام العرب الذين أنزل القرآن بلغتهم وتحدوا باقصر سورة منه فعجزوا وقصروا وانتقلوا من المعارضة باللسان الى المقارعة بالسنان ومن المكالمة باللهاذم الى الملاكمة باللهازم ومن لم يكن له وقوف تام على هذا العلم واحاطة تامة بقواعده مع اشتغال طويل بتطبيق العلم على العمل والتمييز بين افراد الكلام من منظوم ومنثور ظن أنه لاتفاوت بين أفراد الكلام وان كل كلام عربى يساوى بقية افراد الكلام ولم يدرك هذا التفاوت الذي يجعله علماء البلاغة بين أفراده بل ربما ظن بعض الناس ان هذا التفاوت الذى يدعيه علماء البلاغة والتفاضل الذى يثبتونه بين أفراد الكلام العربى لاينبني علي أصل وانه مجرد تحكم

ولذلك أنكر بعض الجهال إحكام اللغة العربية وإتقانها وقال ان المعنى الواحد يؤدى فيها بطرق مختلفة مع زيادة ونقص فى ألفاظ الجمل التى تؤدى هذا المعني كما فى قولهم العلم حسن وان العلم حسن ووالله ان العلم حسن وكل هذا لا يستفاد منه غير ثبوت الحسن للعلم فوقعت الزيادة فى الجملتين الثانية والثالثة لغوا لا فائدة فيها وهذا واضح في قلة إحكامها: ولو كان المعترض قد قرأ شيئاً من كتب البلاغة العربية لعرف ان العرب انما يوردون الكلام الخالى عن التأكيد كالجملة الاولى اذا لم يكن انكار فان كان انكار جيئ بالتأكيد علي قدر الانكار شدة وضعفاً فلم يورد هذا الاعتراض

ومن ذلك أيضاً دعوى بعض الحمقاء ان مقامات الحريرى أبلغ من القرآن الكريم ولو كان عند هذا القائل أدنى معرفة بالبلاغة وأقل ذوق فى العربية استفاده من تكرر نظمهم ونثرهم على سمعه لم يقل ان مقامات الحريري أبلغ من القرآن على ان مقامات الحريرى لو جُمعت المحاسن العربية التى فيها كلها من أولها آخرها لم تبلغ قدر المحاسن التى تشتمل عليها رسالة من رسائل أحد كتاب الطبقة الثانية من كتاب اللغة العربية كعبد الحميد بن محمد وعبد الله بن المقفع وغيرهما من أهل هذه الطبقة

وأغرب من هذا كله انا سمعنا قوماً يفضلون رسائل كتاب هذا

العصر على رسائل مثل الصابي وابن عباد واضرابهما من فحول الكتاب ومحاجة هؤلاء الناس تحوج الى تعليمهم عامة العلوم الأدبية بسائر أنواعها وإسماعهم جملة صالحة من رسائل العرب وخطبهم ونظمهم ثم التوسل الى البارى ان يخلق فى أذهانهم قابلية يميزون بها بين الحسن والقبيح وإنصافاً يحملهم على الاعتراف لكل ذى حق بحقه والا كان الجدال معهم عبثا لا خير فيه ولا يؤدى الى نتيجة

وطلاب العلوم الشرعية في عامة الممالك الاسلامية لهم عناية بهذا الفن واشتغال وسط بتعلمه وتعليمه والكتب المتداولة عندهم فيه شرح سعد الدين التفتازانى على تلخيص الخطيب القزويني الذى لخصه من كتاب الايضاح الذي لخصه من القسم الثالث من مفتاح العلوم لابى يعقوب يوسف السكاكي ويمتاز أهل مصر عن سائر طلبة العلوم الشرعية باشتغالهم مع هذا الشرح بحاشية البناني عليه المسماة بالتجريد لانه جمعها من الحواشى التي وجدها على هامش نسخة شيخه الصبان وجعلها حاشية على هذا الكتاب وهي عبارة عن مقولات نقلت من حواشى عبد الحكيم السيالكوتى على المطول وبعض حواش أخر على المختصر ثم بعض مماحكات لفظية على مثل حواشى متأخرى المصريين بل شر منها كلها لان للبناني من التوسع في الابحاث العقيمة ماليس لغيره

يمضى الطالب فى حضور هذا الكتاب من أربع الى خمس سنوات وانما يحضره بعد ان يكون قد أمضى فى مدرسته ثمان سنوات على الأقل وربما يكون قد قرأ قبله فى موضوعه الجوهر المكنون بحاشية مخلوف فى سنة أو سنتين وربما قرأ بعده شرح المطول في ثلاث أو أربع سنين ثم لا يحصل الطالب من وراء ذلك شيئا في هذا الفن ولو كلف ان يتكلم على آية أو بيت شعر ويبين ما فيهما من البلاغة لم يأت بشيء يسمع كما انه لو سئل تحرير رسالة لم يستطعها بل ربما كان الشيوخ الذين قرؤا هذه الكتب على الشيوخ ثم اقرؤها تلامذتهم واشتغلوا في هذا العلم عشر سنوات على الأقل لا يستطيعون شيئا من ذلك وربما أحوج أحدهم ضرورة لتقديم معروض لبعض الرؤساء فكلف أحداً ممن يتعاطى الانشاء بذلك

وسبب هذا أمور ثلاثة الأول فساد طرق التعليم وقد علمت وجه ذلك الثاني رداءة الكتب التي يتلقون منها هذا العلم وكونها قاطعة عن العلم لكثرة ما فيها من المباحث الغريبة عن هذا العلم : الثالث عدم اشتغالهم بتة بتطبيق العمل على العلم وتأسيس الملكة بحفظ طرف من منظوم البلغاء ومنثورهم وتعرف وجوه البلاغة فيه

وهذه الملكة لا تحصل من تعلم قواعد فنون البلاغة بل ربما كان المشتغلون بها أبعد من غيرهم عنها وانما تحصل بحفظ طرف من

منظوم الفصحاء ومنثورهم ثم على قدر جودة المحفوظ وطبقته فى جنسه وكثرته وقلته تكون جودة الملكة الحاصلة للحافظ فمن كان محفوظه رسائل عبد الحميد وعبد الله بن المقفع والحسن بن سهل وأحمد ابن مسعدة واضرابهم كانت الملكة الحاصلة له خيراً من الملكة التي تحصل لمن يحفظ رسائل الصابي وابن العميد والصاحب ابن عباد والملكة الحاصلة من حفظ هذه الرسائل خير من الملكة الحاصلة بحفظ رسائل البيساني والعماد الأصفهاني واضرابهما: والملكة الشعرية كالملكة النثرية فليس من يحفظ أشعار جرير والفرزدق كمن يحفظ أشعار البحتري وأبي تمام وأبي الطيب المتنبي جودةَ ملكة ولا من يحفظ شعر هؤلاء كمن يحفظ الاشعار العصرية

ومن ذلك كنا نرى ان حالة الانشاء العربي لا يمكن ان تترقى ولا ان تحسن حالها عما هي عليه اليوم لاكتفاء الناس بالدرجة التي هم فيها اليوم وعدم تطلعهم الى الترقي منها الى درجة أرقى منها بحفظ جياد رسائل فحول الكتاب والتمرن على العمل عليها ونرى ان هذه الطبقة من الكتاب الموجودة اليوم اذا انقرضت لن يخلفها بعدها مثلها فان المتطلعين الى تعلم هذا الفن من العلوم العربية قد أقبلوا بجملتهم على قراءة رسائل ضعفاء كتاب العصريين وحفظها والاحتذاء بها في الانشاء فمهما علت مرتبتهم في هذه الصناعة فلن يجاوزوا مرتبة أولئك

الذين اكتسبوا هذه الملكة من قراءة كتبهم بل من حاول منهم تحسين ملكته بحفظ شئ من ترسلات البلغاء ومنشآتهم لم يحصل على طائل مهما أكثر من الحفظ فانه قد حصلت عنده من قراءة الكتب التى أشرنا اليها ملكة منافية للملكة الجيدة صادفت قلباً خالياً فتمكنت فيه ولم يبق فى قدرة الطارئ عليها زحزحتها عن مكانها

نعم ان حالة الانشاء العربى فى مصر قد تحسنت عما كانت عليه قبل هذا الجيل تحسناً بيناً وصار كلام الكتاب بحيث يمكن فهمه والوقوف على المراد منه بدون استعانة بالكاتب اللهم الا بين أهل العلم فانهم لا يزالون على حالتهم الاصلية غير نفر يسير من المنتمين للعلم حصلوا فى الانشاء العربى على مرتبة تذكر

وقد اطلعنا على كتاب أرسله عالم مصرى لتلميذ من تلامذته فأوردناه هنا مع نبذ من آثارهم فى الانشاء ليقف القارئ على كثرة اشتغالهم بفنون البلاغة وقلة الاهتداء للمفهوم من الكلام فضلا عن البليغ ونص الكتاب

الى حضرة البحر الطمطام والعالم القمقام حاضر الفروع والاصول وفاهم المعقول والمنقول ابننا الشيخ ....

بعد السلام عليكم ورحمة الله نفيدكم ان الاشيا معدن والاحوال رضا ان شاء الله تكونوا انتم مسرورين تمام الانبساط : ومن حيث ما عمال نفهم سبب قلة ارسال جوابات الى أهلكم فلازم حالا ترسلوا جواب لأهلكم

وان كنت في شك مما ذكرناه وعسر عليك ان تعتقد ان حالة الانشاء تحسنت في مصر الا عند أهل العلم فانها كما كانت فنحن ننقل لك طرفا من منشآت رجال العلم فى العصر السابق وشيئاً من منشآت رجال العلم فى هذا العصر ونكل اليك الحكم فى هذا الموضوع

(عريضة استرحام من شيخ الجامع الأزهر الشيخ حسن العطار)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين أسئل الله الكريم دوام دولة أفندينا ولي النعم وان يجعله حصنا منيعاً للاسلام ويصلح بهمته شأن الخواص والعوام بمنه وكرمه آمين وانهى الى حضرته العلية انى كنت رجلا ضعيفاً فقوانى وخامل الذكر فرفع شاني وانه لما ألبسنى خلعة الشرف في ديوانه العالي أكد علىَّ في الاهتمام بحال الجامع الازهر فامتثلت أمره الشريف وبذلت جهدي فى ذلك وشرعت في جلب مصالحه ودفع مفاسده ومن جملة تلك المفاسد ان رجلا مغربياً من تجار المغاربة اسمه سكون رقى مشيخة رواق المغاربة وهي رتبة جليلة ولما كانت توليته لاتليق به ومخالفة للشروط المسطرة عندهم من قديم الزمان ومنها أن ليس لاحد حق فى أن يبيع ويشتري خبزاً من الرواق فقد رأينا عزله لكنه لما كان رجلا فيه تعصب إستعنت على مافعلت بحضرة الافندى مأمور الديوان الخديوي فلما بلغه العزل حزب الاحزاب وجمع الجموع فالتف عليه كل مفسد ومنافق وتبين لي بعد عزله ان في طرفه من مال الجراية ستة وخمسين كيساً فطالبته بهم فأخذ يراوغنى ويخادعني فما قدرت على الاستخلاص بحق عشرة أكياس منها الا بعد جهد جهيد ثم امتنع من الدفع ولما ورد أمر أفندينا المطاع بعزل الشيخ محمد ابن الحسين عزلته سريعاً وشرعت بتولية شيخاً آخر فعاد سكون لحالة الاولى وأقام على التكبر وانضم عليه كل مفسد كعلى خليفه الاسكندرى فانه رجل كلما

سمع هيعة طار اليها ببغلة حتى قام بنصرى الافندى مأمور الديوان الخديوى حين بلغه العزل جزاه الله عني وعن خدمة أفندينا ولى النعم أحسن الخير فاطفأ نار تلك الفتنة بهمته العلية وتولى المشيخة رجل آخر وانحسمت الفتنة بهمة مأمور الديوان الخديوى وبحسن تدبيره: وان الشيخ السادات كان قد استولى بعض اتباعه على تركة المتوفى الى رحمة الله تعالى الشيخ عبد الرحمن الجبرتي وهو رجل عالم مشهور حين مرضه جعل الشيخ السادات وصياً على ولده فلما مات الشيخ تخلى عنها الشيخ السادات وقلدها بعض أتباعه ولما اقتضته المشيخة من استنقاذ مال اليتيم من الهلاك أقمت الشيخ محمد بن الحسين وكيلا عني فى استخلاص مال اليتيم لأمرين الأول ان هذه القضية تحتاج الي كثرة التردد الى بيت القاضى ولا يليق لى ذلك الثانى انى أعرف من ابن الحسين الشهامة والعزامة والديانة دون غيره فأخذ يتردد الى المحكمة مرات كثيرة حتى استخلص مال اليتيم وسلمه للقاضى حتى اشترى به لليتيم عقاراً فعد هذا من ذنوب ابن الحسين وعد من المزورين ولما كان الطعن فى المذكور طعناً فيَّ لكونه من خواصى ومن اتباعى خشيت على نفسى من مكايد المفسدين وسعي المبطلين وأرسلت ابن الحسين الى ديوان أفندينا العالى ليقف بين يديه ويجادل عن نفسه ليبرأ ساحته وينضف عرضه فى حضرة ولى النعم ويظهر ان كان ابن الحسين مزوراً أو غيره ويظهر المفسد من الصالح والمحق من المبطل وأرجو من حسن نظر أفندينا ولى النعم أن يجمع بين ابن الحسين وبين أخصامه بديوانه العالى حتى يتبين لافندينا المزور من غيره ومن يسعى فى الأرض فساداً وان صدر أمر من حضرة أفندينا ولي النعم بقدومى الى الاسكندرية أسرعت في الامتثال فكان ذلك غاية الآمال لأقضى حق التحية وأحفل بمشاهدة حضرته العلية وأقوم بوظيفة الدعاء لحضرته بالثغر المرقوم كقيامي بتلك الوظيفة بعد إلقاء الدروس والله تعالى يرزق أفندينا النصر والفتح المبين ويجعله ملجأ للفقراء البعيد منهم والقريب آمين

﴿ وله اليه يستقيله من مشيخة الجامع الازهر ﴾

بأني صرت عاجزاً عن القيام بمصالح الجامع الازهر والعاجز لا يصلح أن يكون مناً بطاً لهذا العمل فلو بقيت على ما أنا عليه تغيرت أحواله وأرجو من مراحم أفندينا ولي النعم أن يجعلني من المتقاربين الداعين له المتعيشين في ظل احسانه وفي الجامع الازهر من هو أمثل مني وأحق بهذه المرتبة فيصلح له القيام بها واني التزمت أن بعد نزولي أغلق باب داري علي فالمرجو من حضرة الافندي مأمور الديوان الخديوي أن يسهل لي طريق الراحة في بيتي وأفرض بمنزلة الشيء المعدوم هذا ماأرجوا فينبغي المبادرة بتنصيب شيخ غيري لأن شؤن رمضان كثيرة وانه ليس في طرفي من مال الوقف الا احدي وثلاثون نصفا فضة حكم دفتر المباشر والله أعلم

﴿ جواب للشيخ حسن القويسني شيخ الجامع الازهر ﴾

(عن سؤال سئله في قضية)

ان الذي شاع في البلد وانتشر بان ابن الحسين معدود من المزورين وانه يرتاب العلماء أحياءً وميتين ويلقبهم بالقاب السخرية لاجل التضاحك عليهم في المجالس وهذا يشعر بعدم الديانة فقد جاء في الحديث سابّ الموتى كعابد وثن وغيبة العلماء تقتضي التكفير في بعض المذاهب ومثل هذا لا يصلح أن يتولى المناصب ومن كان هذا شأنه فادام مقيما في هذه البلدة يقيم الفتن خصوصاً مع اتصاله بشيخ الجامع وقد عادى الناس من أجله وما ذكر في الشيخ الذي عزل من قبله لا يعرف فيه الا أنه رجل دين خير والدراهم الذي انكسرت عليه سببه انها عوله حوالة على أهل دمنهور ليأخذ بها قماشاً فأفلس الرجل المحال عليه وألزمه الشيخ محمد كمون دفع الدراهم الذي انكسرت عليه بأمر الديوان ودفع منها حتي لا بقى عنده الا تسعة وعشرون كيسا فقسطت عليه بأن يدفع كل شهر كيساً واحد بتوافق

بختم حضرة شيخ الجامع ولا نعلم له قادحا سوى ابن الحسين وشيخ الجامع وجميع الناس يشهدون بذلك وما قيل في حق الشيخ خليفه بانه مفسد فليس له أصل ولا يعرف له فساد

﴿ جواب للشيخ حسن الغلبان أحد علماء الجامع الازهر عن سؤال سئله في قضية ﴾

ماقرره حضرة الشيخ القويسني فكاد أن ينعقد عليه الاجماع وتملاً به البقاع وهو لاشك فيه ولا يوجد من ينافيه وأما ماقيل إنه لم يتوجه بيت القاضى الا في قضية سيدنا الشيخ الجبرتي رحمه الله فقد تقدم له المرار أنه توكل في القضايا بما فيه ان حضر في الديوان العالى الخديوي وكيلا وموكلته تشكت منه بمسمعي وبحضرة العلامة الشيخ الصاوى وغيره من الناس وانه أضر بها وأخذ منها مبلغاً سلفاً على رسم القاضي وغيره وأنه يتوجه مع محمد بن الحسين الى حضرة الشيخ السادات وأخبره أنه أخذ منها خمسة وسبعون خيريه ودفعها لأدهم أفندى كتخداى القاضي على سبيل الرشوة ليساعده المذكور في مرامه وهذا الامر واضح عام يعلمه كثير من الحاضرين منهم حضرة الأستاذ الشيخ الجوهرى

هذه الصور الاربع نقلناها من كتاب « المحاماه » لحضرة احمد فتحى بك زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية ذكرها في ضمن حادثة وقعت بمصر في عهد كبير العائلة الخديوية محمد على باشا مستشهداً بها على سوء حالة القضاء وجناية الأغراض والوسائط على الحقوق فنقلناها عنه كما ذكرها في كتابه محافظين على اللفظ والرسم كما حافظ حضرته عليهما لنبين بذلك سوء حالة الانشاء في ذلك العهد ولولا ثقتنا بحضرة البيك لم ننقلها عنه فان العطار والقويسني والغلبان من خيرة العلماء في

عصرهم وأشهرهم عند الناس والحكومة

لم نقف فى باب المراسلات لأحد من العلماء العصريين على غير الكتاب الذى اتحفنا به أحد الاصدقاء الثقات وكنا عزمنا أول الامر على ان ننقل شيئاً من تقاريظ العلماء لبعض مايطبع من المؤلفات الحديثة التى يحتاج الناس فى الوثوق بها الى شهادتهم لندل بذلك على مقدار ضعفهم فى الانشاء وقلة ملكتهم فيه لكنا رأينا اننا مهما تجافينا عن ذكر اسم المقرظ أو صفة من صفاته أو اسم الكتاب المقرظ فلن نتمكن من مواراة شخصه عن أعين المتطلعين اليه بعد ان ذكرنا كلامه ونبهنا الناس للبحث فى الكتب المنشورة عنه فتركنا ذلك لاخيفة من أحد ولكن تباعدا عن الشخصيات ومن لم يكن يحقق قدر ملكتهم فى صناعة الانشاء فهذه كتب كثيرة فيها طرف من آثار أفكارهم فليرجع اليها من أرادها

وليس هذا حال رؤساء المدارس الدينية فقط بل هو حال أكثر رؤساء المدارس النظامية حتى ان من كانت وظيفته فى مدرسته تعليم الانشاء العربي لايحسنه وان تكلفه سمعت منه ماتنبو عنه الفطر وتنفر من سماعه الطباع وان أهل المدارس الدينية ان كانوا قد أهملوا هذه الصناعة رأساً فاهل المدارس النظامية قد لحوا باطراف أعينهم لاعن كثب أسفل كتب الانشاء وأقلها قدراً وأضرها بهذا العلم

فاقتبسوا منها ما اقتبسوا ولو كنا بصدد النظر في اصلاح هذه المدارس النظامية الفوضوية لذكرنا شيئاً كثيراً من آثار معلمى هذه المدارس فى هذه الصناعة الشريفة ولكنا عقدنا هذا الكتاب لشرح طرق التعليم فى المدارس الدينية والنظر فى اصلاحها

على انا لو أمعنا النظر لوجدنا ان من رجال المدارس النظامية عدداً كبيراً هم أعلم منا بفساد طرق التعليم فى مدارسهم وأدرى منا بما يوافقها من العلاج فنكل أمر ذلك الى خبرتهم ونكتفى بتحريضهم وتنشيط هممهم على ذلك ولا ندخل معهم فى غمار بحث ربما كان خطأنا فيه أكثر من صوابنا وتكون مشاركتنا لهم تشويشاً عليهم وصرفا لأنظارهم عن مواضع الصواب كما كانت مشاركة البعيدين عن المدارس الشرعية والجاهلين بحقيقة الشرع وكتبه ومقدار أهميته وكيف يمكن الاشراف عليه من قرب مشوشة لافكار المشتغلين بالنظر فى أحوال المدارس الشرعية والشرع والباحثين لهما عن الطريقة التى تكفل لهما رجوع الحياة المستقرة اليهما بعد ان اشرفا على التلف وصارت حياتهما كحياة المذبوح

وكل موضوع اشترك فى البحث فيه من لا يحسنه مع من يحسنه كان نجاحه بعيداً بل ربما كانت هذه المشاركة صارفة عن الوصول الى النتيجة الحسنة البتة فان استقل فى البحث عنه من لا يهتدى لوجوه

الصواب فيه فذلك شر وأدهى

ونحن فى عصر امتدت فيه الأبصار لنشر الافكار حبا فى انتشار الذكر حتى ان المواضيع الانشائية الفكرية لتكاد تباع وتشرى كما صار اليه حال أهل أوروبا فتى لاح وميض برق موضوع من المواضيع أو فتح باب بحث من الابحاث هرع اليه قوم قد أرهفوا أقلامهم فخاضوا غماره واقتحموا غباره غير مبالين مصيبين أو مخطئين مصلحين أو مفسدين فيكثر الضجاج ويرتفع العجاج ويتوارى شخص الحقيقه بين تلك الاقاويل المنتشرة المتباينة المتباعدة وتنجلى المعركة عن غير فتح ولا غنيمة

فكل من جمع بين أصابعه قلما ونشر على صفحة جريدة من الجرائد مقالة أو مقالتين سهل على أفكاره من العلوم كل عسير وخيل له انه صار فى كل علم الغاية المطلوبة والضالة المنشودة ورأى نفسه كفأ لكل قرن وردءً لكل خطب وقطب رحى كل حرب : وحرب الأقلام لو كان لها آثار على النفوس فى عصرنا كآثار حرب السهام على الاجسام لم تر أقل من عدد المقاتلة فيها ولكن جعل على النفوس دروع سابغة من الاقدام وقلة المبالاة فلم تجد سهام الاقلام اليها سبيلا

ولو أنا جعلنا القصد رائداً والتوسط قائداً وسلك كل حزب منا من الطرق مالا يعسر عليه سلوكه ولا يخشى على نفسه الضلال فيه

كما يفعل عقلاء الاوروبيين من اشتغال كل فريق منهم بما يحسن من العلم وتجافيه عما لا يحسن وإن دعى اليه لوصلنا الى نتائج حسنة ولو فى بعض المواضيع ولكن كثرة النظار أعمت الأنظار وحيرت الأفكار

وهذه السنة من جملة السنن السيئة التى جبلنا وفطرنا عليها ولم يعمل منا أحد فكره فى التنازل عنها والتخلق بما يضادها من محاسن الأخلاق بل نتسابق فيها كما يتسابق عقلاء الناس فى مكارم الأخلاق ومحاسن الاعمال

ذلك لأنا قوم يهمنا ان نذكر ويتحدث بشأننا فكل طريق يوصلنا الى هذا المحبوب سلكناه وتكلفنا قطعه بدون نظر فيما اذا كانت العاقبة محمودة أو غير محمودة ولا نحب ان ينتفع بنا أهل ديننا وأهل وطننا ولو كنا نحب ذلك لسلك كل واحد منا الطريق التى يمكنه منها الوصول الى ما يفيدهم به فائدة حقيقية ولم يصرف أيام عمره فى تكلف أشياء لا يعرف غثها من ثمينها ولا جيدها من رديئها

يكتب العالم البصير فينا مقالا أو مؤلفا فى بعض المواضيع العلمية النافعة فلا يكاد يمضى على انتشار كلامه بين أيدى الناس يوم أو يومان حتى تنتشر فى سماء المطبوعات سحائب من الردود والانتقادات بل والقذف والسباب ثم اذا أنت فتشت تلك الآراء والأفكار وجدت أكثرها غريبا عن موضوع البحث بعيداً عنه كل البعد

والمشاركون منهم لصاحب الموضوع فى البحث معه فى نفس موضوعه قلّ ان تجد فيهم من له في المعلومات منزلة تضارع منزلة صاحب الموضوع أو تدانيه فيشغل الناس أنفسهم بسماع أقوالهم ومعارضاتهم وردودهم وانتقاداتهم زمنا طويلا ثم يتحققون ان ليس وراء تلك المنازعات شئ يحرص عليه ويرغب فيه فيزهدوا فيها ويهجروها ويغلق باب البحث كما افتتح لا فائدة ولا جدوى غير القيل والقال وصرف الوقت في طلب المحال

وهذه مصر عين انسان العالم الاسلامى ودرة تاجه فى هذا المعنى لا يمضى عليها حين من الدهر حتى يفتح فيها باب موضوع من المواضيع العلمية أو العمرانية أو غير ذلك فتكتب المقالات وتنشر المؤلفات وتتناوح الأفكار وتتبادل الآراء حتى يخيل للناظر ان النتيجة المطلوبة والضالة المنشودة صارت بين أنامل الباحثين أو في قبضة يدهم فاذا فتحت أيديهم علمت انها قد جمعت على الهواء ومن أنكر هذا فلا أراه يصدق بشيء معقول أو محسوس ولا والله ما افتتح البحث في موضوع من المواضيع وانتهى بحث الباحثين فيه الى نتيجة تحمد أو تذم حتي أن المواضيع العلمية النظرية الخالصة التي لا تعلق لها بالعمل بوجه من الوجوه ولا حاجة لها بمال أو رجال اذا بحثنا فيها لا نصل فيها الى نتيجة ينعقد عليها القلب ويجتمع عليها رأى الناس تبعا لرأى الباحثين

وانما تقفل أبواب المواضيع النظرية كما افتتحت على آراء مختلفة ومذاهب متضاربة وأقوال متشعبة ودعاوى بلا أدلة وبراهين بلا مقدمات الى أشياء ينفر منها الطبع وتنبو عنها المسامع

﴿ اصلاح طرق التعليم ﴾

سمع في كثير من البلاد الاسلامية صوت في إصلاح حالة التعليم فى الممالك الاسلامية ولكن كان في أكثر الممالك ذلك الصوت عبارة عن مجرد تبرم من سوء الحالة الحاضرة وتألم منها لا يصحبه شيء من التنبيه على ما يلزم من العمل للخروج عنها والخلوص من آلامها وكأن مصدر ذلك الصوت لم يكونوا من ذوى النفوذ في البلاد فيمكنهم التصريح بما يلزم لاصلاح حالة التعليم فاكتفوا بالاشارة الى ما فى البقاء على الحالة المشاهدة من الحط بشأن الاسلام

أما فى مصر فقد كان الذى يتولى كبر هذه الحركة ويديرها بيديه فضيلة الاستاذ المرحوم المفتي معضداً بحزب كثير عددهم قوى بأسهم وكان رأى الاستاذ المرحوم وحزبه فى اصلاح حالة التعليم فى الازهر يرجع الى أمر واحد وهو جعل الازهر وسائر المساجد التى هي أشبه بمدارس دينية كالجامع الأحمدي فى طنطا وغيره كبعض مدارس

المعارف أو الأهالى الا ان العناية فيه بأمر الدين تكون أكثر من العناية به في المدارس النظامية التي تجمع فريقى مدارس المعارف ومدارس الاهالى

وقد اطلعنا على صورة تقرير رفعه فضيلة الاستاذ المرحوم فى سنة ١٧ هجريه الى نظارة الداخلية ضمنه هذا الرأى الذي أشرنا اليه وطلب من نظارة الداخلية أن تصدر أمرها بالعمل به اذا رأته موافقاً

وهذا الرأى لا يخلو عن تفريط ولذلك لم يوفق الاستاذ بعد طول جهاد لتنفيذ هذا المشروع وخالفه فيه قوم شعروا كشعوره بسوء الحالة الحاضرة وألموا منها كما يألم ففقد أنصاراً كثيرين كان يمكنه بواسطتهم لولا ما نفرهم به من تفريطه فى أمر العلم اماتة النظام القديم والوصول الى حالة تضمن للعلوم الدينية حسن المستقبل وهاج عليه الازهريون وانتصبوا لمعاكسته ومعارضته في كل ما يبدى من الآراء فى شأن ترقية العلوم الشرعية وتحسين حالها حتى فيما كانوا يعلمون انه الحق الذى يجب العمل به

ولم يكن من اللائق بالازهريين أن يحملهم ما رأوا من تفريط المرحوم في أمر العلوم الشرعية ومبالغته في قلة العناية بها أن يرفضوا كل آرائه التى أبداها فى اصلاح العلوم الشرعية وفيها ما لو عملوا به لكان للاسلام حالة مرضية وشأن حسن وكان من الحكمة أن يبنوا

ملداولاتهم معه على طلب الاصلح واختيار الانفع ورفض ما عدا ذلك ويديروا حركة الاخذ والرد برفق وروية لا يشوبهما شيء من التعصب والانحراف وكان فى استطاعة الاستاذ المرحوم ومما هو غير بعيد عن أخلاقه أن يتنازل عن بعض مطالبه التي كان يبديها مدة حياته في إحياء العلوم الاسلامية ويوافقهم على ما يكون منهم من صواب ولا يتمسكوا بافراطهم فى المحافظة على الحالة التى ألفوها مع ما هى عليه من الفساد وما فيها من الأضرار ولكنهم بنوا مجادلاتهم على التعصب لطريقتهم والجمود عليها فحرموا الصلاح وقطعوا عنه وأسفرت المقدمات عن غير نتيجة

وهكذا كل بحث وقع بين قوم فى طلب حقيقة اذا لم يكن غرض الباحثين الوصول الى الحقيقة والاهتداء لها بل كان الغرض الوصول الى شيء معين كان البحث فيه عقيما واذا كان فى أحد المتباحثين قوة تمكن بها من الظهور على خصمه لم تكن النتيجة حسنة ولا مفيدة ومن بني أعماله على أغراضه فقد بناها على أوهن أساس وأوهاه وعرض جده للضياع والتلاشي . وهذا شيء مقرر لا ينكره الا من ينكر الضروريات ولكن حرارة حب الانتصار للنفس والترفع على النظراء باكراههم على ما يراه وحملهم عليه على كره منهم أحرقت جثمان الحقيقة وحرمت الناس من كثير من المنافع وبررت من الاعمال كل فاجر وحجبت

بصيرة أهل البصائر عن مشاهدة الامثل والاصوب وقل أن تجد فى الناس من يستطيع هذا وترضى منه نفسه بالتنازل عنه أو الاكتفاء بما دونه حبا فى الصالح واختياراً للأوفق

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

ونحن نذكر مجملا من القول فى التعليم وكيف ينبغي أن يكون حتى يكون مؤديا لنتيجة حسنة مفيدة للمقصود من هذه الاجتماعات التى كثر القيل والقال فيها وأصبح الناس فى شك من أمرها ولا يرضون منهم الا باظهار نتيجة حسنة أو فض تلك المجتمعات وصرف أهلها فى مصالح يساعدونها ذويهم في هذا المعترك وينزلون بها أنفسهم عن عواتق الناس . فاذا انتهينا من هذا الاجمال عدنا اليه فاسسنا لكل مطلب من مطالبه مقالا على حدة فاستوعبنا ما يثبته ويقويه شرحا وبيانا وما يرد عليه من الشبه والردود دفعا وانكارا

﴿ اجمال الكلام فى اصلاح طرق التعليم ﴾

على المشتغلين باصلاح طرق التعليم فى المدارس الشرعية الاسلامية المتألمين من سوء حالتها الحاضرة وعدم الحصول منها على نتيجة حسنة تكفى ولو فى بعض الغرض المطلوب منها أن يقدموا بين يدى كل عمل فى الاصلاح استبدال هذه الكتب التى يتداولها الطلاب ويعتمدون عليها فى معلوماتهم وهى كلها من مؤلفات جماعة من المتأخرين ليس لهم

باع فى شيء من العلوم بكتب المتقدمين من علماء الاسلام وقد بينا عند الـكلام على كل علم كتبه التي يؤخذ منها وبينا انها من أردأ الـكتب وأقلها نفعا بل انها بحت ضرر لا تفيد شيئا أصلا وان المشتغل بها يفني عمره فى طلب مالا ينال لما فيها من الحشو والزوائد

وفى كتب المتقدمين من المختصرات والمطولات مافيه غنية عن التطلع الي هذه الـكتب الساقطة المضرة والباحث عنها يعثر بشيء كثير منها وأدنى اشارة من أى شيخ من الرؤساء لاى تاجر من تجار الـكتب تـكفى في طبع الـكتاب وظهوره بين الناس فلا عـذر لهم بأن كتب المتقدمين معدومة وما وجد منها يعسر على طلاب العلوم الشرعية وهم أفقر الناس الحصول عليه

فان تجـار الـكتب لايطبعون فى كل لحظة شرح الـكفـراوى وحاشية الصبان وحاشية البناني الا لـكونها هي الرائجة بين أهل العلم فلو أعرضوا عنها الى غـيرها من الـكتب مهما كان حالها لسعوا فى تحصيلها وطبعها وبيعها عليهم فما اعتـلوا به لايصلح حجة لهم ولا يقوم بعذرهم : وقد سمعنا قوما من كبار أهل العلم بمصر ومن أهـل الرأى في ادارة الازهر يذكرون فى أسباب تمسكهم بهذه الـكتب وعدولهم عن كتب المتقدمين بان هذه الـكتب اخصر وطرق التعبير فيها أقرب الى الفهم من كتب المتقدمين فانها واسعة وطرق التعبير فيها منتشرة

وليس فى هذا مايصلح حجة لهم بل هو حجة عليهم . . فاما قولهم ان الكتب التى يتداولونها اخصر فهذا من جملة عيوبها التي يحتم تركها لأجلها وسنذكر في فصل بعد هذا ان مختصرات الكتب مضرة بالتعليم مبرهنين على ذلك مستشهدين عليه بكلام الائمة المعول على رأيهم فى مثل هذا الشأن . . وأما قولهم ان طرق التعبير فيها أقرب الى الفهم فهو خطأ واذا كانت هى بهذه المثابة من الوضوح حتى كانت تفضل كتب المتقدمين فما الداعى لهم الى وضع كل هذه الشروح والحواشي والتقارير على هذه المختصرات وما السبب فى عنايتهم اليوم بها وتهافتهم عليها تهافت الفراش على النار ان كان فى حسن العبارة وقربها الى الفهم مايغني عنها كما يزعمون

وسر مافى الباب ان عبارات المتقدمين فى التعبير عن المعانى وافادة مقاصدهم تخالف طرق المتأخرين كما يختلف الانشاء الأوّلى والانشاء العصرى الا ان هذا التفاوت قاصر على مؤلفات قليلة جداً حذا مؤلفوها فى عباراتهم حذ والرسائل الادبية كالسكاكى وعبدالقاهر فكانت عباراتهم بعيدة شيئاً من البعد عن أفهام أهل هذا الزمان وليست هذه طريقة عموم مؤلفى الاسلام من المتقدمين وبين أيدينا من مؤلفات أهل القرن الثالث والرابع مالايخالف مؤلفات المتأخرين من جهة كيفية الانشاء على ان الذى جعل كتب السكاكى وعبدالقاهر

وأضرابهما بعيدة عن أفهامنا عدم أستعمالنالها وتمرننا عليها ولو أننا أعدنا النظر فيها مرة بعد مرة لانقادت لنا وقربت من أفهامنا

وكثير من الناس فى عصرنا هـذا يعتنون بالنظر فى الاشـعار العصرية الساقطة ويعرضون عن النظر فى أشعار مثل جرير والفرزدق والأخطل واضرابهم بل عن النظر فى دواوين مثل البحترى وأبى الطيب وأبى تمام وأبى فراس .. يرون ان هذه الدواوين بعيدة عن أفكارهم لاختلاف وجهتهم فى التعبير عن المعاني وانها لا ينبغي أن ينظر فيها الا أهل ذلك العصر لأن فيهم من الاستعداد لفهمها ما ليس لهم وهو غلط ولو انهـم اعتنوا بها كما يعتنون بالأشعار العصرية لألفوها وقربت عليهم

ولسنا نرى ان يُستعاض عن الكتب المتداولة اليوم بين طلاب العلوم الشرعية بكتب المدارس النظامية كما كان يرى بعض الناس فان هـذه الـكتب ضـعيفة فى العلم قاصرة فيه وهى منحوتة من كتب المتأخرين ببعض تحوير فى ألفاظها والنتيجة التى تحصل من الأخـذ منها فى المدارس النظامية غير كافية في المدارس الشرعية فان لكل فريق وجهة غـير وجهة الآخر فكتب المدارس وان كانت لا تليق بالمدارس الشرعية فهي بالمدارس النظامية اليق ولها أحسن وسيأتي بعد هذا تفصيل حسن لهذا الموضوع

نعم اذا استعملت بعض كتب المدارس النظامية فى تعليم المبتدئين من طلاب العلوم الشرعية لم يكن فى ذلك بأس اذا لقنوها على كيفية مخصوصة بل ربما كانت للمبتدئين أنفع لهم من مختصرات المتقدمين لأن العجمة غلبت على الناس وصار فى الطباع قصور وفى الفطر فتور سيما وأهل المدارس الشرعية لا يقدمون على الاشتغال بكتب العلوم شيئاً من العلوم الرياضية التى تحرك الفكر الساكن وتنبه الفطنة النائمة وأول ما يشغلون به أفكارهم تعلم هذه العلوم التى لا أثر لها في إحياء الأفكار وإيقاظ نائمها واضرام خامدها

وهذا شئ حسن تجب العناية به وملاحظته على رؤساء المدارس الدينية ففى ذلك خير كثير وتسهيل على صغار الطلاب تلقى العلوم وإدراك مقاصدها .. والعجب ان رؤساء المدارس الدينية يعترفون بما فى هذا من الفوائد ولكنهم مع ذلك لا يعملون به وتلك عادتهم فيما لم يجدوا عليه مَنْ قبلهم من شيوخهم وآبائهم لا يلتفتون اليه مهما مست اليه الحاجة ودعت اليه الضرورة

وأعجب من هذا دعوى قوم منهم ان ما في الكتب التى يتداولونها اليوم من اعتراض وجواب ومماحكة لفظية تغني عن العلوم الرياضية وتقوم مقامها في تحريك الفكر ويقولون ان هذه الابحاث تشحذ الاذهان يريدون انها تحدها وتصيرها قاطعة وتجلو ما عليها من الصدا

ولئن صح أن هـذه الأبحاث العقيمة العديمة الجدوى تشحـذ الافكار وتصقلها كما يقولون فهـم فى اختيارهم إياها كقوم من العامة يريدون ان يمـرنوا أولادهم على القـراءة وتصحيح النطق بالكلمات فيشتروا لهم من كتب الأقاصيص الكاذبة والخرافات الباردةوالروايات الفاسـدة كألف ليـله وليله ونوادر جحا ونوادر أبي نواس وروايات العشق والغرام فيكون ما ينال الغلام من ضرر هذه الكتب من فساد الاخلاق وشحن دماغه بالاكاذيب وتمرينه على الكذب والاحتيال وجعله يصدق بكل ما يسمع وينقل اليـه وان كان محالا أكثر مما يستفيده من إتقان القراءة وتعويد لسانه على تصحيح النطق بالحروف .. والتربيـة أمرها مشكل وقـل فى الناس من يعـرفها وقوانينها مـدثورة ومن ذلك فاض بحر فساد الاخـلاق على الناس وعم شؤمه جميع الأمصار

وكما ينبغي ان يجنّب الطالب كتب العلوم المشوشة المشوهة التى شرها أكثر من خـيرها وضررها أكثر من نفعها كذلك ينبغي ان يجنب العلوم التى لا يحصل من وراء تعلمها والاشتغال بها خير له ولا لأحد من أهل دينه وبالحري ان يجنب العلوم المضرة وقد علمت فيما سـبق ما هى العلوم التى تمس اليها حاجة الاسلام وترتبط بها بعض مصالحه الشرعية والعلوم الغريبة عنه والمضرة به

فالمدارس بأنواعها انما بنيت لتعليم الناس ما هو ضروري لهم في دينهم أو دنياهم فغير الضروري لا ينبغي ان ينظر فيه الطالب ما دام بين جدران المدرسة فاذا نال الشهادة من المدرسة وخرج منها وأراد ان يتجمل بالنظر في بعض العلوم الكمالية فلا عليه في ذلك بعد ان يكون قد استوفى ما هو ضروري له من أصناف العلوم التى حبس نفسه بين جدران المدرسة لتعلمها دينية كانت أو دنيوية ومن شغل نفسه بهما معاً الضروري وغير الضروري واشركهما فى الزمن فهو مظنة ان لا ينال منهما شيئاً يستفيد منه وينتفع به .. وهذا شيء يشترك فى معرفته الناس عامة لكن العمل عند أكثر الناس لم يبن على العلم وموجباته وانما بنى على غلبة الهوى وموجبات العادة والتقليد وقل فى الناس من غلّب موجب العلم على موجب العادة والالفة وسيمر بك فى غضون الكلام تمام تحقيق لهذا البحث

ثم بعد النظر فى أمر الكتب التى تؤخذ عنها واختيار الانفع منها والأوفق والأقرب لاذهان الطلاب وانتقاء كتب كل فن من مؤلفات أحسن المشتغلين به والمؤلفين فيه لا من كتب امام فى فن آخر ينبغي ان ينظر في كيفية تلقين العلوم للمتعلمين وإفادتهم اياها : واعلم ان ذلك انما يكون مفيداً اذا علّم على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلا قليلا يلقي المعلم على الطالب أولا مسائل قليلة من كل باب من أبواب الفن

الذى يقرؤه اياه ويقتصرله على أصول الباب وأمهات قواعده لايتجاوزها الى غيرها ويبالغ فى شرحها له شرحاً مجملا وتقريبها لفكره مراعياً في ذلك قوة فكر الطالب ومقدار عقله واستعداده فلا يلقى عليه ما يرى ان فى ملكته قصوراً عنه فاذا كان المعلم يعلم الجم الغفير من الطلاب فليلاحظ أضعف الطلبة فكراً وأقلهم استعداداً فانه ان تجاوز ذلك القدر أضر به وليس فى ملاحظة حال الضعيف ايذاء بذى الملكة التامة والفطنة المتقدمة .. وليكثر عند ذكر كل قاعدة من القواعد من ذكر الشواهد والأمثلة لأن من الطلاب من لا يفهم القاعدة الا اذا سمع لها مثالا وليبين له عند كل مثال يذكره له كيفية دخول هذا المثال تحت القاعدة .. ثم ليتعهده بعد ذلك بسؤاله عن تلك القواعد وأحكامها ويكلفه ان يذكر لها من الأمثلة ما يناسبها ويبين وجه دخول المثال تحت القاعدة

فاذا انتهى به الى آخر الفن يكون قد حصل للطالب ملكة فى ذلك الفن الا انها جزئية وضعيفة وتهيئ لفهم الفن وتحصيل مسائله فحينئذ يرجع به الى الفن مرة ثانية فيرفعه فى التلقين عن الرتبة الاولى الى رتبة أعلى ويستوفي له الشرح والبيان ولايقتصر على الاجمال كما فعل أول مرة ويخرج له عن الاجمال وان كان هناك خلاف يرجع الي طائل وله دخل في الفن وأثر بين في العمل به كالاختلافات التى تقع

فى كتب الفقهاء ذكره له وبين له وجوه الاختلاف وأدلة المخالفين أمّاما كان من الاختلافات العقيمة كاختلافات النحويين فى الاعاريب التى لايختلف باختلافها اللفظ وكالاختلافات التي تذكر فى كتب متأخري المؤلفين فمثل هذه لاينبغى ان تاتى الى الطالب ولاان يمكن من النظرفيها فانها مشوشة لفكره قاطعة له عن تحصيل ماهو بصدد تحصيله

وعلى المعلم فى هذه المرة ان يكلف الطالب بتطبيق العلم على العمل فاذا كان يقرؤه النحو مثلا كلفه ان يقرأ امامه جملا من كتابه مراعيا فيما يقرؤه وجوه الاعاريب فما أخطأ فيه رده فيه الى الصواب وبين له وجه خطائه وماوافق فيه الصواب أقره فى بعضه وسأله عن وجه استحقاقه لما اعطاه من الاعراب وأنكر عليه بعضه ونازعه فيه وشككه ليتعود على الجزم بما يعلم ويدفع عنه رعونة الجهل ويستقر على الصواب فيما علم وترسخ فيه قدمه ويصير ذلك الحال عنده ملكة فاذا انتهى به الى آخر الفن مرة ثانية على الطريقة التى شرحناها آنفا عادبه الى الفن مرة ثالثة وقد قويت فيه ملكته واشتد ساعده وأحاط بكل قواعده اجمالا وتفصيلا فلا يترك عويصا ولامبهما ولامغلقا الاوضحه وفتح مقفله وقرّب بعيده وليجتهد المعلم المرشد في هذه المرة أن يمرن الطالب على القاء العبارات وتعليمها وتفهيمها غيره

ويكون ذلك بتكليفه ان يقوم بين يديه بعبارة يقرأها ويفسر معناها ويوضح مشكلها على رفقائه ويمده المعلم ببعض ماعسى أن يغرب عنه من المعاني ويذكره بما يغيب عن حفظه من الالفاظ ولا يعترض عليه ولا يوبخه على غلط يقع منه فربما كان ذلك قاطعا له عما هو بصدد استفادته وليتلطف فى ارجاعه الى الصواب فان كان له جمع من الطلاب يقرؤن عليه جعل بينهم ذلك على الترتيب فان رأى فى أحدهم مزيد فطنة وفضل تنبه لما يلقيه اليه من الارشادات بالغ فى مدحه واطرائه على مسمع من الطلاب فان ذلك يبعث همم البطيئين المتغافلين الى التيقظ والانتباه لكن لاينبغي له أن يصرح له على مسمع منهم بانه خير من فلان وفلان دون فلان فان ذلك يضرم فى قلوبهم نار الحقد والعداوة ويسهل لهم طرق الترفع والتكبر ويحرضهم على نكاية بعضهم بعضا فاذا انتهى من الفن المرة الثالثة على الطريقة التى اسلفناها كان قد استولى على الفن من أطرافه وجمع اليه كل مايحتاج له وقويت ملكته فيه وانطلق لسانه بالنطق فصار بحيث يمكنه أن يلقنه كما تلقنه ويعلمه غيره كما تعلمه وصار بحيث يؤمن منه اذا جلس للتعليم ان يخلط ويشوش ويضيع على الناس ساعات عمرهم فيما يضر ولا ينفع : فهذا وجه التعليم المفيد وهذه طريقة أهل العلم والعقل فى افادته وقد علمت انه انما يحصل بثلاث مرّات وربما حصل لبعض الناس فيما دون

ذلك والناس في الاستعداد والفطر متفاوتون .. ولكن من لم يراجع العلم ثلاث مرات قل أن يحصل عنده من الملكة والاستعداد مايهيؤه للتعليم والافادة وفى قيامه ذلك المقام قبل تحصيل ذلك الاستعداد الطامة الكبرى ومن هذا الباب رزئ المتعلمون وساء نصيبهم في العلم وقل حظهم منه واغلاق هذا الباب يحتاج الى قوة إلهية وليس في استطاعة البشر زرع الاستقامة والاعتدال فى نفس من لم يفطر على ذلك

وليس من العقل ان يلقن المعلم المتعلم المسائل المعضلة فى أول تلقيه ويكلفه أن يحضر ذهنه فى حلها وكشف غامضها ويلقى عليه غايات الفن في مباديه كما يفعل اساتذة العلوم الشرعية فى هذه الايام سيما علماء مصر فان الرجل فيهم اذا قعد لاقراء صغار الطلبة وتعليمهم مبادئ علم من العلوم كان أول مايبدأ به فى تعليمهم ان يتكلم لهم على البسملة بشئ من غوامض ذلك الفن ومالا يمكنهم ان يتهيؤا لادراكه الا بعد زمن طويل واعمال كثير فاذا كان يقرؤهم الكفراوي فى النحو مثلا وهو أول مايقرأ الطالب من كتب هذا الفن وأول مرتبة من مراتب تعلمه أخذ يلقى عليه اعراب البسملة وبيان متعلق الجار فيها وهل هو اسم أو فعل وهل الأولى ان يكون عاما أو خاصا وبيان الظرف المستقر من الظرف اللغو ويذكر له مافي البسملة من الوجوه التسعة وبيان مايمتنع منها عربية مما لايمتنع الى غير ذلك مما هو من غوامض مسائل العربية

كل هذا والطالب يسمع ولا يفهم شيئاً مما يلقى اليه واذا كان يقرؤهم السلم فى المنطق وهو أول الكتب قرن النطق بالبسملة بذكر القضايا وحدودها والمختلطات وماهياتها وربما ذكر العكس والتناقض وغير ذلك مما لا يسعه فكر متوسطى الطلاب فضلا عن صغارهم

وربما ذكر له نبذا من علوم شتى غير العلم الذى يشتغل به لمناسبات ضعيفة كما رأيت فى الكلام على علم العربية وهذا من أشد الصوارف عن العلم وأكثرها ضررا على المتعلمين وكم من حريص على العلوم الشرعية متهالك عليها زهدت نفسه فيها ورغبت عنها لكثرة التشويش الذى يفعله المعلمون فى التعليم

ومن الحكايات المنقولة في ذلك ان عباس باشا والى مصر استدعى المرحوم الشيخ ابراهيم السقا لتعليم ابنه الهامى باشا شيئاً من العلوم الازهرية فاختار الشيخ ان يعلمه المنطق قبل كل شئ لماله من الآثار على الافكار واختار له كتاب السلم المنورق لمزية فيه على سائر كتب المنطق يعرفها الازهريون فلما جلس الهامي باشا بين يدى الشيخ كان أول كلام الشيخ بعد ان تلا قول صاحب الكتاب

الحمد لله الذى قد أخرجا نتائج الفكر لأرباب الحجا

اعلم ان تعليق الحكم بالمشتق أو فيما هو فى قوة المشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق فكأنه قال الحمد لله لاخراجه .. قال من روى

لنا الحكاية فلما سمع إلهامي باشا هذا الكلام أطرق رأسه متبسما وكان ذلك سبب تركه تعلم ما يحتاج اليه في دينه

واللازم المتحتم على المعلم أن لا يلقى على الطالب مسألة الا اذا علم أن فيه استعدادا لفهمها وقبولاً لها فان الملكات تحصل تدريجا شيئا فشيئا . . والمتعلم يكون أول أمره عاجزاً عن تعلم أصغر الجمل وأظهرها الا على سبيل الاجمال والتقريب بالعبارات الصريحة والاشارات الحسية ثم لا يزال الاستعداد يتدرج فيه قليلا قليلا بمعاودة النظر في قواعد العلم وتكررها عليه مرة بعد مرة والانتقال فيها من التقريب والاجمال الى الشرح والتفصيل ثم الى الاحاطة والاستيعاب حتى تتم الملكة ويكمل الاستعداد واذا ألقيت عليه الغايات فى البدايات وهو عاجز عن الفهم بعيد عن الاستعداد كلّ ذهنه عنها وعجز عن قولها فانصرف عن العلم وعدل الى هجره والاعراض عنه بجملته لظنه ان ذلك ليس من استعداده وانما أتى من سوء التعليم

ولا ينبغي للمعلم ان يزيد من يأخذ عنه على فهم كتابه الذى أكبّ على تحصيل العلم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا أو منتهيا ولا يخلط له مسائل الكتاب بغيرها الا ما كان منها ناقصا فلا بأس من ذكر متممه لئلا يظن الطالب ان المسألة كاملة وهي ليست كذلك حتى يعيه من أوله الى آخره ويحيط بجميع مسائله فاذا علم

المعلم ان الطالب قد صار لديه من الملكة ما يهيؤه لكتاب أرقى نقله اليه على بصيرة به على نحو ما أسلفنا

وذلك لأن المتعلم اذا حصل له ملكة في علم من العلوم رغبت نفسه فيه وتشوفت نفسه للوقوف على أكثر مما وقف عليه من قواعده وتكميل الملكة والاستعداد فيه ولا يزال كذلك ينتقل درجة درجة حتى يحصل على الغاية منه واذا خلط عليه من أول الأمر عجزت نفسه عنه فاما انصرف عنه رأسا وإما اشتغل طول عمره بما لا يفيد ولا يجدى

ومن محاسن التعليم أن لا يفرق على المتعلم مجالس التعليم ويطاول بينها فيجعل له في الاسبوع مجلسا أو مجلسين لان ذلك ذريعة الى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها عن بعض ويعسر عليه تحصيل ملكة الفن والاستعداد فيه واذا كانت أوائل العلم وأواخره عند المتعلم لم يسرع اليها النسيان وكان ذلك أقرب لحصول ملكة العلم وأقوى ارتباطا لان الملكات انما تحصل من تتابع العمل وتكراره ومعاودته مرة بعد أخرى فاذا تنوسى العمل تنوسيت الملكات الحاصلة به

وهذا والحمد لله مما يجرى عليه نظام أهل العلم في المدارس الشرعية فانهم اذا شرعوا في كتاب جعلوا الاشتغال فيه كل يوم ولا يتركونه حتى يأتوا على آخره الا أنهم باعدوا بين أطراف العلم من

جهة أخرى باشتغالهم بكتاب واحـد خمس أو ست سنوات فلا يأتي الواحد منهم على آخر الكتاب حتى يكون قـد نسى أوله ووسـطه وطلاب المـدارس النظامية يفرقون المجالس وربما لم ينظروا في العـلم الواحد أكثر من مرة واحـدة في الاسبوع وهذا من جملة فساد التعليم في تلك المـدارس وسر من أسرار ضعف ملكات المتخرجين منها فيما استفادوا منها من العلوم

ومن الواجب المتحتم فى التعليم ان لا يشتغل الطالب بتعلم علمين فى وقت واحد بل ينبغي ان يلقن كل علم على حدة فاذا انتهى منه وأحاط بقواعده واستولى على ما يكفيه منه انتقل الى فن آخر من الفنون فان الطالب اذا اشتغل بفنين أو فنون متعددة فى وقت واحد تقسم فكره بينهما وانصرف عن كل واحد منهما الى الآخر فيستغلقان عليه ويستصعبان معا فلا يظفر بشىء منهما ويعود بالخيبة منهما واذا تفرغ الفكر لتعلم كل علم على حدته كان أجدر ان لا يرجع عن واحـد منها خائبا اذا وفاه حقه من الاشتغال به على مثل ما أسلفنا الا أن من أراد الجرى على هـذا السنن يلزمه ان يعرف مراتب العـلوم ومقاصدها ووسائلها ودرجاتها فى الأهمية فـلا يقدم المقاصـد على الوسائل ولا يقدم غير الأهم على الأهم فانه ان فعل ذلك فان لم يرجع صفر اليدين بصفقة المغبون حرم نفسه كثيراً من منافع الزمن وفوائده

وهذه الطريقة كغيرها من الطرق الحسنة فى التعليم مهجورة فى المدارس كافة شرعية ونظامية فطلاب المدارس الشرعية يشتغل أحدهم فى ثلاثة فنون دفعة واحدة وطلاب المدارس النظامية ربما اشتغل أحدهم بسبعة فنون فى زمن واحد والضرر فى هذا المسلك كثير وليس من يبحث عنه

هذه شروط التعليم وطرقه وهو مما يجب على المعلم: وكما انه يجب على المعلم أمور اذا أخل بها أخل بالتعليم وخلا عمله عن كل فائدة وكان مضيعا لعمله فكذلك يجب على المتعلم أمور اذا أخل بها فقد سعي على نفسه وحرمها ثمرة العمل والذى يجب عليه

أولا — ان يكون غرضه من تعلم العلم التحقق به وخدمة الناس بعلمه وتسهيل طرق الارتفاق ولا يجعل همه التوصل به الى شئ من الدنيا وفوائدها فانه اذا كان ذلك همه كان حرصه على الفائدة لا على العلم فلم تتوجه نفسه اليه تمام التوجه فقل ان تحصل منه على الملكة الكافية واكتفى من العلم بالقدر الذى يصل به الى مطلوبه: وهذا الشرط قلّ من يراعيه من طلاب العلوم فى المدارس الشرعية والنظامية فان أكثر الطلاب لا يقدّرون في أيام اشتغالهم الا الحصول على الشهادة لنوال مرتب أو للاستخدام بها فهو يسعى للمرتب أو الخدمة بكل قلبه ونفسه في شغل شاغل عن العلم: ومما يدلك علي ذلك انهم اذا حصلوا

على مقصودهم هجروا العلم وتركوه رأسا وأسفوا على ما ضاع من الزمن في الاشتغال به والجد في تحصيله

وقد ترى كثيراً من هؤلاء الطلاب اذا تقدم أحدهم لينال شهادة النجاح فى مدرسته التى يتلقى العلوم فيها توسل بذوى الجاه والكلمة لمن بيدهم أمر ترقيته لمساعدته على نوال أمنيته وغض النظر عنه والتساهل معه فيما يبدو منه من قصور ولو ان غرضه من التعلم ان يكون متحققا بحقيقة العلم لم يفعل ذلك ولم يحتج الى توسيط أحد أحد فى طلب التساهل معه

ثانياً — ان يتعلم من العلوم ما تقبله نفسه ويميل اليه طبعه ويرى في نفسه استعدادا لقبوله ولا يتكلف ماليس فى طاقته فليس كل نفس تقبل العلم ولا كل نفس تصلح لتعلم علم تصلح لتعلم علم آخر فربما كان لها من الاستعداد فى علم ماليس لها مثله فى علم آخر

وعلى المعلم العاقل ان يتعهد تلامذته فاذا رأى من أحد منهم عدم تهيؤ لتحصيل علم صرفه عنه الى غيره ولا يتركه هملا يصرف نقد عمره فيما لا ينال ولا يحمله الحرص على الاستكثار من التلامذة والمفاخرة بهم على تضييعهم وقتل استعداداتهم

ولقد حكي أبو سعيد السيرافى عن نفسه قال قرأت على الخليل بن أحمد الفراهيدى ثلاثة أيام فى العروض فلم أحظ منه بطائل واستصعب

عليّ فكأنما أزاول جبلا فلما كان في اليوم الرابع وأنا بين يدى الخليل في حلقة الدرس التفت الىّ وقال ياأبا سعيد أتحسن تقطيع قول الشاعر

اذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ماتستطيع

قال فعلمت مراد الشيخ فانصرفت عنه ولم أعد اليه لاخذ العروض . وهذا مالا أثر له فى المدارس الشرعية أصلا وربما أمضى الطالب فى مدرسته خمسين سنة يدأب ليله ونهاره فى الحضور والمطالعة والحفظ ولم يفتح عليه بشئ لعدم استعداد فى نفسه لتعلم العلم ثم تراه بعد ذلك كله مشتغلا بالتحصيل آملا ان يحصل له شئ يعوّض به مافات من أيام عمره من غير جدوى وهو أمل كاذب وطمع في غير مطمع لانه لو كان خلق فى فطرته استعداد لقبول العلم لحصّل منه فى هذا الزمن شيئاً كثيراً إن لم يكن أحاط بجملته وحصل عليه برمته فاذا لم يوفق هذه المدة لتحصيل شئ دل على انه ليس عنده من الاستعداد مايهيؤه لذلك والفيض على غير قابل محال

ومن أعجب العجب ان رؤساء المدارس يعلمون هذا من كثير من التلامذة الذين تحت أيديهم ولا يصرفونهم عن طلب العلم الى الاشتغال بما يكون فيه صلاحاً لهم فى دنياهم بل اذا خوطبوا بذلك ونبهوا عليه أنكروا ذلك على قائله وعدوه صداً عن سبيل الله ووقوفا في وجه العلم وربما توصلوا به الى اكفاره ونسبته الى المروق من الدين

وقد كان سعى المرحوم الشيخ محمد عبده ان يجعل لطلبة العلوم فى الازهر مدة معينة ينتهون اليها بحيث اذا مضت هذه المدة ولم يتوفق الطالب للنجاح فيما يتلقاه من العلوم يخرج من سلك الطلبة الا انه لم يتوفق لاجراء هذا النظام وأبي الجمود الا الاستمرار على ما ألف من رديء الحال وان تكون مدارس العلم كتكايا الصوفية لا ينقصها الا الذكر والعبادة واعتل المعارضون للاصلاح بان شروط الواقفين لا تساعد على إخراج أحد من الازهر وان أمضى فيه ألف سنة لم ينل فيها شيئاً وهذا هو الفقه المضر

وقرأت في ترجمة محمد بن الحسن الشيباني تلميذ الامام الاعظم أبى حنيفة انه خرج حاجاً ومعه رفيق له من أهل بلده فلما كانا فى بعض الطريق مات رفيقه فعمد محمد بن الحسن الى راحلته ومتاعه وكل ما معه فباعه فانكر عليه ذلك بعض من رآه وقيل له كيف تقدم على ذلك بغير عهد من الميت ولا اذن من الورثة فقال محمد بن الحسن والله يعلم المفسد من المصلح

ثالثاً ان يأخذ العلم عن معلم مرشد أمين ناصح ولا يستبد بطلب العلم بنفسه اتكالا على ذهنه ومضاء فطرته فان ذلك مهلكة له وضياع لوقته وصرف له فيما لا يجدى وهذا الشيخ الرئيس أبو على ابن سينا على جلالة قدره ومكانه فى الذكاء والحذق لما اتكل على نفسه

وثوقا بذهنه فى ادراك حقائق العلوم وسلم من سوء الفهم لم يسلم من التصحيف واختلاط الأمر عليه بسبب ذلك كما هو مبسوط فى ترجمته

ثم ينبغي للطالب ان لا يلقى بزمامه الى كل معلم ولا يملك لبه لكل من يتصدر للتعليم بل عليه أن ينظر فيمن يدعي علما من العلوم هل يجد عنده معرفة تفصيلية بمبادي ذلك الفن ومقاصده ومسائله وقواعده فان كان عنده علم تفصيلي بذلك ألقى زمام نفسه اليه واعتمد عليه في تلقى ما تعرّف حاله به من العلوم والا تباعد عنه فان ضرره أكثر من نفعه

وهذا أشكل شئ على الطالب فان تكليفه باختيار المعلم ذى الملكة القوية التامة وهو خال من كل ادراك علمي في غاية العسر عليه وانما يجب على رؤساء المعلمين ان لا يرشحوا أحداً للتعليم ولا يمكنوه منه قبل الحصول على الملكة التامة والاحاطة الشاملة بقواعد الفن الذى يلقى اليه زمام التعليم فيه تجافياً عن التشويش على الطلبة وتعليمهم ما ليس بعلم

وفوق ذلك شروط وآداب للتعليم والتعلم غير ما ذكرنا مبسوطة فى كتب آداب العلم وشرائط التعليم والتعلم وانما اقتصرنا منها على مالا بد منه وما تركه قاطع عن العلم وحائل بين المتعلم وبينه وتركنا ماسوى ذلك خيفة التطويل والخروج عما نحن بصدده

قلنا فيما سبق انه من المتحتم على المتعلم ان لا يشتغل بعلمين فى وقت واحد وانه يتعين عليه ان يتفرغ لكل علم على حدة فاذا انتهى

منه وحصل على الملكة الكافية فيه انتقل منه الى علم آخر وبينا ما في الاشتغال بعدة علوم في وقت واحد من الاضرار على المتعلمين ونريد الآن ان نزيد الكلام في ذلك المطلب المهم تفصيلا فنقول

تمهيد : ليس يشك ذو بصيرة بالعلوم ان تعلم العلوم صنعة من الصنائع كالحدادة والنجارة سواء بسواء وذلك لأن الصناعة ملكة من الملكات فمنها ما يحتاج الى ملكة في أعضاء البدن كالصنائع الجسمية ومنها مايحتاج الى ملكة في الدماغ كالعلوم النظرية والملكة التي تكون في الدماغ مهما كانت كاملة حسنة فلن تغني صاحبها عن ملكة الأعضاء في الصنائع التي تتعاطى بالأعضاء الجسمية ألست ترى ان أحذق رجل في العلوم العقلية وأمهر الناس فيها لو كلف قطع عود من الخشب بقدوم النجار لم يحسن ذلك ولم تهده ملكة الفكر الى وجه ذلك مهما تأمله وأنعم النظر فيه وتراه اذا ضرب بالقدوم على العود ضربتين وقعت كل واحدة منهما في موضع والنجار مهما كان غراً جاهلا لا يجد على نفسه شيئاً أسهل من ذلك العمل وهو اذا ضرب بالقدوم على العود عشر ضربات متواليات وقعت الضربات كلها في موضع واحد بغير تأمل منه ولا تدبر في ذلك ولكن معاودة العمل مرة بعد مرة جعل في يده ملكة الاصابة في الفعل كما يكون عند العالم من مزاولة قواعد العلم ومعاودة النظر فيها ملكة الاصابة في النظر وكذلك ملكة اليد لا

تغني في الصنائع الفكرية لما قدمنا

والصنائع انما الغرض منها سد حاجة الناس فيما يحتاجون اليه منها فالا حاجة للناس اليه ولا ترتبط مصالحهم فيه بوجه من الوجوه فليس ذلك من الصنائع وانما هو من الأحوال اللازمة التي لاتتعدى صاحبها وعلى قدرحاجة الناس الى الصنعة يكون شرفها فكلما كثرت الحاجة اليها وكان في تحصيلها عناء وفي اظهارها غناء كانت أشرف وأكمل

واذا كانت العلوم كبعض هذه الصنائع فينبغي ان يحتذى في تعليمها حذو تعليم الصنائع الذي جرى عليه نظام العالم من يوم بدأ الله الخلق الى يومنا هذا ونحن نرى اذا نظرنا أدنى نظر وأقصاه ان الصنائع لا يجمع بين ثنتين منها على شخص واحد في وقت واحد بل قل ان تجد في الناس من جمع بين صنعتين ومن تراه جمع بينهما فهو انما يحسن احداهما فقط وربما كان لايحسنهما لأن كل واحدة منهما عاقت فكره عن تحصيل ملكة في الاخرى

لكن من حيث ان لبعض العلوم ارتباطاً ببعض ولا كذلك الصناعات فان كل صناعة منها قائمة برأسها فليس يمكن لطالب العلم ان يقصر نفسه في الطلب والتحصيل على فن واحد بل لا بد له من ان يجمع من أنواع العلوم بين ماله ارتباط ببعضه لكن على الطالب الذى يريد ان ينتفع وينفع الناس بما اكتسب من علم ان يحصر همته في

نوع واحد من العلوم على حسب مايؤديه اليه اختياره ويجعل اشتغاله في غيره طفيفاً يكتفى فيه بتحصيل المبادى دون تطلب الغايات وليلاحظ أن لا يشتغل مع هذا العلم بعلم لا يرتبط به ولا يتوقف عليه

وتفصيل القول فى ذلك انه يجب على رؤساء كل مدرسة من مدارس العلوم الشرعية تقسيم العلوم التي يتعاطون تعلمها وتعليمها بينهم على الطلاب فيشغلوا كل فريق من الطلاب بفن من الفنون فيفردوهم به ولا يمكنوهم من الاشتغال بغيره الا ما لا بد منه فى تعلم هذا الفن لأنه من مباديه فليناولوهم منه قدر مايكفيهم فى التوصل الى ذلك العلم ولا يزيدوهم على ذلك شيئاً مع مراعاة أهمية الفن ومقدار حاجة الناس اليه فكل ما كانت حاجة الناس اليه أكثر وأعم جعلوا عدد المنقطعين لتعلمه أكثر

فاذا جروا على هذا السنن فى التعليم نبغ فى كل فن من الفنون الشرعية قوم فى استطاعتهم خدمة الأمة بما علموا وسدّ موضع حاجتها الى هذا العلم وأمكنهم ان يحدثوا آثاراً حسنة فى علمهم الذى اقتبسوه وان يعلموا غيرهم ما تعلموا

فاما اذا جمعوا على التلامذة بين عدة علوم وكلفوهم تعلمها في مدة معينة فقد قطعوا عليهم أسباب التعلم وكان النابغ فيهم من يحصل من كل فن مبادي قليلة لا تكفي فى العمل للناس وسدّ حاجتهم ولا تكفيه

في تلقين غيره شيئا من العلم وتعليمه إياه

دع عنك الظن والتخمين والشك والتردد فنحن فى بلد فيه مدرسة دينية تجمع مئين من العلماء الحائزين على الشهادات العلمية فاطرح من هذا العدد الكبير خمسة أو ستة نفر منهم انقطعوا لبعض العلوم وأكبوا عليها وأكثروا من الاشتغال بها فحصلوا منها على فائدة تذكر واستقر افراد الباقين واحداً واحداً فلن تجد واحداً منهم فى استطاعته أن يخدم الناس بعلم من هذه العلوم التى حصلها واشتغل بها زمناً طويلا ثم اختبر فيه كغيره من العلوم ومنح شهادة تدل على النجاح ولا ان يفيدهم فائدة يحسن وقعها ويحمد أثرها: كلا ثم كلا: وجل ما عنده مقدمات قليلة طفيفة من كل علم ربما كان لا يهتدى فى أكثرها الى وجه استعمالها فيما وضعت من أجله

ذلك لأنه لم يعط من علم من العلوم قدر ما يكفي للعمل ولم يتناول منه كل ما يحتاج اليه .. ولو انه أعطي ذلك وربى عليه تربية جيدة ومرن على العمل به تمريناً حسناً لكان فى استطاعته ذلك ولأحسن القيام بتعليمه الطلبة هذا النوع من العلم أما اذا كان هو لا يتقنه وليس عنده من مزاولة قواعده ومعاودة النظر فيها وتطبيق أحكامها على جزئياتها ملكة كاملة فكيف يقدر على ان يحصل لغيره هذه الملكة ومن أشد الاشياء ضرراً على العلم والمتعلمين ان يتولى أمر التعليم من لا يحسنه

ولا يتقنه ولم يحصل فيه ملكة تامة قوية تؤهله للتعليم

ولذلك يرى أكثر العقلاء الذين لهم خبرة تامة بأحوال الازهر المعمور انه سيكون بعد أيام أحط حالا وأدنى رتبة وأقل نتيجة من المدارس التحضيرية بمصر وهم يبنون هذا على ان المعلمين فى الازهر أصبحوا كمعلمي المدارس النظامية لا ملكة عندهم في علم من العلوم فاذا انضم الى قصور المعلمين رداءة الكتب التى يأخذون منها معلوماتهم كانت النتيجة فيه دون النتيجة فى المدارس غير شك وسنعقد لهذا مقالا بعد هذا نكشف فيه الستار عن حقيقة الحال في هذا الأمر وانما نحن الآن بصدد بيان ان اشتغال الطالب بعدة علوم وتفريق قواه الفكرية بينها يضيع عليه تحصيل الملكة في كل العلوم التى يشتغل بها ولم يكن فى قدرته ان ينفع الناس بشيء مما علم وندعو أهل الزعامة فى المدارس الشرعية الى تفريق العلوم على الطلاب وصرف كل فريق فى علم مخصوص يلائم فطرته ويميل اليه طبعه ليتمكن من تحصيل ملكة فيه تؤهله لخدمة الناس بما علم وسد موضع حاجتهم الى هذ العلم

فان زعم زاعم ان ثنتى عشرة سنة وهى أقل زمن للدراسة فى المدارس الشرعية لا تكفي الطالب فى تلقى مبادي العلوم الشرعية ثم الانقطاع الى علم يدأب فيه الطالب حتى يحصل ملكة تؤهله لما ذكرت

فالجواب على تسليم ما يزعمه هذا الزاعم من أن هذه المدة لا

تكفي الطالب لتلقي هذه العلوم ثم الانقطاع الى علم يتمكن فيه وينال فيه ملكة تامة انه يمكن أن يزاد على هذه المدة المضروبة للدراسة قدر أربع سنوات يشتغل الطالب فيها فيما يرى في نفسه مزيد قابلية له وفضل تأهب لتعلمه والتمكن فيه ويكون ذلك بعد أن يكون قد حصل الشهادة التي تعطى بعد امضاء المدة الدراسية الاولى فاذا أمضي السنين الاربع الأخر اختبر في العلم الذي انفرد له فان رؤي أنه قد حصل على الغاية المطلوبة منه وتحصل على الملكة التامة فيه صرح له بتعليمه دون غيره من بقية العلوم التي تلقن مباديها في المدة القانونية الاولى

فاذا جرى حزب العلوم الشرعية على هذا السنن في التعليم والتعلم أمكن ان يكون فيهم معلمون ماهرون يعلمون فيفيدون وأمن على العلوم الشرعية ان تضمحل وتتلاشى وعلى الطلاب ان يفنوا أعمارهم في طلب مالا ينال

على ان هذه المدة المضروبة في مدارس مصر الشرعية للدراسة لو جرى عمار هذه المدارس على الطرق الحسنة في التعليم والتعلم وهجروا هذه الكتب الرديئة التي أفنوا أعمارهم فيها على غير جدوى لأمكنهم تقسيم هذه المدة الى قسمين قسم لتلقي مبادي العلوم الشرعية برمتها على وجه يتمكن به المتعلم من الاهتداء بها الي مايتوقف عليها من العلوم الأخر فاذا انتهي زمن هذا وحصل الشهادة الابتدائية مال الى فن

مخصوص فانقطع له وبذل جهده كله فيه حتى يتمكن منه تمام التمكن اما اذا أصروا على البقاء على الحالة الحاضرة فى التعليم وأبوا الا الاستمرار على هذه الكتب فان يحصلوا فى هذه المدة ولا فى أكثر منها اضعافا مضاعفة على شئ ينتفعون به وينتفع غيرهم منهم به وحاشيتا الصبان والبنانى تحتاجان الى هذه المدة بطولها فمن أين لهم ان يتفرغوا لتحصيل شئ غيرهما

ولذلك كنا نرى ان من اغلاط الاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده فى اصلاح حالة العلوم الشرعية فى الازهر ادخال الجغرافيا والحساب وغيرهما فى جدول الدروس الازهرية لا لأن هذه العلوم لا خير فيها أولا أهمية لها بل نرى ان لبعضها فضلا على بعض العلوم الازهرية بل لأن فى ذلك تكثير عدد العلوم على الطلاب مع تبين عجزهم عن تحصيل ما بأيديهم من العلوم وأي رجل له بصر في العلم ومعرفة بكيفية استفادته والانتفاع منه يعقل ان الطالب المفطور على السذاجة وضعف الخيال وسكون القوة المفكرة مع قصور في التربية بلغ النهاية وجاوزها يستطيع ان يجمع فى فكره ثمانية عشر علما فى ثنتى عشرة سنة فيتلقى كل علم فى ثمانية أشهر وهل يمكنه اذا قسم فكره بين تلك العلوم فى تلك المدة ان يستفيد الناس من علمه ذلك شيئاً .. كلا .. ولم نقرأ فى تاريخ علماء البشر ان أحداً منهم اشتغل فى ثمانية عشر علما بنسبة واحدة

ثم نبغ فيها كلها أو فى شئ منها

وقلّ ان ترى في تاريخ العلماء رجلا نبغ فى علم الا وتراه قد انقطع له ولازم الاشتغال به وهجر ماعداه وان وجد له شركة فى علوم أخر فضعيفة جداً وآثاره فى ذلك قلّ ان توجد الا مشوشة مضطربة وهذا شئ لو أردنا سرد الشواهد عليه لكتبنا فى ذلك شيئاً كثيراً وخرجنا عما نحن بصدده

وهذا سرّ تبرم عقلاء الازهريين ممن كانوا يشايعون الاستاذ المرحوم مشايعة حسنة على طلب الاصلاح في الازهر والانفراد عنه في هذه العلوم الحديثة التي سعى المرحوم فى إدخالها الى الازهر وان لم يجعل الاشتغال بها ضربة لازب وليس سبب ذلك انهم يكرهون هذه العلوم وينفرون منها ولا يرون بها فائدة كما يقول ذلك من لا يعرف التوسط والاعتدال فى تقريظ وانتقاد : وفي الازهر رجال لهم بصر ودراية بالعلوم وكيفية ترقيها ولكن صوتهم في الازهر ضعيف وأغلبية الأصوات في جانب الذين يرون ان التزحزح عن الحالة القديمة قدر شبر خروج الدين قدر ميلين

وليس يعار على العالم ان يجهل شيئا من العلوم بل الاحاطة بالعلوم شئ من فوق طاقة البشر وأى رجل أحاط بالضرورى من العلوم فضلا عنها كلها بل لو نظرنا فى تواريخ أكبر رجال العلم والفضل لم نجد

أحداً منهم أحاط بكل العلوم وحصل فيها كلها ملكات يمكنه ان ينفع الناس بها ولا رأينا أحداً عابهم وانتقصهم بما جهلوا من العلوم ولم يحيطوا به خبرا: وهذا المرحوم الشيخ محمد عبده كان يضرب بحظه المثل ويقال انه المعجزة الكبرى ولم يكن يعرف شيئا من العلوم الحديثة التي سعى في ادخالها الى الازهر وما كان له فيه معرفة فدون الطفيف وأقل من القليل وهؤلاء الذين قد ضموا اليهم العلوم من أطرافها لو فتشت عن حالهم لوجدت الحصيف النبيه فيهم من يتقن علما واحداً وليس له في غيره باع فان كتب فيه أو حدث به خلط وهذي فلم لا يرون قصورهم في غير علم واحد عيبا وإعراضهم عن الاشتغال بتلك العلوم التي جهلوها حطة وضعة وانكارهم لبعضها معاداة للعلم وبغضا للفضيلة كما يجعلون الأزهريين كذلك وما مصدر هذا التفاوت بين الفريقين

ثم ان العلوم ينبغي ان يكون عدد المشتغلين بها على قدر مايسد حاجة الناس اليها ولا ينبغي ان يزاد على ذلك فيها ولا ان يشتغل بما لا خير للناس فيه فاذا زاد عدد المشتغلين بالعلوم عن مقدار حاجة الناس اليها كان الضرر فيها أكثر من الخير والفساد فوق الصلاح سيما بين قوم فطروا على البطالة وحب السكون والاخلاد الى الراحة وفي تلامذة المدارس النظامية مايكفي لحاجة الناس للعلوم الحديثة فلا فائدة في

تكليف أهل الازهر الانضمام اليهم وتكثير سوادهم وان لم يكن كل هذا العدد الجم كافياً في حاجة الناس الى الجغرافيا فاحر أن لا يكون عدد المشتغلين بالعلوم الشرعية كافياً في حاجة الناس اليها وحاجتهم اليها فوق حاجتهم الى الجغرافيا وما شابهها وهم أقل من أولئك عدداً ..
وفوق هذا في الاستطاعة أن يحشر الى المدارس النظامية أضعاف هذا العدد الموجود فيها الآن فيتداركوا حاجة الناس ويسدوا موضع الخلل وتتوسع على أرباب القهاوى ومحلات الملاهى أبواب الارتزاق من قوم صغار فى زى كبار وعلماء بلا علم فيتم السخط وتحق كلمة العذاب

هذه حقائق لا أوهام وعلوم لا ظنون ولّدها التأمل واعتبار الحاضر بالماضى وقياس الشاهد على الغائب مع اتحاد ما بينهما فى كل الأوصاف وجميع النسب وخلصها الاعتدال من كدر الاغراض النفسانية والأميال الشخصية ومن تأمل تأملنا واطرح التعصب لقوم أو التعصب عليهم كما فعلنا وترك شهوة نفسه وأميالها كما صنعنا لم يختلف علينا فى شيء مما ذهبنا اليه ولم يرتَبْ فى أنه الحق الصراح البين الذى يجب السير عليه أما من كان له هوى في قوم وغرض في طريقة فله أن يقول ما يشاء ويختار ما يشاء وانما العبرة بالعواقب واذا وجدت النتائج عرف حال المقدمات

ولابن خلدون فى مقدمة تاريخه كلام ينفع فيما نحن بصدده فنذكره إستيفاء للبحث قال

﴿ فصل فى ان من حصلت له ملكة فى صناعة فقل أن يجيد بعدها ﴾
(ملكة فى أخرى)

ومثال ذلك الخياط اذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت فى نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء الا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صفتها • والسبب فى ذلك ان الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدحم دفعة ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها فاذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف وهذا بين يشهد له الوجود فقل أن تجد صاحب صناعة يحكمها ثم يحكم من بعدها أخرى ويكون فيهما معاً على مرتبة واحدة من الاجادة حتى أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها فى الغاية فقل أن يجيد ملكة علم آخر على نسبته بل يكون مقصراً فيه إن طلبه الا فى الاقل النادر من الأحوال ومبنى سببه على ما ذكرنا من الاستعداد وتلونه بلون الملكة الحاصلة في النفس والله سبحانه وتعالى أعلم

وقال فى موضع آخر ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهمه كتابه الذى أكب على التعلم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتديا كان أو منتهياً ولا يخلط له مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله الى آخره ويحصل اغراضه ويستولى منه على ملكة بها ينفذ فى غيره لأن المتعلم اذا حصل ملكةً في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقى وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض الى ما فوق حتى يستولى على غايات العلم واذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء

وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأنه ذريعة الي النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض

فيعسر حصول الملكة بتفريقها واذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولا وأحكم ارتباطاً وأقرب صبغة لأن الملكات انما تحصل بتتابع الفعل وتكراره واذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون

ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة فى التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معاً فانه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم فكره وانصرافه عن كل واحد منهما الى تفهم الآخر فيستغلقان معاً ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة واذا تفرغ الفكر لتعلم ما هو بسبيله مقتصراً عليه فربما كان ذلك أجدر بتحصيله

ودليل هذا الذى ذكرنا مما يشاهد اليوم انك لا ترى بين عقلاء الافرنج وعلمائهم رجلا جمع بين علمين واستعد لخدمة الناس وانما يقتصر كل واحد منهم على علم ينقطع له ويستبد به ويشتغل فيه ليله ونهاره حتى يتمكن فيه وتصير له ملكة الاستفادة منه وافادة الناس اياه وافادتهم به ولذلك ترى انهم فى مجتمعاتهم العلمية كلما عرض لهم بحث من الابحاث العلمية وكلوا النظر فيه الى نفر من أعضاء الجمعية من مشاهير علماء ذلك الفن الذى وقع البحث فيه ليتفقوا فيما بينهم على أمر فيه ولا يتقدم من ليس له باع طويل في ذلك الفن لمشاركتهم في النظر لانه لا يري لرأيه القاصر وملكته الضعيفة في ذلك الفن فائدة ولو انه ندب الى ذلك لم ينتدب فكل ما يبدو لهم وللناس من الحاجة الى علم من العلوم يجدون بينهم من يكفيهم أمره ويسد موضع الحاجة بصائب فكره وسديد رأيه

ونحن على خلاف ذلك فأي حاجة ظهرت في العلوم لم نجد من يكفينا أمرها ويكشف عنا بنير فكره سحائب غمتها على ان فينا من طلاب العلوم على اختلاف أنواعها قوم لا يحصون كثرة

ذلك لأننا لم نكتف بعلم أو علمين وانما حاولنا ان نجمع في أفكارنا العلوم كلها حتى لا يفوتنا منها شيء ففاتتنا كلها ولأنهم جعلوا غايتهم فيما يطلبون من العلوم الوصول الى ثمراتها واستمتاع النفس بفوائدها وجعلنا غايتنا من العلم التي نكد ونكدح لاجل تحصيلها اما اتقاء مكروه يشق على نفوسنا أو التوصل الى وظيفة فمن خاب منا في العلم أمله ولم يدرك منه غايته هجره ومقته ومن توصل به الى مايريد هجره واطرحه لأنه قد حصل على الغاية التي كان يطلبه لاجلها فلم يبق له من رغبة فيه وهكذا ذبح العلم بيننا فما نحس له بيننا ركزا

وانا لنرجو الله ان يوجه وجوه كبرائنا ورؤسائنا بعد اليوم الى اختيار ما هو الاوفق لنا ويجمع شتات كلمتهم ويؤلف بين قلوبهم وينزع مافي صدورهم من غل وحقد على بعضهم حتى يكون نظرهم في أمرنا سعياً لنا لاسعياً علينا فقد ساء الحال وساء الظن في المآل والله المستعان على كل حال

ومن جملة العوائق عن التحصيل لطلاب العلوم الشرعية الاكثار من النظر في المؤلفات على تشعب اصطلاحاتها واختلاف عباراتها

ومذاهبها وربما جمع الطالب فى علم واحد بين عشرين كتابا وشغل نفسه بها كلها يظن انه سيعثر بين سطور تلك المؤلفات على الحقيقة المطلوبة والضالة المنشودة وانه ان وثق بكتاب واحد من بين تلك الكتب ربما اعتقد غير الصحيح صحيحاً وهذا خطأ فى الرأى وضلال فى القصد فان الاكثار من النظر في الكتب حائل بين الطالب وبين الحقيقة حاجب له عن الوصول اليها حتى انها ان كانت موجودة ضمن كل كتاب من تلك الكتب ضل عنها ولم يبق فى استطاعته الوقوف عليها ولابن خلدون فى هذا البحث فصل ذكره فى المقدمة نذكره هنا لما فيه من الفائدة وعسى ان يكون فيه مقنع لقوم خرج بهم التوسع في المؤلفات عن حد الشعور والتصور فصار لكل شرح عندهم حاشية ولكل حاشية تقرير وهكذا الى ماشاء الله وعلى كل من نظر فى كتاب ان ينظر فى كل ماعليه من الكتابات وان بلغت عدد الرمل والحصى: قال

﴿ فصل فى ان كثرة التآليف فى العلوم عائقة عن التحصيل ﴾

اعلم أنه مما أضر بالناس فى تحصيل العلوم والوقوف على غاياتها كثرة التآليف واختلاف الاصطلاح فى التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يفي عمره بما كتب فى صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل ويمثل ذلك من شأن الفقه بكتاب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمي وابن

بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه ثم انه يحتاج الى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والاحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد والمعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضي في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر بدون ذلك بكثير وكان التعليم سهلا ومأخذه قريباً ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك وكيف يطالب به المتعلم وينقضي عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه الا في القليل النادر مثل ما وصل الينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها انه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل الا لسيبويه وابن جنى وأهل طبقتهما لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه ودل ذلك على ان الفضل ليس منحصراً في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتآليف ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود والا فالظاهر ان المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي بتحصيل علم العربية مثلا الذي هو آلة من الآلات ووسيلة من الوسائل فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة ولكن الله يهدي من يشاء اه

فابن خلدون يرى ان المشتغلين بالنحو حين جمعوا في تلقيه بين كتاب سيبويه وما كتب عليه استعصى عليهم الفن وبعد عن أيديهم فلم يبق في استطاعة أحد منهم الوصول اليه فكيف بقوم يأخذون

هذا الفن من عشرات من الكتب على كل كتاب منها عشرات من الشروح والحواشي والتقارير وليس فى شئ منها شئ من علم النحو وكلها أو جلها فى أبحاث لفظية ومماحكات قليلة الجدوى لاهى فى النحو ولا فى علم من العلوم واذا استكبر ابن خلدون ان يوجد فى عصره رجل يحسن علم العربية كابن هشام على فساد طرق التعليم فى عصره بالنسبة لما ينبغي ان تكون عليه طرق التعليم وعد نبوغ مثله من نوادر الوجود أفليس من الكثير على مثلنا ان يكون عندنا فى علم العربية ملكة نفرق بها بين الفعل وفاعله وأجل ما نعتمد عليه فى تعلم هذا الفن حاشية الصبان على الاشمونى بتقرير الانبابى وتقرير الحامدي وتقارير بعض المحققين أو ليس يحق لمن غاص منا فى أعماق بحار تلك الكتب والحواشى والتقارير واستخرج من لججها المهلكة لؤلؤتين من مسائل النحو تمكن بهما من قراءة جملة وكتابة أخرى من غير لحن فيهما ان يعد نفسه كسيبويه فى عصره

وابن خلدون قد استولى عليه اليأس وتولاه القنوط أن يرجع أهل عصره عن طريقتهم في التعليم الى طريقة مثلى تضمن للطالبين الوصول الى مايحاولون من أنواع العلوم فقال ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التى لا يمكن نقلها ولا تحويلها ولكننا لانزال نرجو ونأمل ان يتنبه رؤساؤنا لما فى الاخذ من هذه

الكتب من المضار وصرف الاوقات فى غير طائل فينصرفوا بنا الى غيرها من الكتب النافعة وان تلين شكيمة أهل العصبية فيحملوا انفوسهم على الاعتراف بالحق والعمل به وان للباطل دولة ثم يضمحل والحق حي وان دفن ولن يعدم حق له أنصار به مطالبون

فصل — قلنا فى كلام سبق، ان الاشتغال بمختصرات الكتب مضر بالمتعلمين عائق لهم عن التحصيل وان اختيار طلاب العلوم الشرعية اليوم مختصرات المتأخرين التى نحتوها من كتب المتقدمين نحتا لن يصلوا به ولا الى بعض الغاية من تلك المؤلفات من أضر شئ وقلنا ان احتجاج علماء هذا العصر والمشغوفين بالكتب المتداولة على اختيارها باختصارها حجة عليهم ووعدنا ان نبين ذلك بيانا شافياً يرفع النزاع بيننا وبينهم ونحن الآن ننقل مالابن خلدون من الكلام في هذا الموضوع ونتبعه من الايضاح والبيان بما فيه مقنع لمن رزق بصيرة قال ابن خلدون

﴿ فصل فى ان كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم ﴾

ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والأنحاء فى العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجاً مختصراً فى كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الالفاظ وحشو القليل منها بالمعانى الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسراً على الفهم وربما عمدوا الى الكتب الأمهات المطولة فى الفنون كالتفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه

وأصول الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم وهو فساد في التعليم وفيه اخلال بالتحصيل وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتـدى بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتي (تقدم نقل ماوعد به هنا في فصل قبل هذا) ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها لان ألفاظ المختصرات تجدها لاجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت : ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات اذا تم على سداده ولم تعقه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والاحالة المفيدين لحصول الملكة التامة واذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوهم صـعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها ومن يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلاهادي له

فاذا كان الاشـتغال بالمختصرات عائقاً عن التحصيل ومانعا من حصول الملكة في العلم كما يقوله ابن خلدون فكيف تقـدر ان يكون الحال لو انضم الى هذه المختصرات شروح وحواش وتقارير وهوامش مشحونة كلها بابحاث عقيمة ومماحكات لفظيـة واجتمعت كل هـذه الى رداءة الالقاء والتعليم وقلة الملكة في المعلمين وضربت بجرانها على فكر التلميذ الضعيف وهل ترى ان يكون في استطاعته ان يحصل من هذه الظلمات المتألفه المتكاثفة نوراً يهتدي به

ومن أعجب الاشياء ان هذه الطريقة الممقوتة في التأليف المضرة بالمتعلمين والمضيعة لاوقاتهم صارت في هـذه الايام هي الطريقة المثلى

والسنة المتبعة فكل من عدل عنها وخالفها وكان كلامه فيما يؤلف من العلوم ظاهر المعنى حسن الدلالة كان قاصراً في العلم ليس من أهل التحقيق وكل من كان كلامه على الضد من ذلك مغلقا مبهما مجملا لايفهم المراد منه الا بتوقيف من المؤلف كان ذلك المستحسن المستجاد وكان صاحبه هو العالم البارع

وأغرب من هذا ان بعض المؤلفين من المتأخرين يتجاوز الحد في إخفاء المعنى واغلاق العبارة والاشارة الى المقصود من طرف خفي ربما نظر في مؤلفه يوما فلم يهتد لمراد نفسه فيه ولم يعلم الغرض الذي بنى عليه الكلام فاحتاج الى امعان النظر فيما حرره لينفع به الناس على ظنه فلم يكن في إمكانه ان ينتفع به هو وإعمال الفكر فيه ثم جعل عليه مؤلفا آخر لحل رموزه وقد اتفق مثل هذا للخيالى فانه كتب حاشية على شرح سعد الدين على النسفية اختصر فيها الالفاظ وأكثر المعانى لدرجة انه لم يدع لنفسه جهداً فى الاختصار قالوا ثم انه رجع الى حاشيته بعد زمن فلم يهتد لشيء من مراده فيها وأعضل عليه فهمها فعكف زمنا طويلا عليها يطالع ويراجع وينقب حتى كشف له عن رموزها فكتب عليها حاشية سماها مهوات الخيالى اشارة الى ما اتفق له في حاشيته الأولى

وكثيراً مايقع مثل هذا لبعض المؤلفين من أهل هذا العصر

وأعرف من هؤلاء رجلا من علماء مصر كان اذا استشكل بعض عبارات المؤلفين أولم يجدها صالحة كتب عليها (فيه مافيه) اشارة الى ان فى الأمر اشكالا يجب التنبه له ولم تسمح نفسه بابرازهذا الاشكال الذى ربما كان أفرغ من السلب المطلق واتفق ان أحد تلامذة الشيخ سأله يوماً أن يحل له رمزاً من تلك الرموز فاضطرب وتحير وصار يقرأ العبارة ويكررها كأنه يتذكر منسيا ثم كان جوابه لم يبق فى فكري منها شئ وهذا داء يعسر دواءه والله المستعان على ذلك كله

هذا ومن الامور المتحتم مراعاتها فى التعليم أن يكون فى المتعلم استعداد لتعلم العلم وتلقيه فان لم يكن له استعداد وفيه قابلية لذلك فلا ينبغي ان يدخل فى صفوف طلبة العلم لأن فيه اضاعة له وصرفا لعمره فيما لا استعداد له فيه ولاحظ له فى الحصول عليه وهذا يعرف بالنظر الى المتعلم بعد مدة يسيرة من الاشتغال فان رؤى قد علق بفكره شئ مما ألقى اليه وتحفظه وفهمه استدل بذلك على قابلية فيه وتهيئ للتعلم وإلاعلم أنه على الضد من ذلك فصرف عن العلم الى ما يلائم عقله من الصنائع

وهكذا كانت طريقة المتقدمين فى تعليم العلم فما كانوا يقبلون كل أحد في حلق دروس العلم ولا يسمحون لكل أحد بالانخراط فى سلك المتعلمين وانما كانوا يقبلون من شعروا منه باستعداد للعلم وتهيئ

له : وكان المعلم من أولئك العقلاء اذا التف حوله لفيف من الطلبة المتعلمين ليتلقوا عنه ما أعد نفسه لتعليمه من العلوم اختبرهم فى اقصر وقت وعرف ماعند كل واحد من الملكات والاستعداد وعرف ما الذى يناسب استعداد كل واحد منهم من العلوم والصنائع فصرف كل واحد منهم فيما رأى أنه مستعد له فكانت صفوف أهل العلم منتظمة والتربية ناجحة والافادة غير عقيمة والناس كل واحد فى مركزه يؤدى لبني نوعه من الخدم مايساعده عليه استعداده وفطرته

ولم يكن أولئك المتعلمون يستعصون على معلميهم ويكابرونهم على ما رأوا من حالهم بل كانوا لايختلفون عليهم بشيء .. ذلك لأن أحدهم ما كان يرى الشرف والرفعة وعلو المكانة بالانتساب الى العلم وان تكن نسبة مجردة عن التحقق به وانما كانوا يرون الشرف كله والسعادة برمتها فى أن يخدم الانسان بني نوعه الخدمة التى يؤهله لها استعداده الذى فطر عليه قويا كان أو ضعيفا ويعتقدون ان الانسان متى أدى هذه الخدمة فقد حصل من الشرف والسؤدد على أقصى غايتهما وساوى سائر الناس على اختلاف استعداداتهم وان ما ليس في وسع استعداده لم يكلف بالقيام فيه ولا يعدّ عدم ظهوره على يديه نقصا منه

ونحن أهملنا الكلام على هذا المقصد المهم واكتفينا بالاشارة اليه فيما سبق لعلمنا ان في حمل الناس من أهل النظر في العلوم على اختلاف

أنواعها عليه حملا لهم على المركب الخشن وفي تكليفهم العمل به تكليفهم بما لا يطاق وربما كان فيهم من يرى ان الكلام على هذا صد عن السبيل ووقوف في وجه العلم وانما لكل امرئ ما نوى

﴿ خاتمة المقال ﴾

هذا آخر ما قصدنا اليه من الكلام على العلوم الشرعية وكيفية تعليمها وبيان الكتب المتداولة اليوم ودرجتها بين الكتب العلمية وكشف الستار عن جيدها ورديئها واختيار النافع من الضار منها والاشارة الى ما يجب مراعاته على المعلمين والمتعلمين للوصول الى العلم والحصول على النتيجة المطلوبة منه .. وقد كان الكلام فى كل ما سبق القول فيه يحتاج الى بسط الكلام عليه بأكثر مما ذكرنا الا أننا رأينا أن نكتفي بهذا القدر اليسير والاشارة اللطيفة لما نعلم من حسن نظر من كان الخطاب لهم بهذا الكتاب وإكتفائهم باليسير عن الكثير وعسى أن يحقق الله ظننا فيهم بالرجوع الى الحق وقت الامكان وتلبية نداء الامة باصلاح حال العلوم الشرعية قبل ضياع الفرصة المناسبة وما ذلك على الله ببعيد

ولقد يعلم الله اننا بالغنا في البحث والتأمل وأكثرنا من استقراء أراء الناس فى هذا الموضوع الذى بنينا كتابنا على البحث فيه واختيار الاوفق والانفع والاقرب للمصلحة ولم نثبت شيئاً مما أثبتناه في كتابنا

هذا الا وقد ظهر لنا من الدلائل والقرائن على صحته وملاءمته ما يدفع عنا كل ريبة في أمره ولم نراع في شيء مما كتبنا سنة مألوفة ولا عادة متبعة ولا راعينا قوما ولا تحيزنا لفريق وانما تحرينا في كل ما كتبنا الحق الواضح البين وان خالف عادتنا وما ألفناه وخالفنا قوما في اشياء كثيرة ما كنا لنخالفهم لولا ان الحق أحق بالاتباع والمصلحة خير لنا منهم وخير لهم منا

وبعد هذا كله فالانسان معرض للخطأ والسهو والنسيان وما كنا لندعى لنفسنا العصمة في الرأي الذى تفرد به خالق الخلق والحفظ عن الزلل في الاجتهاد وماذلك من سماتنا وان لنا من العذر على ما قد يكون وقع في الكتاب من خطأ في الرأى مالا يخلو عنه انسان ولنا فيه مع ذلك أجر الاجتهاد وثواب حسن النية والاخلاص في القصد والله عليم بنوايا عباده مطلع على ذلك منهم وهو مجازيهم على ماعلم منهم إن خيراً فخير وان شرا فشر

واختم الكتاب كما أفتتحته بدعوة رؤساء العلوم الاسلامية وأصحاب الرياسة على طلاب العلوم الشرعية ان يشاركونا في البحث في هذا الموضوع وينظروا معنا في اختيار الاوفق والانفع للعلوم الشرعية ثم العمل بما يقع عليه الاختيار فاشتغالهم بذلك شرف لهم الى يوم الدين وهو خير من أن يقع الاصلاح على يد غيرهم على كره

منهم فيكون ذلك عليهم عار الابد وسبة الدهر وربما كان فى ذلك الاصلاح القضاء على العلوم الشرعيـة كما يتراآى لنا من وراء حجاب كان الله لنا ولهم خير موفق ومعين

﴿ كلمة فى الأزهر ﴾

الازهر أعظم وأقدم مدرسة اسلامية على وجه الكرة الارضية وليس يدانيه فى شئ من أوصافه جامع بني أميـة بدمشق ولا جامع الزيتونة بتونس ولا جامع السلطان محمد الفاتح بالآستانة العلية ولا مدرسة عليكده بالهند بل هو خيرها كلها ولقد توفر فيه من المزايا ما لم يتوفر فى غيره من المدارس ولذلك كان قبلة الآمال ومحط الرحال وكانت منزلته فى العلوم الشرعية كمنزلة الدولة العلية العثمانية من حيث السياسة الاسلامية من أجل هذا رأينا بعـد أن ختمنا الكلام على العلوم الشرعية وذكر الطرق المناسبة فى تعلمها وتعليمها والمؤلفات الجيدة التي يجب الاعتناء بها والاخذ عنها ان نخص هذه المدرسة بكلمة نقولها فيها لأن لنا ولسائر المسلمين فيها من الآمال ماليس لنا في غيرها من المدارس الاسلامية لأسباب ليس هذا محل بسطها نستلف فى هذه الكلمة أنظار حضرات رؤساء الازهر وذوى الكلمة النافذة فيه بعد استلفات انظارهم بما سبق من القول الى حالة العلوم وما يحيط فيها من الاخطار التى تتهددها الى

أشياء قد أهملت فى الازهر وفي اهمالها حطة بمقامهم ودلالة واضحة على عدم اعتنائهم بأمر الازهر والنظر فيه كما يلزم والى أشياء أخر فشا بين أهل الازهر استعمالها والحرص عليها وملازمتها وهى غير لائقة بهم ولا حسنة منهم

ونحن لسنا ننتقد عليهم مالم ينتقده أحد عليهم ولا نذكر عنهم مالم يذكره أحد قبلنا وانما نعيد على مسامعهم ذكر ماينتقده الناس أبداً على الازهريين ونأمل ان أخفقت كل المساعي السابقة فى تحسين حالة المجتمع الازهري وذهبت كل تلك الاقوال ادراج الرياح أن لاتخفق مساعينا ولاتذهب أقوالنا فان فى الازهر اليوم قوما لهم رغبة شديدة فى الاصلاح وميل شديد الى تحسين حالة الازهريين وكف ألسن اللوّام عنهم وفي يدهم من السلطة مايمكنهم من أجراء هذا الاصلاح وقد قل حزب المعارضين للاصلاح وتفرقت كلمتهم وضعف صوتهم فى الادارة الازهرية

على أنهم اذا اصروا على البقاء على الحالة الحاضرة وسدوا آذانهم عن سماع كل نصح وارشاد وساعدهم الوقت الحاضر على رد كلام كل متكلم فى شأن الاصلاح المطلوب فلن يستطيعوا أن يضمنوا لانفسهم استمرار هذا الحال وبقاء الدهر معهم فى المساعدة على مايريدون وكف أيدي الاصلاح عنهم فرب يوم يأتى يحاولون فيه الاصلاح فلا يستطيعون

اليه سبيلا ويودونه فلا يتمكنون منه ويخرج الأمر من يدهم الى يد من لا يرضى إلاّ بتصريفهم حسب أرادته وعلى قدر ماتساعده عليه أغراضه وان كان فى ذلك فساد حالهم وتفريق جماعاتهم ولهم فيما سبق عبرة فاعتبروا ياأولى الابصار

﴿ السلطة فى الازهر ﴾

يظن الظان اذا سمع بالازهر عن بعد وعلم أن هناك شيخاً عموميامتسلطاً على كل من جلس بين جدران الازهر وأعضاء يستعين برأيهم وعملهم ومشايخ أروقة ومشايخ حارات يسيطر كل واحد منهم على من تحت يده من أهل حارته ورواقه وان هناك مباشرا ينفذ أوامر الرئيس الكبير وأعوانا كالشرط وسمع أن لكل واحد من هؤلاء الذين ذكرناهم لوائح وترتيبات وقوانين ان حالة النظام هناك كاحسن مايمكن أن تكون عليه مدرسة فاذا وقف على أحد أبواب الازهر وألقى نظره على جموع من الطلبة يموج بعضهم فى بعض علم أن لا نظام ولا انتظام وظن نفسه أنه فى سوق من الاسواق العامة التى تقام فى بعض الاماكن فى أيام مخصوصة فيقصدها الناس من جهات شتى

يرى قوما فيهم القائم والنائم والقاعد والمضطجع والمستلقى والساكت والمتكلم والماشى والمهرول وفيهم من يسب ويصخب ومن يقهقه ويضحك ومن يرفع صوته ويتحدث وقد ارتفعت الضجة عنهم حتى بلغت

كبد السماء ولم ير بين تلك الجموع أحدا من الرؤساء الذين تقدم ذكرهم يكف أو يمنع أحدا عن فعل مالا يليق ويبث روح السكينة والطمأنينة بين تلك الجموع ويقف بكل أحد منهم عند حده الذي يضر بغيره تجاوزه إياه أو يخل بالآداب

بل الطالب الازهرى يدخل الازهر فيمضى فيه عشرات من السنين لا يحس فيها بسلطة ولا يستشعر برياسة يحضر ان شاء متى شاء على من شاء لا يتقيد بمعلم ولا بكتاب ولا زمن يحضر فيه وكأنه في تنقلاته في حلق الدروس ورجوعه عن معلم الى آخر كريشة معلقة فى الهواء لا تستقر على حال من القلق وان لم يكن له نية فى الحضور ولا همة فى التعلم ترك ذلك كله رأساً واشتغل بما يوافق شهوته وأغراضه لاخائفا واش ولا مرتقبا

والسلطة فى الأزهر التى يشعر بها الازهريون تنحصر فى أمر واحد وهو ان الطالب لا يمكنه مفارقة الازهر الى جهة من الجهات الا بعد الاستئذان من مشيخة الجامع أو دخول وقت البطالة الرسمية التى يباح فيها ذلك اباحة عمومية أما فيما عدا ذلك فلاسلطة فى الازهر لأحد على أحد وكل واحد منهم مخير في فعل ما يشاء .. ولولا أمر الجرايات لم يوجد فيه هذا النوع من السلطة وكان فى استطاعة كل واحد منهم أن يسافر جهاراً متى شاء ولذلك فالموسرون من الطلبة لا

يبالون أن يسافروا متى شاؤا ويحضروا متى أرادوا لا يحجر عليهم ذلك أحد ولا يمنعهم منه مانع

وهذا من أغرب الاهمال وأضره على أخلاق الطلاب وآدابهم ومستقبل حالهم والانسان مفطور على حب الاستقلال بالرأى مجبول على كراهة التقيد برأى غيره ميال بطبعه الى فعل كلما يوافق اغراضه ويلائم طبعه وتوجيه اليه نفسه فان لم يكن فوق إرادته إرادة قاهرة تضطره لفعل شئ والكف عن شئ وتقف به عند حد مخصوص خرج فى أكثر أعماله وحركاته وسكناته عن حدود اللياقة والأدب وساء حاله ومآله ولم يكن هو الجانى على نفسه ومستقبله وانما الجانى عليه من ضمه الى كنفه ووضعه تحت نظر حياطته وتكفل لاهله بتربيته التربية الحسنة ورفع عن عنقه سيطرة أهله وذويه ثم تركه هملا يفعل ما يشاء ويقول ما يشاء بدون قيد ولا مراقبة

فالازهريون أحوج مايكون الى نظام يكون مسيطراً فى عليهم فى حركاتهم وسكناتهم وكل تصرفاتهم وفى ذلك مصلحة كبيرة لهم وليس فى هذا تضييق على طلاب العلوم الشرعية ولا صد عن سبيل الله كما يدعيه أهل الأهواء الفاسدة والاغراض السقيمة الذين ران على قلوبهم حب الفوضوية وأشربت قلوبهم كراهة النظام والانتظام وانما الصد عن سبيل الله وتغيير خلق الله فى ترك عشرة آلاف نسمة

من بنى آدم يفنون أعمارهم اما فى بطالة ولهو ولعب ويكلفون الأمة ان تحمل عنهم أعباء هذه الحياة الثقيلة على ان الأمة فى حاجة الى من يحملها

ثم ان للأزهر من الاوقاف ما يقوم بنفقاته الباهظة ولا يكلف أهله أحداً من الناس ان يؤدي عنهم بعض مايلزمهم ولكن ليس كل أهل الازهر يقدم لهم ديوان الاوقاف لوازمهم المعيشية وأكثرهم يقضون أعمارهم الطوال عالة على آباء ضعاف فقراء هم أحوج منهم الى المساعدة . ثم ان الاوقاف التى وقفت على أهل الازهر فانما وقفت عليهم على انهم مشتغلون بعلوم الشريعة أتم اشتغال وأحسنه قائمون بكل الوظائف التى تناط باهل العلوم الشرعية فاذا أهملوا ذلك وصارت اضافتهم للعلم لادنى ملابسة واقتصروا من تعلم العلم على الاجتماع فى المدرسة والاعتكاف فيها مع عدم الاشتغال بالطلب كما هو حال بعض طلاب الازهر او اشتغلوا به وطلبوه لكن من غير وجهه الذي يطلب منه عند عقلاء الناس بحيث صار لا يحصل من وراء طلبهم مصلحة للناس منعت عنهم الاوقاف وصرفت الى جهة أخرى يكون فيها للناس مصلحة والفقهاء يقولون ان الوقف على الخانكاه (مجتمع الصوفية) يحول الى غيرهم لان اجتماعهم على بطالة لا على طاعة وعبادة فكذلك حال طلبة العلوم اذا أهملوا النظر فى العلم وأساؤا في التماسه

وليس يكفل هذا غير نظام صارم يقوم بتنفيذه على الطلبة رجل حازم فان لم يكن هذا ولا ذاك فلسنا هنا ولا هناك

﴿ الشريعة فى الازهر ﴾

فائدة المتعلم من العلم أن ينفع أول كل شئ نفسه بما علم ثم ينفع غيره من بنى جلدته فاذا خلا العالم عن هذين الامرين كان سعيه فى تعلم العلم عبثا لا خير فيه وكان طلبه اياه ضلالا وصرفا للعمر فيما لا ينتفع به هو ولا غيره وأى خير فى الطبيب اذا مرض واحتاج الى استعمال الدواء فأعرض عنه وهو يعرفه وفي قدرته الوصول اليه واستعماله وما الذى استفاده من تعلم الطب والانقطاع لتحصيله وأى فضل له على الناس اذا دعى لمعالجة مريضهم فكف وأحجم أليس لو كان كف من أول أمره عن تعلم هذه الصنعة كان خيراً له من تعلمه و حمل الناس على الوقوع فيه

هذا ما لا يمكن المراء فيه مهما اختلفت الاهواء وتضاربت الآراء فالانسان بعمله لا بعلمه وكل شرف وفضل يحصل عليه المرء فى دنياه فهو ثمن عمله لا ثمن علمه والعلوم اذا بقيت مخزونة في الدماغ ولم يظهر لها أثر فى الخارج فوجودها وعدمها سيان وأن ليس للانسان الا ما سعى

ونحن اذا نظرنا الى الأزهر اليوم وقبل اليوم وهو أعظم وأقدم

مدرسة اسلامية لتخريج العلماء الدينيين لم نجد فيه أثرا من آثار الدين غير مايوجد عند عوام المسلمين ولم نجد في معاملاتهم شيئاً ينطبق على الشريعة وكلها قد اقتصّ بها أثر العادة أو أثر الهوى والرأي ومن أنكر النكر أن يكون منجم الدين خاليا من الدين

يدخل الانسان متوضأ الازهر فيرى قوما من طلبة العلوم الشرعية بالازهر يدخلون المراحيض حفاة وهم يقرأون في كتبهم الشرعية ان التضمخ بالنجاسة حرام فاذا خرج أحدهم من المرحاض جاء فغسل رجليه أدنى غسل وانتقل الى المكان الطاهر وآثار النجاسة على اقدامه فينجس الطاهر ويرى قوماً آخرين يأتي الواحدمنهم الى المحل الذي يتوضأ فيه فيكشف عورته بين جماهير طلاب العلوم الشرعيةويبول حيث يتوضأ ثم يستنجي فيقع ماء الاستنجاء على مواطئ أقدامه فاذا قام نقل النجاسة بأقدامه النجسة الى حيث يقف للصلاة

كل هذه المنكرات الشرعية العقلية فى محل الوضوء وثم غيرها كثير لاحاجة للاطالة به ومن أعطى التأمل حقه لم يكتف بالحكم على هؤلاء الاقوام بفساد الآداب والاستهانة بالدين وانما يحكم مع هذا أيضاً بعدم صحة الصلاة فى الازهر لشيوع النجاسة فى الازهر من المتوضأ الى المحراب وفى عصر فضيلة الشيخ حسونه النواوى شكى بعض طلبة الاتراك اليه من سوء هذا الحال فأقام أحسن الله اليه فى الميضأة

جماعة من خدمة الأزهر يكفون طلبة العلوم الشرعية عن القبائح والمنكرات الشرعية بالعصى الا ان هذا الدواء لم ينجع وظل الحال على ما كان عليه

ذلك لأنهم تربوا بين أهليهم على عدم التوقي من النجاسة والتساهل فى المنكرات ورسخ ذلك فى نفوسهم فعجزت عن ازالته الآراء والافكار . والعادة تقع على النفس كما تقع النقطة من المداد على الورق فاذا كان الورق جيداً حسن القوام أمكن معالجته وازالة أثر المداد عنه واذا كان رديئا سرى المداد في اعماقه وخالط جميع أجزائه ولم يبق من حيلة فى ازالته فما زال الكاغد موجوداً فالمداد معه ولا يزول المداد الا بقطع محله من الورق وطرحه وليس يمكن مثل هذا العلاج في النفوس وادواء العادات أبعد الادواء عن الشفاء

ومما يستنكر منهم انه اذا دخل وقت الصلاة انتصب امامان فى وقت واحد وذلك مستنكر شرعا لما في ذلك من تفريق الجماعة وقام خلف كل امام مبلّغ يبلغ له فيقع بذلك التشويش على المصلين فربما انتقل أحد الامامين فانتقل المقتدون بالآخر لانتقاله ظنا منهم ان المنتقل امامهم ثم يعلمون ان المنتقل هو الامام الآخر فيعودون الى متابعة امامهم لتبينهم الغلط فى انتقالهم وهكذا فى سائر انتقالات الامامين حتى تتم الصلاة ولا يعلم المقتدون بمن يقتدون ولمن يتابعون

وقدكان الاستاذ المرحوم المفتى تكلم مع فضيلة الاستاذ الشيخ حسونه النواوى أول توليته شيخا على الجامع الازهر فى هذا الشأن وذكر له ماينتقده الناس على أهل الازهر من تشويشهم على المصلين فأمر فضيلته أحد الامامين ان يتأخر بالاحرام في صلاته حتى تتم صلاة الامام الآخر ان لم يكن لاجل الخروج عن كراهة قيام امامين فى وقت واحد فلاجل عدم التشويش على المصلين في صلاتهم فوقع الاختلاف أولا فيمن يتأخر من الامامين وكل يرى انه أحق بالتقدم لوجوه أبداها ثم استقر الأمر على ان يتقدم امام المالكية حتى اذا فرغ من صلاته شرع إمام الشافعية فصلى بمن معه فكان اذا سلم الامام المالكي أحرم الامام الشافعى ثم لم يمض غير اليسير من الزمان حتى صار الامام الشافعي يدخل في الصلاة فى أثناء صلاة المالكية كراهة للانتظار ثم مازالوا يتدرجون في الرجوع الى الحالة الأصلية حتى عادوا الى مثل حالتهم الاولى

وهذا من أغرب ماينقل من آثار الجمود ويااليت شعرى اذا كان هذا حال الائمة فماذا عسى ان يكون حال المقتدين وكيف يمكن ان يتربى أولئك الطلبة التربية الشرعية الحسنة التى تؤهلهم لاصلاح حال أنفسهم وحال الناس الذين ربطوا آمالهم بهم بل لا يستنكر بعد هذا على صغار الطلبة الازهريين ان يثبوا من فوق ظهور المصلين وهم فى

سجودهم كما هي عادتهم اذا اصطف الناس للصلاة واذا كانت عجلةُ الامام القدوةِ تسهل عليه مقارنة امام آخر فى الصلاة مع ما فى ذلك من كراهة اجتماع إمامين في وقت واحد وحرمة التشويش على المصلين فلم لا يسهل علي صغار الطلاب ان يثبوا من فوق المصلين وهم فى صلاتهم اذا كان أئمتهم بالمثابة التى أشرنا اليها

وحاصل القول ان الجامع الازهر الذى هو أكبر مدرسة دينية اسلامية لا يجد الانسان فى أعمال أهله شيئا ينطبق على الدين حتى ان الحوادث التى تحدث فى الازهر بين أهله وترفع الى رؤسائه للحكم فيها لا يحكم فيها بحكم شرعي وانما يحكم فيها بالقانون الوضعى إن كان لتلك الحادثة نص في القانون وكان لهم غرض فى اجراء الحكم القانونى أو بالوجدان وهو الاكثر الاغلب .. وأغرب شئ ان يكون منبع الدين لا أثر فيه للدين

وهذا الذى قلناه انما يكون فى الحوادث التي ليس من شأن النيابة النظر فيها فاما المسائل التى من حقوق النيابة النظر فيها فتلك تحول اليها لتجرى فيها الاحكام القانونية

وقد كان اللائق بمثل هذه الجمعية العظمى التى تمثل نظام الدين الاسلامى وحسن ترتيباته وجميل ادارته أن يكون لهم قانون مخصوص فى جميع أحوالهم وأدوارهم يجري عليه كبيرهم وصغيرهم ولا يدع

لقانون آخر سلطة عليهم بان يجعلوا لانفسهم قانونا شرعيا ويتفقوا مع الحكومة على أن تكون معاملتهم به لا بسواه وان يقوم بتنفيذه عليهم قوم منهم لا من غيرهم فيكون هذا القانون شرعيا من جهة اداريا من جهة أخرى ويكون ذلك أشبه شيء بالامتيازات التي كانت تمنحها الحكومة لقوم معينين من رعاياها لمزايا خصوصية فيهم فكان يمكنهم بذلك المحافظة على رونق الاسلام وبهائه فى المدارس الدينية الاسلامية

وقد كان بعض أعيان مصر ممن ينظر الى المستقبل من وراء ستر صفيق أشار على المرحوم المهدى أيام كان شيخا على الازهر ان يجعل للازهر قانونا شرعيا فى كل مايحدث فيه من الحوادث جليلها ودقيقها ويطلب من الحكومة ان تصدق عليه وتعتبره قانونا رسميا للازهر وسائر المدارس الدينية فى مصر وقد كان فى ذلك الحين ذلك ميسوراً وحذره من عواقب المستقبل الا ان المرحوم العباسي لم يوفق لانجاز هذا العمل وعارضه فى ذلك قوم كانوا يظنون ان السلطة العمياء ستبقى فى أيديهم يديرون حركتها كما يشاؤن فآل بهم الامر الى مثل ما نراهم عليه اليوم

ولذلك نحن ننبه أفكار عقلاء أهل الازهر وذوى الكلمة النافذة والرأى المطاع فيه الى انتهاز هذه الفرصة فى اصلاح ادارة الازهر وادارة شؤونه وترتيب أموره قبل أن يخرج الأمر من أيديهم الى

غيرهم وتنزع البقية الباقية من السلطة التى فى أيديهم ويدور الاصلاح فيه علي محور لا يرضيهم ولا يضمن للازهر الديني حسن المستقبل فيقضوا عليه باهمالهم قضاء أخيراً لا يرجى له بعده حياة فرب وقت يجيء وسلطة أكبر رئيس في الازهر لا تفضل سلطة أدنى خوجة فى مدارس المعارف والبقاء على الحالة الحاضرة ضرب من المحال وفى النظر الى ما مضى أكبر عبرة لمن يعتبر

وثمة أشياء أخر من المنكرات الشرعية والمستقبحات العقلية كتقذير الازهر بالقاء فتات الخبز وقشور البصل وغير ذلك فيه والاستهانة بالمصاحف ووضعها تحت الاقدام الي غير ذلك مما لو اوردنا شرحه لا تسع علينا نطاق المقال وليس ذلك من غرضنا وانما الغرض ان نبرهن على ماقلناه أولا من ان الشرع وآدابه اللطيفة لا وجود لها فى المدارس الشرعية المصرية ونلفت انظار عقلاء الازهريين وكبارهم الى الحالة الشنيعة التي شوهت محاسن سمعة أهل العلم وحطت من علي مقامهم وكادت أن تحط بشأن الدين والشرع لظن قوم من الناس ان ما عليه أهل العلم الديني هو غاية محاسن الدين ومنتهى كماله

﴿ الآداب والأخلاق ﴾

ومما يوجب الأسف من أحوال الازهريين وغيرهم من طلبة العلوم الشرعية في القطر المصري ويستدعي عناية المهيمنين علي الازهر

القائمين بشؤنه شيوع فساد الأخلاق وقلة الآداب بينهم وقلة من تحسن معاشرته من أهل هذا الجمع الكثيف الذى يعد بعشرات الالوف حتى كانوا في ذلك المثل المضروب بين الناس

وهذا شىء لا يحتاج أن نتكلف له دليلا ولا أن نوضح لبيانه سبيلا فالناس الذين خالطوا بعض هؤلاء الناس يعرفون شيئاً كثيراً من فساد أحوالهم ويألمون منها كما نألم ويرجون لهم من الصلاح مانرجو والطلاب أنفسهم اذا فتشوا عن سبب كراهة الناس لهم ومقتهم إياهم علموا أن ذلك يرجع أكثره الى فساد أخلاق أكثر الطلاب وسوء معاملتهم وبعد هذا فحسبنا دليلا على ماذكرنا ان كل جمعية في العالم كلما كثر عدد أفرادها وطال عليها العهد ارتفعت مكانتها فى القلوب وعظم شرفها الذى يمنحها إياه استعدادها الطبيعى الا جمعية العلوم الشرعية فانها كلما كثر سوادها وقدم عهدها انحطت مكانتها وتضاءل شرفها وكثر سخط الناس عليها ومقتهم إياها

وليس في هذا ذنب على أحد من الطلبة فان أكثر افراد طلاب العلوم الشرعية الذين يشكلون هيئة الجمعية الدينية ينتقلون دفعة واحدة من الغيطان والمزارع والحقول وفيا فى الأرض الى المدارس الشرعية ولم يكونوا قد سمعوا قبل انتقالهم ذلك بشئ من أحاديث الآداب وكمال الأخلاق وحسن المعاشرة فاذا حصلوا فى مدارسهم فى الامصار

المشحونة بالرذائل ومفاسد الاخلاق فيفتحون أعينهم على ذلك وينمو ذلك في نفوسهم ويرسخ حتى يصير ملكة من الملكات حيث لم يجدوا مرشداً يرشدهم الى مكارم الأخلاق ولطائف الآداب ويحضهم عليها بل ولا رادعا يكفهم عما تميل اليه نفوسهم من الانغماس في الرذائل إسوةً بالسواد الاعظم من اخوانهم وزملائهم في الطلب وسائر أهل مصر هم الذي انتقلوا اليه

وانما الذنب على رؤساء المدارس الدينية الذين أهملوا النظر في شؤن من تحت يدهم وفي قبضة تصرفهم من الطلاب وتركوهم هملا كالانعام لا يفضلون صالحاً على طالح وألقوا اليهم مقاليد أمورهم يسرحون ويمرحون ويفعلون مايشاؤن لا يخافون سلطة متسلط ولا يخشون عقوبة رئيس

ومن أمد غير بعيد شعر كبار رؤساء المدارس الدينية بفساد حال طلبة العلوم وشدة عوزهم الى شيء من التربية فقرروا لذلك ان يزاد في عدد العلوم الدراسية بين صفوف تلامذة المدارس الشرعية علم الاخلاق وتهذيب النفس وتربية الملكات الفاضلة فيها ولكن هذا وحده مما لا يكفي في تهذيب النفوس وكفها عما تميل اليه بطبعها من الانغماس في الرذائل والانكباب على مايشينها ويحط من شأنها بل لابد مع ذلك من مراقبة شديدة وعقاب صارم يقف بكل انسان

عند حده الذى ضرب له . فان النفوس فى طبعها الشر والفساد وقل فى النفوس من تميل بطبعها الى الكمال والخير فان لم تجد فى طريق طبائعها واستعدادها صارفا قويا وحاجزاً حصيناً يرد من غربها ويكسر من حدتها لم يقطعها عن استرسالها فى ذلك سواد السطور على بياض الطروس وكلام تلقيه الشفتان فى أوعية الاذان وما دامت الرقابة عدمية والرياسة اسمية والحدود الشرعية متعداة والقوانين الاصطلاحية مهجورة وباب الالتماس مفتوحا وسبيل الاسترضاء مطروقا والارادات متعاكسة فمن المحال ان يحسن لهذه الجمعية الأسيفة حال

﴿ لجنة الأمتحان فى الازهر ﴾

اذا نظر الرجل البصير الى هؤلاء الذين يمتحنون من أهل الازهر ويعطون الدرجات العلمية وعلم ان كثيراً منهم ليس فيهم من الاهلية والاستعداد ما يرشحهم للوقوف فى صفوف المعلمين لم يتردد فى الحكم على اعضاء لجنة الامتحان بالتقصير فى النقد والاختبار إن تردد فى الحكم عليهم بالتحيز والمحاباة

وقد كنا من سنوات سلفت ذاكرنا أحد كبار أعضاء لجنة الامتحان ومن له الكلمة النافذة فيها فى هذا الشأن على أثر اعطاء اللجنة العلمية شهادة الدرجة الاولى الممتازة لضعيف فى العلم كبير فى الجاه والقدر وذكرنا له مافى ترشيح الضعفاء من الطلاب للتعليم من

الاضرار بالمتعلمين والقضاء على البقية الباقية من العلوم الشرعية فكان جواب ذلك العضو ان اللجنة مضطرة الى إعطاء شهادة العالمية لاناس وان كانت لاترى فيهم أهليـة للتعليم وأ كثر مافى وسع اللجنـة أن تخير الأحسن فالأحسن من الذين يتقـدمون لنوال شـهادة العالمية وان كان فيهم كلهم ضعف قال حضرته فان الشيخ المفتي يبذل قصارى جهده في اقناع الحكومة بأن التعليم فى الازهر عقيم لاينتج شيئاً فلو تحرينا بالشهادة من يستحقها حقيقة لكنا قـد صادقناه امام الحكومة على أقواله وشهدت له أفعالنا بما تنكره عليه السنتنا

والشيخ محق فى قوله ولكنا لسنا نري ان هذا الذى ذكره هو السبب الوحيد فى عدم الاعتدال ونعتقد أن وراء ذلك السبب أسباب فقد قضى المرحوم المفتي وخلا لهم الجو ممن ينبه رجال الحكومة على أحوالهم فمابالهم لم يرجعوا الى السـداد في أعمالهم ان كان خوف تغلب المرحوم عليهم هو السبب فى عدم استقامتهم

ولرب قائل يقول ان فضيلة الاستاذ المرحوم من يوم دخـل الأزهر والتأم نظام لجنة الامتحان حتي يوم وفاته تقريبا لم يفارق لجنة الامتحان وادارة الازهر وله فيهـما الكلمة المطاعـة والرأى النافـذ فكيف كان يوافق علي ترشيح غـير المترشحـين واعطاء غـير المستحقين وطريقته تقتضي التصعب والتشديد قلنا ان الشيخ محمداعبده

من يوم دخل الازهر بصفته عضواً فى ادارته لم يكن يألو جهداً فى قلب نظامه وجعله على نظام آخر يضمن له حسن الحال فى حاضره والسلامة فى مستقبله وكان يظن ان جماهير العلماء الذين لابد من أخذ رأيهم فى قلب النظام يوافقونه على آرائه ولا يعارضونه فيها فلما لم ير منهم الا العناد والاصرار على الاستمرار على الحالة القديمة ورأى صوته مغلوبا بين تلك الاصوات الكثيرة ولم ير منهم من يشايعه على فكره غير نفر يسير لا يمكنهم مقاومة ذلك الجم الغفير عقد آماله بالناشئة الازهرية الذين لم تشرب قلوبهم حب الحالة المألوفة ولا يخلو بعضهم عن كراهة لها فاضطر الى اغماض عينه فى الامتحانات والتساهل مع المتقدمين لنوال الشهادات ليجعل له من هؤلاء المتخرجين الحديثين حزبا يقاتل بهم أولئك الذين لا يجدون الى الخروج عما ألفوه سبيلا ويضعف بهم أصواتهم والسياسة كما كان يقول رحمه الله تبرر من الاعمال كل فاجر

ولو ان المرحوم أمد له فى سبب الحياة ولم تعاجله المنون لنجح فى سياسته هذه وحصل على ما يريد فقد تحصل بهذه الطريقة التى سلكها على أنصار كثيرين يشايعونه على أفكاره ويوافقونه عليها وأكثر الذين نجحوا فى أيام حياته فى الامتحانات العلمية ونالوا الدرجة يعتقدون انهم ما نالوا حقهم الا بفضل اعتداله واستقامته وأكثر الذين

يخرجون اليوم من قاعة الامتحان صفر اليدين يتمنون ان لو بقى الاستاذ حيا حتى لايحرموا مايستحقون وما كل متمنى مدرك

وانا لنرجو بعد اليوم ان يجرى الامتحان على نظام حسن ومنهج قويم لايشوبه شئ من التحيز والمحاباة فقد كفى ما كان

وليس من ترتبط به الآمال فى اصلاح هـذه المدرسة الدينية العظمى التى تجمع الالوف المؤلفة من الطلاب الذين ترتبط بهم آمال المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها غير سمو الجناب الخديوي المعظم صاحب السلطة الوحيدة فى الازهر وانا لنرجو ان لاتزال أنوار انظاره مشرقة على الازهر المعمور وكتائب أفكاره المنصورة متوجهة اليه بالاصلاح حتى يقف به على اليفاع فيعيد للاسلام مجداً الوت به الايام ويحفظ لنفسه ذكراً حسنا يتجدد بتجدد الاعوام

تم القسم الاول من كتاب التعليم ويليه القسم الثانى منه وهو قسم الارشاد وفيه الكلام على الوعاظ والمتصوفة ومالهم من الآثار السيئة على الاسلام وذكر العلاج الشافى من الامراض التى أحدثوها فى العقائد والاعمال .. والحمد لله كثيراً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً

فهرس قسم التعليم من كتاب التعليم والارشاد

صحيفة

﴿ تم الفهرس ﴾